ذكريات طفولة : ٤

مارسيل بانيول

زمن الحب

ترجمة : محمد سيف

سلسلة كتاب شرقيات للجميع (٤٣)

Bibliotheca Alexandrina
0035634

ذكريات طفولة (٤)

زمن الحب

Souvenirs d'enfance (4)
Le Temps Des Amours
Marcel Pagnol
Editions de Fallois

ذكريات الطفولة (٤)

زمن الحب

مارسيل بانيول

ترجمة: محمد سيف

الطبعة العربية الأولى ١٩٩٧

© حقوق النشر محفوظة لدار شرقيات ١٩٩٧

دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ش محمد صدقي، هدى شعراوي
رقم بريدي ١١١١١
باب اللوق، القاهرة
ت: ٣٩٠-٢٩١٣ س.ت: ٣٦٩١١٩٨

صدر هذا الكتاب
بالتعاون مع
البعثة الفرنسية
للأبحاث والتعاون
قسم الترجمة
القاهرة

غلاف وإخراج: ذات حسين

لوحة الغلاف

تفصيلة من «فتاة في الحديقة» مونيه

رقم الإيداع: ١٩٩٦/٨٢٣٧
الترقيم الدولي: ISBN 977-283-013-2

ذكريات طفولة [٤]

مارسيل بانيول

زمن الحب

ترجمة : محمد سيف

دار شرقيات للنشر والتوزيع

يجد القارئ هنا الفصول التي كتبها مارسيل بانيول ليصوغ منها روايته «زمن الحُب»، والتي تم العثور عليها بملفاته بعد وفاته. وقد تمت الإشارة إلى تواريخ، وظروف وقصة تأليف هذا الجزء في نهاية الكتاب.

كان مارسيل بانيول شديد التعلق بالكمال والإجادة. ونحن نعرف أنه كان بصدد الانتهاء من هذا العمل. وربما كان ينوي إضافة لمسات جديدة إلى بعض هذه النصوص. أما بعضها الآخر -وهو كثير- فمن المؤكد أنه اعتبرها قد اتخذت شكلها النهائي، لأنه سمح بنشرها في عدد من المجلات.

ونحن بنشرنا لزمن الحب بحالتها التي تركها لنا عليها مارسيل بانيول. نأمل أن نرضي رغبات الملايين من قراء «ذكريات طفولة» الذين ينتظرون هذه الصفحات بصبر نافذ. ونعتقد بأننا نضيف على هذا النحو إضافة هامة في التعريف بعمل واحد من أكبر الكتاب الفرنسيين المعاصرين.

الناشر

لم يحدث إلا بعد ذلك بكثير أن اكتشفت الأثر الباهر لحياتي المدرسية الجديدة، إذ لم تعد عائلتي، العزيزة، هي محور كل وجودي. فلم أعد أراها إلا أثناء وجبة المساء، وعندما كنت أتحدث عن المدرسة، لأجيب عن أسئلة أبي أو بول، لم أكن أتحدث معهما في كل شيء وكنت أتحدث كرحالة يقص قصصاً عن البرازيل أو كندا للذين لم يذهبوا أبداً لهذه الأماكن، وليس بمقدورهم فهم كل شيء فيها.

ومع أن بول، أحس بوضوح أنني أصبحت غريباً عنه. لم ينتقص ذلك من حبه لي. بل لقد ازداد إعجابه بي، رغم أننا لم نعد نلعب معاً. ففي أيام الخميس. كان أصدقاؤه الصغار يأتون إلى المنزل، بينما كنت أذهب أنا مع لانيو وشميدت للعب كرة القدم، أو ركوب الدراجة في حديقة بورلي. وأصبحت لي أسراري الخاصة، فكنت أحيا في عالم آخر، عشت فيه بشخصية جديدة، لم يكن هناك اعتراف بها بالتأكيد.

وعندما أستعرض السلسلة الطويلة من الشخصيات التي عشتها في حياتي، أتساءل عن ذلك الشخص الذي كنته كل مرة، فمع أمي، كنت غلاماً صغيراً مطيعاً متفانياً. متهوراً أحياناً، وضعيفاً أحياناً أخرى ؛ ومع كليمنتين، كنت متفرجاً مندهشاً باستمرار، ولكنه متفوق بقوته الجسمانية التي لا تضاهى (أعني لا تضاهي بقوتها هي) ؛ ومع إيزابيل، ركضت على أربع، ثم هربت، متقززا ... ثم، بالمدرسة الثانوية، أخيراً، كنت زعيماً، ومنظماً ماكراً، ولم أكن أرغب إلا في شيء واحد، هو عدم إدخال أهلي في المملكة التي اكتشفتها، خشية ألا تكون مكاناً مناسباً لهم .

من بين الطلاب الخارجيين، لم يكن لنا إلا صديق واحد حقيقي، هو ميرينو. وكان طويلاً، أسمر ذا أنف بارز «معقوف» . وكانت له ادعاءات بالأناقة.

To: www.al-mostafa.com

لابد من الاعتراف بأنها كانت تنوي، مع نهاية الفسحة الأولى بالكثير. وقد استحق أن يحتل مكاناً في قاعة مذاكرتنا، بسبب قوة لغته، وثراء خياله المفسد، لكن ما كان محل إعجابنا فيه قبل كل شيء، هو سعة معارفه الطبية.

كان أبوه طبيباً شهيراً بالفعل، في مرسيليا، معروفاً بدقة تشخيصه أكثر مما هو معروف بإخلاصه وطيبته.

وكانت لديه، بالطبع، مكتبة كبيرة، ولأنه كان مشغولاً باستمرار بصعود ونزول سلالم بيوت الفقراء، فقد كانت هذه المكتبة تحت إمرة ابنه. فكان يقرأ بسريره في المساء، بنهم المراهق، كل ما يتعلق بوظائف التناسل، وكان يأتي بحصاده هذا إلى المدرسة. وقد شرح لي بدقة، في عشر دقائق، الطريقة التي جاءت بي إلى العالم، والتي كان ليلي -وهو حارس قطيع- قد لخصها لي بإبهام وهو خجل بعض الشيء، على حين أن ميرينو توغل في شرح التفاصيل دون أن يشعر بأي خجل، بل كان يغمز بعينه وهو يقهقه. بعد ذلك، وبفضل تقدمه في القراءة. حكى لنا عن الأمراض الكريهة. وجاء لنا ذات يوم بصورة مذهلة، قطعها من قاموس «لاروس» الطبي، تمثل إثيوبياً تعساً، مريضاً بالجذام المداري، يترنح وهو يدفع أمامه عربة محملة. ولقد أفدنا إفادة قصوى، بفناء الخارجية، من هذا التعليم، حتى أنني أعلنت بأنني، من منظور المعرفة النافعة، مدين لميرينو بأكثر مما أنا مدين لأساتذتي في النحو المقارن، على الرغم من أنني عرفت منهم باللغة الساكسونية القروسطية لإنجيل أوفيلاس.

لم يتميز ذلك العام، عام الصف السادس، بأية أحداث تستحق الذكر، اللهم إلا تأسيس الجماعة السرية، التي لم يكن لها من هدف إلا أن تظل سرية، والتي لم تنشأ انطلاقاً من انتفاضة أو مذهب وإنما نشأت في ظروف عارضة تماماً.

كان والد بيرلوديه واحداً من مستوردي البن، وكان يبيع قهوته المتميزة في

أكياس ورقية صغيرة، مغلقة بدبابيس من الحديد الأبيض المقطع، كان لها شكل ورقة الشجر ذات الأربعة فروع (الترفل)، مطلية بالمينا الحمراء التي تلتمع بشكل بديع.

وكان بيرلوديه قد «اختلس» عشرين دبوساً من هذه الترفلات، وأتى بها إلى المدرسة بغير تصور محدد لاستعمالها. ويعود لي أنا شرف المبادرة عند رؤيتها للمرة الأولى بالتفكير باستخدامها في إنشاء جماعة سرية شعارها (ورقة الترفل الحمراء)، وهي التي جرى تأسيسها (سراً) أثناء فسحة الثانية عشرة والنصف ظهراً.

وتكونت هذه الجماعة في البداية من أربعة أعضاء هم: بيرلوديه، وتيليب، ولانيو، وأنا.

وقد بدأنا بأن جرحنا أطراف أصابعنا الوسطى (بواسطة سن ريشة جديد) وأسال كل منا نقطة من دمه، وأرقنا هذه النقاط الأربعة على صورة لوجه «فيرساجيتو ريكس» الزعيم الغالي القديم، نزعناها من موجز كتاب التاريخ الخاص بلانيو. ثم طوينا هذه الورقة المقدسة أربع طيات وأحرقناها في ركن من أركان الفناء.

إني أتساءل اليوم عن دلالة ظهور هذا الزعيم «الأوفيرني» في حكايتنا، لقد كنا بلا شك نريد أن نربط مشروعنا بأبعد نقطة في ماضي الوطن، في الوقت الذي نكرم فيه نموذج الشجاعة المأساوية. ولابد أيضاً من ذكر أن هذه الصفحة بالذات كان لانيو يحتفظ بها في جيبه، وأن جماعة (الترفل الحمراء) قد غيرت اتجاهها بعد ذلك تغييراً كبيراً.

بعد ذلك شبكنا الدبابيس الحمراء على قمصاننا، بمنتصف الصدر تماماً، تحت ستراتنا السوداء. وكان علينا، في حالة لقاء أي عضو من الأعضاء بعضو آخر، أن يكشف له صدره عن الدبوس، و هو يهمس: «فيرسا نجيتوريكس».

وأعلن بيرلوديه، الذي كان يفتقد الشاعرية، أنه يرى من الحماقة أن نقوم بإشارات التعارف في الوقت الذي نعرف فيه بعضنا البعض جيداً .

ورد نيلب بأن ملاحظة كهذه تجعله عرضة للسخرية للأبد، وقلت (همسا):

— الآن، نحن لسنا إلا أربعة ولكن ماذا إذا أصبحنا ألفاً؟

وكانت هذه النبوءة المتفائلة سبباً لأن يقع الاختيار عليّ كرئيس أعلى لهذه الجماعة، ولأن أضع دبوسين بدلاً من واحد .

في مساء اليوم نفسه اخترعت نوعاً من الكتابة السرية، قوام أحرفها الدوائر . والمثلثات، والصليبان، والأرقام والأحرف المائلة وعلامات الاستفهام، ومن عدة علامات ذات أشكال ملتوية وأعطيت نسخاً منها للأعضاء. وبدأنا نرسل لبعضنا بها الرسائل، بطريقة: «مرَّر» بمعنى أن أعهد بالرسالة المطوية أربع طيات لريموسا، وأنا أقول له همساً: «مررها لبيرلوديه» فيعطيها لشميدت الجالس أمامه. ويمررها شميدت ليلترامي، الذي يضعها أخيراً أمام المرسل إليه ولم يكن هؤلاء الناقلون المخدومون ليفوتوا فرصة فتح الورقة في الطريق، ليتفحصوا هذه الهيروغليفية باهتمام شديد، وبتشكك أحياناً، وعندما كانت الرسالة تصل أخيراً إلى بيرلوديه، كان الناقلون ينظرون إليه، في فضول لمعرفة ماذا سيفعل .

وكان بيرلوديه يتأكد أولاً من أن انتباه السيد باير منصب بعيداً (أي على جريدته) . فيفتح الورقة على الفور، ويظهر عليه أنه فك رموزها من أول وهلة عندئذ كان يستدير ناحيتي ويجيب بإشارة من رأسه، في وقار، بأنه قد تلقى أمر الرئيس الأعلى.

وسرعان ما أثارت هذه الدسائس —التي تكررت بالفصل وقاعة المذاكرة فضول كل زملائنا. وصرنا مزهوين بذلك، فمن ذا الذي ينتمي لجماعة سرية لايعرف عنها أحد شيئاً؟ لذا صار الهدف من نشاطنا هو الحفاظ بصرامة على

سرية الجماعة، وهو الهدف الذي كان سهلاً، إذ لم يكن لنا أي نشاط غيره.

كان ميرينو هو أول من طلب الانضمام إلينا وظل ترشيحه محل فحص طويل، لأنه كان طالباً خارجياً، ثم قبلنا انضمامه. وبناء على ترشيح من نيلب، قبلنا انضمام فالابريج، الذي كان هو الآخر طالباً خارجياً، ولكن بالصف السادس ب، فقد بدا لي أنه من الحكمة ضم «العبقريات» من ذلك الفصل البعيد، الواقع في أقصى الرواق الخارجي.

كان كل عضو يقدم لي تقريراً كل سبت -بالهيروغليفية- عن أحداث الأسبوع، وكنت أقرأ ملخصاً لهذه التقارير، للمجلس الأعلى، أثناء فسحة الساعة الرابعة.

وصار عددنا عشرين شخصاً، آتين من الفصول الخمسة للصف السادس. وتقدم لنا عدد كبير من الطلاب الخارجيين بولاءات الطاعة ليحصلوا على العضوية، تلك الولاءات التي تمثلت في هدايا الكراملة الطرية، والحلوى المسكرة، والطوابع النادرة، والبلي الثمين، وقد أعلنت رفضي لهذه الرشاوى باحتقار.

مع ذلك، فقد أخطأت خطأ شديداً باستبعاد ترشيح كاركاسون، لأنه كان قد (كعبل) لانيو، أثناء نزوله جرياً، على سلم فصول الرسم.

وكان في ذلك خسارة لنا، لأنه إذ كان والد بيرلوديه هو الذي يستعمل دبابيس الترقل الحمراء، فإن والد كاركاسون هو الذي كان يصنعها بالملايين. ولم يقل ذلك الخائن شيئاً عن هذا الأمر، لأنه كان قد أعد انتقامه.

فقد أتى ذات يوم بحفنة من هذه النياشين الغامضة، وقام بتوزيعها في الخفاء على كل من هب ودب في فصول الصف السادس والصف الخامس؛ فعند دخولنا إلى فناء الخارجية، بفسحة الساعة الثامنة إلا الربع، فقد المجلس

الأعلى ماء وجهه، لأن ثلاثين أحمق، راحوا يقلدون حركات تعارفنا وهم يضعون شارات الترفل الحمراء.

ثم قدم لي كاركاسون، أمام حلقة تجمعت من الساخرين، مربعاً كرتونياً مغطى بكتابه هيروغليفية، أعلن للجميع بأنه يحمل تحيات فيرسا نجيتوريكس، الأمر الذي أهاج عاصفة من الصياح والاستهزاء. ورددت عليه بركلة قوية في قصبة رجله، وبصق لانيو في وجهه. واصطف الأعضاء حولي، ونشبت معركة كبيرة، أنهاها قرع طبلة واترلو الذي أعلن عن موعد التوجّه للفصول. .

بهذا الشكل، انتهت جماعة الترفل الحمراء السرية عقب ست أسابيع من الازدهار، تلاشت بعدها في طوايا النسيان.

لعبة المشنوقين

بلا أي قلق، بل على العكس بفرح حقيقي، غادرت المنزل ذات صباح من أكتوبر للعودة المدرسية التالية، التي كنت قد انتقلت فيها للصف الخامس أ، ولم يصحبني في ذهابي أحد، وحملت حقيبتي المدرسية على ظهري، واضعاً يدي في جيوبي، ولم أكن بحاجة لرفع رأسي بالطريق للتعرف على أسماء الشوارع.

فهذه المرة لم أكن ذاهباً باتجاه سجن لا أعرفه، يعج بالجمهور من الغرباء، بل كنت على العكس ذاهباً، لألف موعد مع أولاد من سني، وممرات ألفتها، وساعة صديقة، وأشجار دلب أعرفها وأسرار تخصني. وقد وضعت سترتي الجديدة التي أعدّتها لي أمي في حقيبتي وأغلقتها عليها، وارتديت سترة العام

المتصرم، التي أحضرتها «خفية» والتي صارت بمزقها، وتموعات قماشها التي لاصوت لها، ذات وبر يميز أقدميتي بالمدرسة، وصحبت دخولي للفناء عاصفة من التحيات فلم أعد بعد ذلك «الجديد» المغترب، المشلول الحركة والوحيد، والذي تدور رأسه في كل الأنحاء بحثاً عن ابتسامة، أو ربما صداقة، فحين دخلت بسترتي الممزقة، اندفع ناحيتي لانيو، ونيلب، وفيجيلانتي وهم يصيحون ورددت عليهم بقهقهة عالية، وراح لانيو يرقص من الفرحة. ثم جرينا جميعاً لاستقبال بيرلوديه ؛ وكان يحمل تلاً من الألعاب التي أتى بها من الجبل يكاد يصل إلى ما تحت عينيه، وكانت أكمام سترته منحسرة إلى منتصف ساعديه. ولكي يبدأ عامه الدراسي، أخرج من جيبه (بمبة) وقذف بها مباشرة بين قدمي تلميذ « مستجد » وأدار له ظهره، فقفز هذا قفزة جدي مذعور، كأنه قد طار بفعل الفرقعة، وولى هارباً بغير أن يجسر على النظر خلفه قبل بلوغه نهاية الفناء.. ثم ذهبنا جميعنا وجلسنا على الدكة تحت السقيفة وبدأنا ثرثرتنا.

كان هذا العام الدراسي يبدو لنا ممتعاً من بدايته، لأننا علقنا آمالاً كبيرة على أننا سندرس لدى السيد بيدار، الذي كان فصله يشبه الاجتماع الفوضوي. فقد كنا حين نمر أمام بابه، نسمع الصياح، والنواح، والألحان الجماعية أحياناً، وعواصف الضحك، التي يتوق للمشاركة فيها أكثر الناس هدوءاً. وذات يوم لم يستطع بيرلوديه نفسه أن يقاوم إغراء الاستمتاع بهذا الفصل. فما كان منه إلا أن طرقه ودخل وقدم نفسه وهو يحول عينيه، ويعرج ويتلعثم، على أنه تلميذ جديد، وسجله بيدار الطيب تحت اسم باتورو فيكتور، المحول من مدرسة القلب المقدس بمدينة «بالافاس لي فلوت» ولمدة أكثر من ساعة راح التلميذ الجديد يتفوه بالبذاءات التي كانت تسمع من خلال الحاجز وتخجل كل الفصل ؛ حتى طرده بيدار أخيراً وعاقبه بالاحتجاز ليوم أحد، وهي العقوبة التي ظلت ورقة تنفيذها تبحث، ربما للآن، عن صاحبها المسمى باتورو فيكتور .

كنا سعداء إذن لفكرة أننا سنقضي عاماً كاملاً في فردوس الكسالى، وقد

جهز كل من بيرلوديه ولانيو نفسيهما لذلك، ورأيت أنهما قد قررا أن يخلقا المناخ الموائم لذلك من الأيام الأولى. كان مع بيرلوديه في جيبه «أربعة أحجار مارتينيكية عبارة عن أقراص صغيرة مغطاة بطبقة من الفوسفور. وكانت هذه الأحجار السحرية عند الدفع بها للدوران على خشبة الأرضية، تطلق حزماً من الإشعاعات المطقطقة. كما كان معه أيضاً «السائل المبرد» الذي كان يريد أن يجلّد به مقعد بيدار، وصفارة صغيرة من الجلد لينادي بها على الشحارير تزغرد عند أقل ضغط. أما لانيو، فقد أراني علبة ثقاب كبيرة جداً، ووضعها على أذني فسمعت خرفشات، ثم خبطات صغيرة جافة جداً. وكانت هذه الأصوات صادرة عن جرادتين أتى بهما من الريف، واقترح أن يطلقهما بالفصل بعد أن يشبعها تماماً بالحبر. ورحنا نعد أنفسنا لمهرجان حقيقي في سيرك بيدار، وكنت خجلاً من نفسي تماماً لأنني لم آت بشيء معي إلا نيتي الطيبة.

وعندما قرع الطبل لأول مرة بالعام، لم نهرع جريا «كالمستجدين» (أو كما فعل الطلاب الخارجيون) ، وظللنا جالسين ساكتين في عدم اكتراث. لكي نثبت حنكتنا. ولم نتحرك إلا بعد انتهاء قرع الطبل، ومضينا في خطوات غير حثيثة باتجاه قاعة المذاكرة .

وكان علينا أن نقضي عاماً ثانياً تحت رعاية السيد باير الذي عدنا إليه سعداء وهو يبتسم لنا ابتسامة جميلة، قبل أن ينوح للمرة الأولى في العام الجديد: ما أبطأكم أيها السادة، ما أبطأكم .

ثم استنكرنا بشدة عندما اكتشفنا أن تلميذين جديدين- غير مدركين- قد جلسا في أماكننا فانتزعناهما من المكانين بقسوة شديدة، وبدون أن نتكلم ونحن نمسك بهما من ياقتيهما لإخراجهما من دكتنا .

وأثناء ما كان السيد باير يلقي كلمات قصيرة حول العودة المدرسية (التي بدا لي أنني قد سمعتها من قبل عشر مرات) بدأت ثرثرتنا .

أرانا شميدت صفارة خشبية ذات صوتين، تقلد ضمن ما تقلد (قال لنا) صوت الوقواق، أتى بها من سويسرا خصيصاً من أجل بيدار، على حين فتح فيجيلانتي علبة مسامير صغيرة، كانت غليظة كمسامير صانع السجاد: «من أجل استعمالها مع الطلاب الخارجيين» كما قال، لأنه كان ينوي أن يرصها على مقاعدهم، وأطرافها المدببة لأعلى.

أخيراً، صعدنا باتجاه الخارجيين، مستثارين لدرجة أن الأزرق نفسه لاحظ ذلك فأوقف الطابور لكي ينظم الصف.

وصلنا بعد ذلك أمام باب الفصل الخامس أ ٢ ، المجاور لفصلنا القديم، وكان الطلاب الخارجيون قد سبقونا إلى داخله، ولم يكن يسمع لهم أي ضجيج. وأدار لانيو المقبض النحاسي، ثم رجع بخطوة عنيفة للوراء .

– ليس هذا هو الفصل، قال ... إنه الصف السادس.

لكن صوت سقراط دوّى فجأة:

– ادخلوا أيها السادة!

ثم ظهر بنفسه أمام الباب، وحيا الأزرق بإشارة من رأسه، وكرر بنفاذ صبر:

– ادخلوا!

ودخلنا محاذرين، في الوقت الذي عاد هو فيه للصعود إلى مقعده.

وعندما اتخذنا أماكننا، قال، وهو يمسد لحيته الجميلة، ويبتسم ابتسامة عريضة .

– أيها السادة، لقد تجاوزت أنا أيضاً اختبارات النقل، فبما أن زميلي وصديقي السيد بيدار بلغ سن التقاعد، فقد شاء السيد مدير المدرسة أن يعهد لي بفصل الصف الخامس هذا، حيث يسعدني لقاؤكم. وأتمنى أن تكون هذه

السعادة مشتركة...، إن لم تكن بين الجميع، فعلى الأقل بين الذين لديهم من بينكم إهتمام بالدراسة هذا العام.

وأجاب عليه الطلاب الخارجيون الجالسون في الصف الأول بهمهمات الإستحسان، وبالابتسامات العريضة. على حين ترك زكريا رأسه تسقط بين يديه، وراح لانيو يردد في صوت خفيف ومرعة عجيبة، كلمة كامبرون (خراء).

ثم أعلن سقراط، وهو يفتح كراسة كرتونية:

– قبل أن ندرس معاً الأشعار الشهيرة.. الرومانية الأولى، سوف نبدأ هذا العام الدراسي بالتوقف عند دلالة المفعول المطلق.

ولم يجرؤ بيرلوديه، بسبب خوفه، على أن يلقي بأحجاره المارتينيكية، وسمعت صوت الجرادات الأسيرة تقرض علبة الكبريت في جيب لانيو.

وفاقم من عملية إستمرار سقراط معنا لهذا العام، استمرار بيتزو، أستاذ الإنجليزية، وبيتونيا الرياضي، والسيد ميشيل، الذي تغير منهجه تغيراً طفيفاً، فبدلاً من أن يحدثنا عن الفراعنة والمسلات حاول أن يثير اهتمامنا بروميولوس العبثي، الذي اغتال أخاه، بعد أن رضع من ثديّ ذئبة قذرين. لكي يؤسس الإمبراطورية الرومانية، ويزحم برامج التعليم الثانوي.

ولحسن الحظ ؛ بقي معنا أيضا تيتياس، الذي جرى استعمال كافة المواد التي كانت معدة من أجل مهرجان ييدار لديه في حصص ما بعد الظهر، بغير أن يترك لي، في هذا العام، كالعام الذي سبقه، أية ذكرى تستحق الذكر، رغم أنه قد بدأت بفضله عملية لانيو، التي تطورت عنها مباشرة عملية المشنوقين.

لابد أولا من إعطاء القارئ بعض الشروحات التقنية لهذا الأمر. فقد رسم لانيو، الذي كان يجيد الرسم بالأقلام الملونة، صورة كاملة لواحد من مدرسينا، وكانت هذه الصورة ملونة بشكل فاقع، وعلى ورقة كاملة من أوراق كراسة

الرسم، قصها بإحكام بعد ذلك بالاستعانة بمكشط .

أثناء ذلك، وضع بيرلوديه ورق النشاف، وصنع منه عجينة لزجة. وبالاستعانة بفكيه النهمين القويين، ولعابه المزبد الغزير اللزج، زودنا في بضع دقائق بقطعة من العجين المتجانس اللاصق المطلوب. وغرست نصف عود من الكبريت بها بعد ربطه بقطعة خيط، جهزت في طرفها كرية لزجة. ثم ربطت به رأس الصورة المقطوعة، التي صارت على هذا النحو مشنوقة من رقبتها. وانتظرت بعد ذلك إلى أن أدار لي تينياس ظهره، ثم، بحركة سريعة قذفت بالكرية في السقف، فلصقت به، وراح المشنوق يتأرجح مع كل مرة ينفتح فيها الباب ليدخل منه تيار هواء.

كان تينياس هو أول المشنوقين. ولكنه لم يهتم حتى بمجرد الملاحظة ووجدناه في اليوم بعد التالي، طائراً، متأرجحاً، في طرف خيطه. ونفذنا هذه العملية بعد ذلك في الفراش ثم في بيتونيا، والسيد ميشيل، والأزرق، والمراقب وحتى مراقب عام الداخلية. ومنعنا الخوف من تنفيذها في مدير المدرسة، كما رفضت بسبب الصداقة تنفيذها في بتزو، وكذلك في السيد. باير. كانت هذه اللعبة مسلية، لكن لم يكن لها تأثير كبير، بسبب عدم اهتمام تينياس. أضف إلى هذا، أنه مع مضي ثلاثة أسابيع، تساقط المشنوقون. واحداً وراء الآخر، بعد جفاف عجائن بيرلوديه اللاصقة، فأعدنا لصقها على أمل أن نعلّق بالسقف معرضاً كاملاً، ثم سرعان ما نسينا هذه اللعبة.

عقب ذلك بثلاث شهور، راح سقراط يضطهدني، ولأنني تهورت وأجبت عدة إجابات حسنة، عصف بهدوئي، وراح يسألني كل يوم في القواعد، أو يطلب مني تسميع درس، وهو يطرح عليّ الأسئلة أمام الفصل بإلحاح غريب وبالشكل الذي كان محل استنكار لانيو وإشفاق زكريا نفسه على حالتي. وحاولت جهدي أن أثني عزم سقراط المؤلم عن مواصلة ذلك معي بأن رحت

أجيب على أسئلته إجابات بلهاء وذات يوم عندما رجاني أن أعطيه مثلاً عن مفعول مطلق ؛ قلت له: (الضغط المفاجيء)، وهو ماجعلني عرضة لسخرية بعض الطلاب الخارجيين وللعقاب بكتابة ثلاث فقرات من الأشعار المشهورة.

لكن هذا المحشو السمين، بدلاً من أن يتراجع عن سؤالي، راح يمعن في السؤال، بما جعلني صرت أحلم في نومي بالانتقام منه.

وذات صباح، أطلعت لانيو وبيرلوديبه بأنني قررت أن أشنق سقراط في فصله، ورجوت لانيو أن يرسمه لي بقاعة المذاكرة، وأن يحاول أن يجعل الصورة تشبهه قدر الإمكان.

وبدا عليه الخوف من جرأة مشروعي، ولكن بيرلوديبه صاح:

— لديه حق! فسقراط هو الذي يقوم بتعذيبه، وهو لن يستطيع تحمل هذا بغير أن يفعل شيئاً! ولكنه لو فعل ذلك كالعادة، فلن يرى سقراط شيئاً.

— وماذا لوأن أحداً أبلغه؟

— أولاً، كل صراصير الصف الأول لن يروا شيئاً، وبالصف الأخير لا يوجد إلا النماذج الطيبة. وغاية الأمر، أنه إذا وقعت عليه عقوبة بالاحتجاز، فسوف يكون ذلك مفخرة له. فمنذ أن دخل المدرسة الثانوية، لم يتعرض لأية عقوبة. وهذا بالأحرى أمر قبيح بالنسبة لطالب ممنوح. ارسم سقراط، واجعل له لساناً طويلاً متدلياً، منتفخاً شديد الزرقة، فهذا سوف يكون عبرة له!

وطلب الفنان مهلة لأربع وعشرين ساعة، بحجة أنه لم يحمل معه أقلامه الملونة.

وكان يريد في واقع الأمر إعطائي مهلة للتفكير. لكن بيرلوديبه قدم له في التو علبة من الألوان المائية، فأجبره بذلك على العمل. وقام بعمل الرسم أثناء حصة الرياضيات ولونها بشغف خلال فسحة الثانية عشرة والنصف، لكنه رفض

أن يرسم لسان سقراط خارجاً من فمه لأنه كان سيخفي لحيته الجميلة البيضاء ولا يمكن بالتالي التعرف عليه. وقدر بيرلوديه وسوسة الفنان هذه عنده ولم يلح في طلبه، ثم، وأثناء حصة المراجعة في الواحدة النصف، شرع في مضغ ورقة نشاف من نوع جيد.

في الساعة الثالثة إلا ربعاً، وأثناء ما كانت الساعة المصلصلة تدق دقاتها الاثنتي عشرة. غادر سقراط مقعده، وطباشيره في يده، موليا لنا ظهره ليكتب على السبورة السوداء جملة لاتينية.

وكنت جاهزا تماما .

وبغير أن أحول عيني عنه، وفي حركة سريعة — وربما رشيقة — قذفت في اتجاه السقف بالكرية اللاصقة التي وضع فيها بيرلوديه كل عاطفته وبغير أن أرفع عيني، سمعت صوت التصاقها: «تشيك» ؛ ولكني سمعت في الوقت نفسه، ورائي، صرخة واهنة، صدرت عن ذلك الأبله زكريا، وكنت قد أخطأت بعدم إطلاعه على فعلي، فلم يستطع التحكم في التعبير عن خوفه وهو الخوف الذي شعر به لقرب جلوسه من فعل كهذا. وكانت لسقراط أذن رهيفة، جعلته يسمع الـ «تشيك» هذه والصرخة، فاستدار في التو نحونا. وكنت قد أحنيت رأسي بالفعل، ورحت أكتب في هدوء، وأنا مقطب تقطيبة المشغول المنكب على العمل. وانتظرت رد الفعل، ولكن، ولمدة ثلاثين ثانية لم يعكر الصمت العميق شيء.

كان لانيو ماهراً في النظر في اتجاهين بوقت واحد، أقصد أنه كان متمكنا من رؤية سقراط وهو يتظاهر بأنه ينظر في كراسته. وراح يهمس لي:

— انتبه، فقد رأى صورة المشنوق.

وسمعت غمغمات ضعيفة، وشعرت بالجالسين في الصف الأول ينظرون

للخلف نحونا وكنت أواصل الكتابة في حزم... لكن شيئا لزجاً وقع فجأة فوق رأسي، وانفجر الفصل بالضحك؛ وغمغم لاتيو: «اللعنة!» فقد كانت عجينة النشاف فيما يبدو لينة أكثر من اللازم، أو ربما كانت الكرية أكبر من اللازم، أو ربما كان السقف بالفعل شديد القذارة، مما جعل، لأي سبب من هذه الأسباب، الصورة التي قذفت بها بمتعلقاتها تسقط على رأسي، وراح سقراط المشنوق يتأرجح أمام أنفي.

وأمسكت به في التو، ورحت أنظر إليه كمن فوجئ وكأنني لم أره من قبل أبدا ثم، وفي حركة استنكار، فركته بين أصابعي، حين أوقفني سقراط الحقيقي، أي سقراط مدرس المفعول المطلق، بلهجة حاسمة:

– أنت هناك، أيها السيِّد. تعال هنا فوراً ومعك ما في يديك. وبخطوة آلية ذهبت حتى المنصة. وأنا أحاول أن أوهم نفسي بأنني لم أخسر المعركة حتى هذه اللحظة.

وأمسك سقراط بكرة الورق، وراح يفردها بعناية شديدة في الوقت الذي راحت تسقط فيه كرية بيرلوديبه اللاصقة على قدميه في قطع صغيرة، وقال:

– إن هذا بالطبع رسم لشخصي، فاللحية تشبه لحيتي تماماً، واللون الأزرق للعينين مبالغ فيه.

وانفجر الفصل بالضحك، وجهدت لكي أتصنع مشاركتهم في ابتهاجهم العام، كما لو أنني لا أتحمل أية مسئولية بالمرة في هذا الفعل.

لكن سقراط تابع:

– لكن الأمر مع ذلك يعتبر إهانة شخصية يجب معاقبة المسئول عنها. وهذا المسئول لم أره أنا وهو يفعل فعلته. (واستدار نحوي) لكن لسوء حظك أن هذا الكاريكاتير سقط على رأسك، ويبدو لي بديهيا أنه سقط في نفس اتجاه

صعوده. وهو الأمر الذي يثبت أنك أنت الذي قذفت به للسقف.

وضحك الفصل من جديد، بينما أحنيت أنا رأسي ويداي معقودتان خلف ظهري، وأنا صامت تماماً.

- والأدهى. أنه بدا لي أنك راغب جداً في تمزيق هذا العمل الفني. ثم إنك لم تواتك الجرأة على الصياح صيحة البريء. وهذه كلها ليست سوى تخمينات، ولكنها قوية بما يجعلني أوجه إليك الاتهام، وأجدني مضطراً لتوقيع العقاب عليك كما لو أنك الفاعل.

وأمسك بصورة المشنوق ورفعها للحظة أمام عينيه.

- لقد حكمت عليَّ بالشنق، وسأكون أقل شراسة معك، وأكتفي بأن أعاقبك بالاحتجاز ساعتين يوم الخميس المقبل. ومن جهة أخرى، ولأنني يبدو لي أنك بحاجة إلى بعض الوقت للتفكير في احترام أساتذتك، فسوف تقضي الفترة من الآن وحتى نهاية اليوم في قاعة المراقبة، حيث تجد هناك مناخاً ملائماً تماماً للتفكير. وسأعطيك ورقة بهذا الخصوص.

وجلس إلى المقعد، وكتب ثلاثة أسطر على ورقة بالعقوبات. وعدت إلى دكتي لآخذ كتبي وكراساتي. كان لانيو شاحباً تماماً، ولكن بيرلوديبه غمز لي بعينه فرحاً.

وفي صمت شنيع. خرجت.

كانت العصافير تنقر ساعية في الفناء الخالي، وكان الرواق الطويل خاوياً على مدى البصر، وتوقفت وراء عمود، وفتحت ورقة العقوبة، وقرأت، تحت اسمي، هذه العبارة:

«حاول أن يلصق بالسقف صورة كاريكاتورية لأستاذه»

ولم يكن ذلك إلا الحقيقة، وليس لي الحق في أن أشكو، وتابعت طريقي وحيداً، وأنا أمر على نوافذ الفصول، وأرى من خلال الزجاج التلاميذ الذين يحيونني بتقطيبة من وجوههم أو بغمزات من أطراف أنوفهم.

وخطر لي فجأة أنني قد أكون عرضة للقاء طائر الموت، أي مراقب الخارجية. فهززت أكتافي، وقلت لنفسي بصوت عال:

«وما الذي بمقدوره أن يفعله بي أكثر مما حدث؟» فقد شعرت أنني في أقصى حالات بؤسي المدرسي، وجعلتني ضخامة الكارثة لا أعبأ لا بالقدر فحسب، بل حتى بطائر الموت نفسه، فقد كنت فاقداً للشعور كالميت.

وتوجهت نحو قاعة المراقبة. وكانت نوعاً من المستودع للطلاب المعاقبين، بالطرد، والتشريد. ولم أكن قد دخلتها من قبل، ولكننا عندما كنا نذهب إلى فصل الرسم، كنا نمر أمام بابها، وكان عالياً وضيقاً، وذا مصراعين. وذات يوم، رأيت صفاً من التلاميذ من كل الأعمار يخرج منها، ولم يكونوا في حالة اللهو المرحة، يتدافعون متصايحين من الفرح، وإنما كانوا جميعاً يسيرون ببطء في موكب للنادمين، البعض منهم مقطب، والبعض متجهم، والبعض تبدو عليه ملامح السخرية الكئيبة ....

وترددت لحظة أمام هذا الباب المميت. وتنفست بعمق عدة مرات، وزررت سترتي، وبيد مضطربة بعض الشيء، فتحته.

وفي عمق الصالة الضيقة والطويلة كانت تلتمع نافذة عالية انقسم في انعكاس ضوئها ظل رجل جالس، منحن على طاولة عريضة سوداء سواداً جنائزياً. وإلى يميني كان الحائط البارد، وإلى يساري، كان صفان من الأدراج يمجّان بالفعل بالمارقين.

واقتربت من الرجل الجالس، ورأيته ينسخ، على أوراق مستقلة، العقوبات

التي يسجلها في سجل عقوبات ضخم، مفتوح إلى يساره. وقد اصطفت أما كالمروحة، أوراق الاحتجاز، التي ملأها والتي سيتم توزيعها، على أهالي المعاقبين في يوم الأربعاء القادم، فقد كان يعد بغير أن يبدو عليه إنفعال ظاهر عواصف الغضب الأبوية، وقد احتفظ وجهه الأمرد ببرود قاضي من قضاة الآخرة.

ونظر لي بغير أن تبدو عليه أية مفاجأة وقال بطريقة عملية:

– الاسم، واللقب، والفصل، والمدرس.

وأجبت على سؤاله بصوت لم أتعرف عليه، ومددت له يدي بورقة سقراط وقرأها، وهز رأسه، وكتب اسمي في العمود الأول على الصفحة المفتوحة لسجل العقوبات، وكتب في العمود الثاني بخط واضح: الصف الخامس أ٢ وكتب في العمود الثالث اسم لوبليتييه، وأخيراً كتب في العمود الرابع، الذي كان أوسع الأعمدة، سبب العقوبة .

وكان خطه جميلاً.

وبغير أن يرفع رأسه، قال: «اذهب واجلس» . ثم عاد لعمله.

وذهبت وجلست في الصف الثاني، بجوار طالب «من الكبار» كان بالقطع في الصف الثاني. وفتحت كتاب التاريخ، ونظرت حولي .

كان رفاق نكبتي من كل الأنواع: من الفصول العليا والمتوسطة والصغيرة ولكنهم جميعاً كانوا في حالة من الأسى ... تسيطر عليهم قسوة المكان، منكبين في صمت على الواجب الذي لم يقوموا به، والدرس الذي لم يعوه، أو يتأملون في خضوع العواقب الرهيبة لسوء السلوك، وكان هذا الجمع من البلداء، والمتمردين، والهازلين، الذين جمعهم الكسل، والوقاحة والكذب، يبدو كأنه جمع أكاديمي حصل على جائزة الامتياز. وكان الباب ينفتح من وقت لآخر، وكنا نرفع رؤوسنا –خفية– لنشهد دخول مارق جديد ...

كان الجديد يغلق الباب وراءه بهدوء كما لو كان باب غرفة للمرضى، ويتقدم على أطراف قدميه لكي يتعرض للمساءلة السريعة، ثم، يأتي ليجلس بيننا منفذاً أمر الحبس في صمت قاتل.

وجاء الحدث الوحيد الذي زعزع سلامنا المفتعل مع دخول واحد تعرض لغلطة صغيرة إجرامية فقد أحدث جلبة، بسبب براءته، وراح يحتج، ويصيح، ويبكي، ويشهق، ولم يكن لديه منديل. وراح زميلنا هذا (وكان أحد الشرسين بالصف السادس) يخبط الأرض برجليه، مما جعله يستحق ساعتي الاحتجاز اللتين وقعهما عليه لحسابه الخاص الأستاذ الجالس في الظل والسكون ... عندئذ، زال عن البريء- الذي صار مذنباً- شعوره بالظلم، فخرس، وجفف دموعه، وجاء ليجلس بين المعاقبين المحقرين.

كان سقراط على حق عندما قال لي إن هذا المكان يحث على التأمل. ولكن تأملي لم يذهب قط إلى فكرة الاحترام الواجب عليَّ تجاه الأساتذة، فقد رحت ألوم نفسي بمرارة على عدم نجاح ضربتي، ورحت أتفكر في كل الطرائق التي تمكنني من إعادة تسديدها. وكانت أفضل طريقة هي أن أطلب من السيد باير، أثناء حصة المذاكرة المسائية، السماح لي بالذهاب إلى الخارجية، بحجة البحث عن كتاب أو كراسة أكون قد نسيتها عمداً على دكتي. وفي الفصل الخاوي، سيكون بمقدوري أن أعلّق صورة المشنوق لتتدلى فوق المنصة. أو لتتدلى فوق رأس بيكوت، نموذج الامتياز بيننا في السلوك وسيكون بمقدوري أن أنتظر بضع دقائق للتيقن من أنها محكمة التثبيت. وهكذا لن يكون لسقراط أي عذر لأن يشك بي. ولأن الصورة لن يكون من السهل إنزالها، لعدم وجود عصا طويلة تصل إلى ارتفاعها، فربما استدعى الفراش أو ربما استدعى المراقب العام، وسوف يعرض نفسه للسخرية، أو ربما يتظاهر بأنه لم يرها، ليظل المشنوق يدور حول رأسه لمدة ساعتين، ليجعله التوتر يخلط ما بين المفعول المطلق وفعل المستقبل ... لكن هذا الأمر كان غير ممكن، فقد

كانت عجينة بيرلوديبه ما تزال على رأسي، وكنت في غرفة المراقبة. وهكذا، لابد من التفكير في أن المجرمين في سجنهم، يكرسون كل وقت بطالتهم الإجبارية في التفكير في إحكام تقنيات عملهم الإجرامي والوصول به للكمال. لقد رحت ألوم نفسي لا على الجريمة التي فعلتها، وإنما على عدم كفاءتي في ارتكابها، واعتبرت أن حماقتي مسئولة عن الوضع التعس الذي أنا فيه. ولم ترعبني قط فكرة أنني سيكون عليّ قضاء يوم الخميس التالي بالمدرسة، من الثامنة صباحاً للعاشرة. فلانيو، الذي كان زبوناً غالب الأحيان باجتماعات الكمالي هذه، أعطاني فكرة مسلية عنها. فقد كان يجلس فيها على المنصة أحد «البيادق» يقلب في الجرائد بينما يطالع المعاقبون بحرية أي شيء أو يثرثرون بصوت خفيض. لذا فلم أكن فزعاً إطلاقاً من هذا الاختبار، وقد وجدت، من ناحية أخرى، أن بيرلوديبه كان على حق، في أن الطالب الممنوح الذي لم يعاقب مطلقاً مثله مثل الضابط الذي لم يذهب أبداً للحرب.

لكن ما أقلقني، كان وضع جوزيف. فقد رأيته يشحب عندما أريته الشهادة المدرسية، التي كان عليه أن يوقعها وهو مخذول ... وراح يلومني على نكراني لجميل الجمهورية، التي أعطتني المنحة، وكان يتحدث وهو غاضب، ذلك الحديث الذي انتهى بأن صفعني صفعتين. فراح بول يبكي، وجاءت لي أمي بعشائي في غرفتي، وحزن هو حزناً شديداً. وقد حدثت هذه الكارثة بالطبع، من زمن بعيد. كنا يوم الجمعة. وما زالت بعد أمامي ستة أيام حتى مقدم ذلك الأربعاء المؤلم، عندما تأتي لحظة قول كل شيء بالمنزل. نعم تظل أمامي بضعة أيام أقضيها حتى ذلك الحين! وعليّ أن أفكر في خطة.

سيكون بمقدوري، على سبيل المثال، أن أسر إلى أمي بحالتي، حتى تعد هي جوزيف لتلقي الأمر. ويمكنني أنا، أثناء الطعام، أن أتحدث عن العدد الكبير من الطلاب الذين أراهم حولي يومياً توقع عليهم عقوبة الاحتجاز، قائلاً: «إني أتساءل لماذا لم أعاقب حتى الآن» ثم، أشرح كيف أن الأبرياء، غالباً ما

يعاقبون، وأنه أمر يشبه القانون بالمدرسة الثانوية أن يفلت من العقوبة مرتكبها الحقيقي، بسبب قدرته على المراوغة ... وطبيعي، أن أقول إن بيرلوديه كان هو الفاعل الحقيقي في مشكلتي هذه وأقص الموضوع وأنا أضحك، الأمر الذي سيضحك الصغير بول، ثم أمي، ثم —من يدري؟— فقد يضحك جوزيف؟

وعلى الرغم من أن هذه الخطة بدت لي ماكرة جداً، وضعت في التو خطة أخرى، فقد أهاج الخوف قريحتي.

أيكون من السهل عليَّ الحصول على عفو سقراط، في خمسة أيام، لكي يتراجع عن عقوبة الاحتجاز؟ عن طريق حفظ قواعد المفعول المطلق. والعمل ليلاً ونهاراً لذلك والذهاب لطلب المساعدة من العم جول، لأجيب بالفصل إجابات ممتازة، وأكسب ود سقراط، بما يجعله يمزق من نفسه هذه الشهادة القاتلة. .. وأنعشتني للحظة أحلام اليقظة هذه، لكني رأيت فجأة الكاتب الجالس في الظل قد وصل في نسخ الخطابات التي سترسل أمامه إلى السطر الأخير من السجل، ومن النظرة التي نظر لي بها، فهمت أنه كان يعد خطاب اتهامي.

وعندما انتهى، أشار لي بأن أقترب ثم قال لي بصوت عال:

— ساعتين، لسبب كهذا، أمر لا يعد عقوبة كافية، فهو يستحق أن تحتجز يوماً كاملاً، ومن المحتمل إذن أن يعدل السيد المراقب الأمر! وقد أحببت أن أعطيك علماً بذلك. اذهب لمكانك.

وتهاوت خططي وآمالي. وشعرت بالضياع وبدأت ذقني تختلج.

في تلك اللحظة انفتح الباب، وظهر لانيو، كان يحمل كتبه تحت إبطه الأيسر وورقة في يده اليمنى وأغلق وراءه الباب بكوعه، وتقدم حتى المكتب، ووضع الورقة تحت أنف الناسخ، وهو يفتش عني بنظره ثم غمز لي غمزة فرحة.

وخمنت أنه قد قام ببعض الحماقات لكي يأتي لمرافقتي، ولكن ما حدث كان أجمل بكثير.

بعد أن قرأ المراقب رسالة لوبلتييه الجديدة- التي بدت لي أطول من التي حملتها له- رفع عينيه باتجاه لانيو.

- إذن أنت الذي قذفت بأستاذك للسقف؟

- نعم، يا سيدي، قال لانيو، إنه أنا.

وخنقني التأثر، ورفع رفاق أسري رؤوسهم، غير مصدقين مازحين، وهم يتطلعون لهذا الغلام ذي الثانية عشرة عاماً الذي اعترف بقذفه أستاذه للسقف.

- وكيف تركت زميلاً لك يعاقب بدلاً منك؟

ورفع لانيو كتفيه وقال:

- لحظة حدوث ذلك، لم أجرؤ على الاعتراف، ثم فكرت. ووجدت أنه طالب ممنوح، وأن ذلك قد يجعله يفقد منحته. لذا، قلت لسقراط -السيد لوبلتييه- إنني أنا الذي فعلت ذلك، فقام بشطب عقوبته، وأمرني بالمجيء بدلاً منه لقاعة المراقبة. أين سأجلس؟

- أنت شخص عجيب، قال المراقب.

ورفع لانيو ثانية كتفيه، كما لو أنه يقول إنه لا يستطيع شيئاً حيال ذلك. ونظر لي المراقب

- وأنت؟ ألم تستطع الاحتجاج؟

ولم أكن في حالة تسمح بالإجابة، فقد كانت الدموع ملء عيني.

- هيا، خذ، وعد إلى الفصل.

وقمت، وأنا أرتجف. وكان لانيو يضحك من السعادة.

– أيضحكك هذا؟ قال المراقب بجفاء.

– أنا لا أضحك، قال لانيو. إنني أبتسم، رغما عني.

أثناء ذلك، مزق المراقب ورقة احتجازي، وعندما مررت أمام مكتبه مد يده لي بمزق الورقة.

– إنها لك، قال. احتفظ بها للذكرى. وتعلم كيف تدافع عن نفسك في الحياة، فإن لم تفعل، فسوف تدفع دائماً ثمن أخطاء الآخرين، اذهب.

وترددت في الخروج، فلم أكن أريد ترك صديقي الحبيب، وطلبت السماح بالبقاء معه الأمر الذي أصاب الناسخ بالحيرة، حين علا صوت الطبل.

ونهض اثنان أو ثلاثة من المارقين، فصوب إليهما الناسخ نظرة واحدة، جعلتهم يسقطون ثانية في أماكنهم. ثم، راح بتمهل يكتب عقوبة لانيو بالسجل، وأمسك بمسطرة، وشطب عقوبتي بعدة أسطر حمراء. وأثناء ما تعالت إلى أسماعنا جلبة التلاميذ الطلقاء بالممر، أغلق دفاتره، وجمع أوراق الاحتجاز ووضعها في درج وأغلق عليها بالمفتاح. ثم سعل، ونهض، وأمسك بقبعته الفلين، ونظفها بكمه، ثم وضعها على رأسه ومضى باتجاه الباب، الذي فتحه، ولكنه لم يخرج، إذ ظل واقفاً أمامه كأنه خفير.

– اصطفوا جميعكم في طابور.

واصطف السجناء صفين، قام السجان بتقويمهما، ثم قال، أخيراً: «اذهبوا» فخرجنا للحرية.

وبالفناء ضممت لانيو بين ذراعي:

– أنت إنسان لطيف، ولكني، لن أقبل هذا .

– بالنسبة لك، سيكون الاحتجاز كارثة، لكنه بالنسبة لي أمر لايهمني بالمرة ففي هذا العام وقعت عليّ عقوبة الاحتجاز اثنتي عشرة مرة، بالإضافة إلى حرمان مرتين من نصف العطلة، ومرة منها كاملة، وهو أمر أهزأ به .

– لكن ماذا يقول أبوك في ذلك؟

وقهقه لانيو.

– لايقول شيئاً.

وما إن شرعت في أن أطرح عليه أسئلة أخرى، تجهم، وأضاف:

– إنه لايقول شيئاً، فأنا لي طريقة .

– أية طريقة؟

– أنا لم أقل لك عنها شيئاً أبداً، لأن أمي جعلتني أقسم ألا أشي بها لأحد... ولكن هذا القسم كان منذ عامين على الأقل! لذا!

وقام بحركة، كما لو أنه يعبر بها عن أن الأيمان، مثلها مثل الأشخاص، تفقد قوتها بتأثير الشيخوخة. ولكنه طلب مني أن أقسم أمامه قسماً جديداً، لم تنته بعد مدة صلاحيته.

– إذا أقسمت لي بألا تقول هذا لأحد، فسوف أشرح لك الأمر بفسحة الثانية عشرة والنصف، تحت السقيفة. وهكذا حدثني لانيو بعد القسم لأول مرة عن حياته الخاصة، في ركن من الأركان تحت سقيفة فناء الصغار، وقد حافظت على الوفاء بقسمي أمام لانيو، وحفظت سره كما لو أنه سري لمدة نصف قرن، وأرى اليوم بلا أي ندم أنني يمكنني أن أحنث لهذا اليمين.

مأساة لانيو

كان لانيو الابن الوحيد لمعلم شحن بميناء مرسيليا. هذا المعلم القوي، كان يحوز، في اسطبلات كبيرة، مئات الأحصنة، لأنه في ذلك الزمن، لم يكن «البنزين» يستخدم إلا في تنظيف القفازات، وإزالة بقع الملابس الفخمة، وأحياناً في استخدامه، ببعض المواقد الصغيرة المأمونة، لعمل قهوة الصباح. لم تكن خيول السيد لانيو إذن محبوسة تحت سقف، لكنها كانت تخب طيلة النهار، متنشرة، متصدرة الشوارع وهي تجري على حوافرها. وكان صاحبها على صورتها، ولكي يوضح لانيو لي هذا الأمر، قال:

— هل تعرف دولاب مكتبة قاعة المذاكرة؟ حسنا! فكل مرة أراه فيها أفكر فيه، فهو ضخم مثله تقريباً، وهو يقل عنه بعض الشيء في الارتفاع، ولكنه أكثر غلظاً... وله شارب أسود ضخم، وشعر بنفس الطريقة على ذراعيه كان يمشطه أحيانا بمشط صغير ... كما أن له صوتاً رهيباً يشرخ حنجرته ...

هذا الأب من النوع الضخم كان يتباهى بأنه صنع ثروة بقوة قبضته ... وهو ما لم يكن على سبيل المجاز، فالأمر يتطلب قبضة حديدية للإمساك بأعنة ثلاثة جياد. وبعد أكثر من خمسة وعشرين عاماً من العمل، ومن الليالي التي مضت بلا نوم ، تمكن الرجل من أن ينقش اسمه، بأحرف كبيرة، على الجوانب الثلاثة لخمسين عربة شحن، وأن يكتب تحت الاسم رقماً، كان يمثل ما يشبه الاسم لآلة تليفونية داخل علبة تدار بذراع معلقة على حائط متجره. وبواسطة هذه الآلة. كان سهلاً أن تتحدث، بغير صياح، مع أشخاص على الجانب الآخر من الميناء القديم. وقد رأيته يتحدث فيها، ولكني لم أكن أعرف ما إذا كان وجودها لدى الأشخاص يماثل وجود ماكينة الخياطة أو غلاية القهوة. وكان معلم الشحن، الذي لم يتلق من العلم إلا النزر اليسير، مؤمناً بفضائل الدراسة؛

وكان لهذا السبب شديد القسوة على ابنه. وهو ماجعل لانيو، أثناء دراسته بالصف السادس للعام الأول يتعرض لبعض إجراءات «التهذيب»، أي بعض ضربات هوت عليه بالعصا كانت أقواها —حسب قوله— سببا لدخوله المستشفى، وقد أسرّ لي بأن جلده ظل مخططاً بندبات عميقة، في مواضع واضحة من جسده، بما جعله لا يستطيع الظهور بالمدرسة، ولو تحت السقيفة. وأهالني وصفه لهذا العنف الشديد، وأشفقت عليه، لكنه غمز لي بعينه وأعلن:

— كان كل ذلك في الماضي، ولكنه لم يعد له الآن وجود، لأن أمي وخالتي، فكّرتا في طريقة عظيمة، تمكنني الآن من ألا أخشى أن أتعرض لعقوبة الاحتجاز مرة أو اثنتين بالأسبوع، وأن أهزأ بالعقوبة! وسأشرح لك الطريقة.

كنت قد رأيت أمه بعض المرات، مساء، عند الخروج من المدرسة، لأنها كانت تأتي لانتظاره بالميدان الصغير، ولكني لم أقترب منها أبداً. وكان طبيعياً أن لانيو، حفاظاً على كرامته، يمنعها من الإعلان عن وجودها طالما كان هو بصحبة رفاقه.

كانت تظل إذا مترصدة في ركن شارع مازاجران الضيق، حيث تتمشى السيدات اللاتي طلين وجوههن كالعرائس وهن ترحن وتجئن بلا كلل. وعندما كنا نخرج، كان لانيو يتظاهر بأنه لم يرها، وكانت هي تتبعنا من بعيد. كانت سيدة بدينة، ذات قبعة رائعة (مزينة بالورود والطيور) تضع غلالة على وجهها ؛ ولكن لأن شعرها كان أبيض اعتقدت أنها جدته. وكان يمكن أن تكون كذلك، لأنها. كانت تشي بأنها في الخمسين من العمر.

وكانت لهذه الأم الرقيقة أخت، لم تكن فقط خالة للانيو وإنما كانت أيضا إشبينته. لم أرها (من على البعد) سوى مرة واحدة، لكن شخصيتها بدت لي فريدة بما جعلني لا أنساها. كانت طويلة جداً، ذات أكتاف متهدلة

كزجاجات المياه المعدنية، وكانت تطوح بذراعيها أثناء سيرها بالشارع، بما قد يجعلها تكاد تلطم أحد السائرين، وقال لي عنها لانيو إنها «ذات قلب رقيق» الأمر الذي أدهشني في البداية، ولكنني فكرت بعد ذلك في أن القلوب الرقيقة تتواجد غالباً في الأشخاص الذين يتخلفون في سيرهم، مثل دون كيشوت.

هاتان المرأتان اللتان أحبتا لانيو، الابن وابن الأخت الوحيد ؛ كانتا غاضبتين ممزقتين من عنف معلم الشحن، وعندما تلقى لانيو ضربات العصا على مؤخرته، أكلت الأم منديلها، ولم تستطع الخالة الجلوس لمدة يومين.

كان العام الأول الذي قضاه لانيو بالصف السادس، والذي اكتسحته عقوبات الاحتجاز المنتظمة، يمثل بالنسبة لهما ألماً مبرحاً لا ينتهي، فلم يكن يمضي أي أسبوع فيه إلا انتظاراً ليوم الأربعاء، يوم القدر المكتوب ويوم وصول خطابات العقوبات للأهل.

وفي ذلك اليوم، كانتا تبذلان جهداً كبيراً أثناء إعدادهن لطعام الظهر، وعلى مائدة معلم الشحن الذي يلتهم أكباد الطيور، وشرائح اللحم والخضر المطبوخة بشراهة ولامبالاة غول، كن يرتجفن عندما يرينه يقوي نفسه بهذا الشكل لحفلات الضرب بالعصا المسائية .... وكانتا تقضيان بعد الظهر في مناقشات يحل فيها محل التفاؤل تنهدات الأم وتشنجات وجه الخالة، وكانتا تغنيان أحياناً لتدخلا الهدوء إلى نفسيهما، وهما تختلجان بصوت ذي صرير، ببعض الأغنيات العاطفية القديمة.

أخيراً. وفي حدود الساعة السابعة، كان لانيو يصل، وهو يصيح في بعض الأحيان على السلم

- هذا المساء، سيكون لدينا حلوى!

عندئذ، كانت السعادة تغمر الخالة، المنحنية على الدرابزين، وهي غارقة في

الدموع، وتهرع الأم لتشرب بعض الماء لكي تهدئ من خفقان قلبها. ولكنه عندما كان يصعد السلم بغير أن يقول شيئاً ثم يخرج من حقيبته المدرسية ورقة العقوبة، كن يسألن عدة أسئلة لاهثة، ويلزمن الصمت وكأن الدهشة قد عقدت ألسنتهن، وكن يرتعدن مع الدقات الحدادية لساعة الحائط، التي تعلن عن اقتراب موعد وصول الجلاد.

لذا، فأثناء هدنة الإجازة الكبيرة، وضعتا معاً خطة تم إنضاجها بهدوء، للإفلات من هذا الألم الرهيب.

ولأن العائلة كانت تنزل في فيلا بالقرب من الألأووش، صارحت الخالة معلم الشحن المندهش بأنها كانت ترغب دائماً في التنزه بالتلال، وراحت تخرج كل يومين حوالي الساعة السابعة صباحاً، بحقيبة على ظهرها، وعصا ذات طرف حديدية في يدها.

ولم يستنكر زوج الأخت هذا الجنون المضطرب، وأعلن أنه من الطبيعي جداً أن تهدئ فتاة عانس أعصابها بطريقة أو بأخرى، وأن تسلق الجبال هواية صائدي النساء المفضلة. ثم أقر بأن هواء التلال يعود بالعافية على «الصغير» وأنه يبعده عن مخالطة سوقة القرية. وتظاهر لانيو بالعبوس قبل أن يستجيب لرغبة أبيه. ولم يكن يحب النزهات أبداً، ولكنه كان يعرف بالسر أو يعلم أن هذه الفسح الصحيّة لن تذهب به لأبعد من مفترق الطرق، حيث توجد حانة يوجد بها كل شيء تقدم له فيها الوجبات الدسمة، ويمكنه فيها اللعب طول اليوم مع الأولاد الفاسدين من عمره.

وأفاده هذا النظام، وسعد به معلم الشحن، الأمر الذي جعل الخالتين الرقيقتين تعرضان بعد الإجازة على الأب أن تواصلا القيام بهذه الرحلات كل خميس. ورفع الرجل حاجبيه، وسخر:

– الخميس! في عائلة كعائلتنا، يعد يوم الخميس يوماً لقضاء عقوبات

الاحتجاز.

— لن تكون هناك عقوبات جديدة بالاحتجاز! صاحت الخالة! لن يحدث ثانية أن تصلك عقوبات احتجاز لتوقيعها! لن يحدث أبداً.

— ليسمع الرب منك! قال معلم الشحن غير المصدق، وعموماً سنرى.

لذا، راحت الخالة الإشبينة صباح كل خميس، تلبس ملابس التسلق، وتستدعي ابن أختها الذي هو ابنها بالمعمودية. ليخرجا معاً بحقيبتين تيروليّتين تحتويان على السجق الجاف الخاص بالمتنزهين، والأوميلت بالطماطم، وشرائح اللحم النيئة، والخبز، وصداري الصوف، ومعاطف المطر، و ليحتذيا معاً الأرصفة بنعالهما ذات المسامير، فيغادرا المنزل منتصرين لقضاء ساعتي الاحتجاز، وأحياناً الأربع ساعات، وأحياناً الست ساعات... ولأن الخالة وعدت معلم الشحن، بألا يوقع ثانية خطابات العقوبات، تكفلت زوجته، بعد مران طويل في الخفاء، بتوقيعها وعند بلوغ ركن شارع المدرسة، كانت الخالة تحمل عن أختها حقيبته، ويلحق لانيو بمكان احتجازه، وهو ينزلق بسعادة على رخام الممرات، التي تتشرخ من احتكاكها بمسامير حذائه ويتطاير منها الشرر. وكان يخرج في الظهيرة، فيذهب لبيت خالته، ليتذوق هناك، لا وجبة المتنزهين الجافة، وإنما طبق الأرز بالقواقع المطبوخ بالزعفران، ثم الفراخ السمينة المشوية على السيخ، والحاطة بالبطاطا المطهوة أو عش الغراب المشوي على حطب السّرْع. ثم يقرقش بعد ذلك حلوى النوجا المصنوعة بإقليم الآرل، ويتمضمض بحلوى اللوزية الطرية القادمة من إكس، ثم يتنعم بعد ذلك بكأس صغير من مشروب يدعى «كريمة الكاكاو».

وكان عليه أحياناً أن يعود للمدرسة ليستأنف احتجازه حتى الساعة الرابعة، وأحياناً للساعة السادسة. ولكنه، كان يقضي بعد ظهره، في أغلب الأحيان، بحديقة بورلي، يركب الدراجة أو يقوم بالتجديف. وأخيراً، قبل عودته لبيته،

كان يدرس خريطة طرق التنزه بمرسيليا، ويعيّن مسار الجولة المتخيلة، يكون في حالة استعداد للإجابة على الأسئلة المسائية التي يطرحها أحياناً الشحن.

واستمر هذا النظام على نحو يخلب اللب، وكان لانيو الأب نفسه ـ بأن ابنه قد تغيّر بشكل رائع بفعل التأثيرات الطيبة للتزحلق وفضل المرتفعات. وباختصار نعمت العائلة بالسعادة.

وهكذا كشف لي صديقي، ببعض الزهو، «سره» الذي وجدته أكثر من كونه قد سمح له بأن ينقلني شخصياً، وأقسمت له بالعرفان الأبدي واتتني الفرصة، بعد ثلاثة أشهر من ذلك ، لكي أؤكد له عرفاني.

كان ذلك في شهر مارس حيث بدأت عملية «الكرات النتنة».

ولم تكن هذه الكرات سوى قوارير من الزجاج، مليئة بسائل أصفر، ء فيما بعد أنه هو الهيدروجين المكبرت. وكانت هذه القوارير تتكسر لأقل ص وتسمم الجو في التو برائحة كريهة.

كان أول من قذف الكرات النتنة. وأقصد به أول من قذف بها ذلك وأحدث صنيعه دوياً، شخص يدعى باربو، من الصف الرابع ب، فقد تمك بغير قصد – من أن يجعلها قذيفة متقنة، فقد انفجرت القذيفة الهشة (التي تجد أي شيء آخر تسقط عليه) فوق رأس تينياس، لتصيب شعره الطويل جعله يضطر للتضحية به، فينكشف لنا بذلك وجهه الحقيقي، أي ذلك ا اللطيف الأصلع.

وظلّ صاحب هذا الفعل مجهولاً، لكن شأن باربو علا في نظر المطّ على الأمر. وهو ما جعل سليمان، وكان تركيا بالصف الخامس ب، يحاو يتنزه، بعملية ماهرة وتقنية جديدة. جربها أثناء حصة السيد فيردو، وهو ـ

رياضيات متجهم الوجه حزين، لم تكن نعرف بعد عنه شيئاً، لأنه كان محولاً من ثانوية أخرى. ويقال إنه لم يره أحد قط مبتسماً وإنهم يدعونه باسم «المأتم».

واشترى سليمان، الذي كان يبدو عليه الثراء (من سوق شارع سيبيبي) خمس كرات نتنة من حجم ضخم على غير المعتاد. لكنه بدلاً من أن يقذف بحماقة هذه الكبسولات (وهي العملية الخطرة، والأكثر تعقيداً، لاحتمال أن يتسبب عنها اتهام جار بريء) تسلل إلى الفصل قبل موعد الحصة، ووضعها جميعاً أسفل المنصة، في الأماكن التي من المحتمل أن يضع فيها المأتم قدميه، الضخمتين.

– بهذا الشكل، قال سليمان، سيكون هو أول من يشم الرائحة!

وكان هذا التخمين في محله.

فما إن جلس الطلاب في أماكنهم، وصعد المأتم ليتخذ مكانه على المنصة، ثم افتتح درسه بتلاوة، معادة، لنظرية فيثاغورث. وفي اللحظة التي تطق فيها العبارة الشهيرة «فإذا لم أخدع نفسي»، وهي العبارة الذهبية التي تظل في ذاكرتنا مرتبطة بمربع وتر الزاوية، سمعت طقة خفيفة، علت بفعل خشب المنبر الرنان.

ولم ينخدع المأتم بعدها. فقد انحنى بأنفه، وتشمم الهواء، وللمرة الأولى شوهدت الابتسامة البديعة للنبيّة صانعة المعجزات بمعبد أبولون، تظهر على وجهه، فقد صار وجهه مثل وجهها (أو مثل شريحة الخنزير المدخن) وهو جالس مباشرة فوق الموجات الصاعدة للبخار المعطر.

وبلا تعجل، وهو يبتسم ابتسامته التي لا توصف، أزاح مقعده للخلف، ونظر إلى الأرضية تحت المقعد، ثم انحنى أربع مرات ونهض واضعاً أمامه أربعة قوارير سليمة. وراح يبتسم للطلاب ابتسامة شديدة المودة، وقال في الصمت الرهيب:

– إن بهذا الفصل شخصاً يعرف أنني أعشق رائحة الهيدروجين المكبرت النفاذة لذا أهداني هذه القوارير الخمسة. أنا لا أريد معرفة اسمه، ولكني أشكره من صميم قلبي. وأهم شيء الآن ألا يفتح أحد النوافذ، كي لا نشوه متعتنا!

ثم قام، وأمام الفصل المتجمد من الدهشة، قلف واحدة بعد الأخرى، القوارير الأربع على الحائط المقابل في عمق الفصل، فصنع أربع بقع رمادية، لها شكل الشموس المزخرفة.

ثم جلس، وراح يتشمم الهواء بأنف نهمة، وتابع الحديث، بنبرة ساخرة:

«يتساوى، إذا لم أنخدع

«مع مجموع الزوايا

«القائمة على... الأطراف الأخرى.»

وبلا أي اضطراب، وبغير أن يسأل سؤالاً واحداً، ألقى درساً رائعاً لمدة ساعة كاملة.

عند خروج الفصل، تلقى سليمان مكافأته على اختراعه، فقد راح الطلاب الخارجيون يدفعونه أمامهم بالركلات في مؤخرته بعد أن احمرت أنوفهم، وادمعت عيونهم وهم كالسكرانين من هذه الرائحة التي لاحقتهم طويلاً، حتى سلم الداخلية. وكان يمكن تصور أن إخفاقه، الذي أعقبته هذه العلقة، صار سبباً للاستهزاء به، ولكن ما حدث كان العكس تماماً، ففكرة جنون المأتم صارت فكرة دائمة بالمدرسة، وصار سليمان، الذي أطلقها، فجأة شهيراً. وفهمت وقتها أنه من المفيد دائماً أن يرتبط اسم الواحد، بأي طريقة كانت، بحادث مهم، ليعود عليه بالذاكرة كلما تحدث الناس عنه. وأصابت لانيو الغيرة من هذه الأمجاد ؛ فقام بدوره بقذف كرتين منتنتين، ذات يوم من أيام الاثنين، حوالي الساعة التاسعة إلا ربعاً بحصة التاريخ. وأصابت الأولى

To: www.al-mostafa.com

نجاحاً كاملاً، لأن السيد ميشيل كان يدير لنا ظهره ليكتب على السبورة السوداء تاريخ اليوم، واسم الدرس، بين الأقواس. فلم ير شيئاً، ولم يسمع شيئاً، فلم يشعر من هذا الصنيع مجهول الصانع، إلا بالرائحة الكريهة. ولأن النوافذ كانت مفتوحة، اعتقد أن هذا النتن قد أتى من الخارج، فأمر بإغلاق الشبابيك وأدار لنا ظهره من جديد، وطبشوره في يده.

وأصاب لانيو الزهو لهذا النجاح الأول، فقام نصف قومة فجأة وقذف بالقارورة الثانية الزجاجية، فتحطمت على ماسورة المدفأة، التي طنّ سطحها. واستدار السيد ميشيل مرة أخرى، واضعاً راحتيه على فخذيه، رافعاً حاجبيه عن نظرة سوداء، سدّدها ناحيتنا. لكن لانيو كان قد عاد للجلوس بسرعة، محنياً رأسه بعض الشيء إلى جانب، كمن ينتظر تشريفه بتعليق رتبة له، بينما كنت أنا أكتب بجد ونشاط، شأني شأن جيراني، الذين كانوا في حالة من الرعب خشية وقوع خطأ محتمل في تحديد الجاني. ولم يكن سوى ميرينو، الجالس أمامي، هو الذي انتفخت رقبته، وهو يكتم ضحكة خنقها، وتأكد لي أنه ضاع، في اللحظة التي انفتح فيها الباب على مصراعيه، ودخل السيد المدير- في سترته وقبعته الحريريتين- بخطوة واثقة. وكان يتبعه المراقب العام، الذي كان يحمل في يده أوراقاً كبيرة. كان هذا الموكب قد حضر ليعلن لنا بشكل احتفالي نتائج مسابقة التاريخ.

وهبّ الفصل كله واقفاً دفعة واحدة، بحسب المتبع. ولم تتح الفرصة لميرينو نفسه ، ابن عوليس (أوربما ابن أخيل) ، لكي يتمكن من الضحك، فقد كان الموقف شديد الخطورة وصار لون وجه لانيو أيضاً كاللفت.

وبالفعل، راح السيد المراقب يتشمم بأنفه، وينظر إلى الأرضية الخشبية، المحيطة بالموقد. وكانت هناك بقايا الزجاج المكسور ظاهرة للعيان.

وفي أقل من ثانية، تمكن من الربط بين الرائحة التي يشمها وهذه الكرات

الزجاجية التي تلتمع أمامه.

وفي حركة سريعة، أشار إلى لانيو إشارة النحس بسبابته وقال في نبرة لارجعة فيها:

– قف أنت هناك!

ولم يقف لانيو، الشاحب المضطرب، ولكنه استدار سريعاً بعينه ناحية نهاية الفصل، كما لو أن هذا الأمر لم يكن موجهاً له بأي شكل، وكما لو أنه قد دفعه الفضول لمعرفة من الذي يقصده المراقب العام. لكن هذه المحاولة الساذجة لإثبات البراءة لم تحدث أي أثر، ودوى الصوت، بتهكم:

– أنت! نعم. أنت! لا داعي للتمثيل. فقد رأيتك، من خلال النافذة! نعم رأيتك وأنت تقذف بشيء، والآن نحن نعرف جيداً ماذا قذفت! ما اسمك؟

– ولكن، ياسيدي، قال لانيو، ربما أكون قد قمت بحركة ولكني لست أنا الذي! فقد حاولت اصطياد ذبابة، و ....

وتسبب هذا التفسير الأحمق المؤسف في ضحكة خفيفة جرت في مقدمة الفصل، بينما أرعد صوت المراقب:

– اخرسوا! ما اسمك؟

– لانيو .

وأخرج المراقب من جيبه دفتراً، وفتح غلافه وفتح غطاء قلمه وكتب الاسم، والفصل والجرم. وأثناء ذلك، زادت حدة الرائحة المقيتة، وتضاعفت بفعل الصمت القاتل، وانتشرت، وغزت كل الفصل، مفاقمة من مسئولية لانيو ومضاعفة إياها مع كل ثانية تمر.

وسد الطلاب الخارجيون أنوفهم، بنفاقهم المعتاد، في استنكار وأمر السيد

المدير، الذي لم يتمكن من أن يفعل مثلهم، بصوت هادئ أجش:

– افتحوا النوافذ!

وتسارع الطلاب الخارجيون لفتح النوافذ. ثم قطع السيد المراقب الصفحة التي كتب عليها بدفتره، ومد يده بها إلى لانيو، قائلاً:

– خذ أشياءك وخذ هذه واذهب إلى المراقبة!

وأخذ لانيو كتبه، وكرساته ونزل ذليلاً، الدرجات الثلاث، وسار ببطء باتجاه الباب، وفتحه قليلاً واختفى.

وشرع السيد المراقب، بصوت عادي، يقرأ النتيجة، قائلاً كالعادة:

– الأول، روبان، ١٩,٥ ، درجات السلوك ١٠ ، الفروض ٩ ، الدروس ١٠ .

ووجدت لانيو بفناء الداخلية، وأدهشني أنني وجدته شديد القلق .

– أنت لديك طريقة، قلت، فماذا يقلقك؟

– إن الطريقة تنفع جداً إذا كان الأمر يتعلق بالحجز لأربع ساعات، أو حتى بالحرمان من العطلة يوماً كاملاً. ولكن في حالة وجود المراقب والمدير في هذا الأمر فالمسألة قد تختلف ... ثم إن القاتل الذي يشرف على قاعة المراقبة قال لي إن المسألة ربما تصل إلى تقديمي لمجلس تأديب وإلى طردي من المدرسة ثمانية أيام.

– لقد قال هذا الكلام ليخيفك ...

– ربما، ولكني لست متأكداً من شيء ... كما أن طالباً من الكبار قال لي إنهم إذا عاقبوني بالفصل، فسوف يستدعي مدير المدرسة أبي! هل تتصور ذلك! ولكي أطمئنه، دعوت نيلب وكارير، والطالب الأعرج الجميل الصغير من الصف الثالث أ ٢ للتشاور في الأمر.

وذكر نيلب خمس حالات لطلاب قذفوا بالكرات النتنة، وعرفنا منه أن العقوبة القصوى التي حدثت وقعت على باربو، وهي حرمانه من عطلة يوم الأحد بكامله. وخلص إلى القول بحزم مطمئن:

— إن حالتك لن تستدعي أكثر من حرمان من عطلة الخميس المقبل، لا أكثر.

وحاول كارير، وهو صاحب العقلية الأكثر تجريداً، أن يقدر خطورة الموقف، التي تسببت بشكل عام عن حضور المراقب، الذي فاقمه وضاعف منه حضور مدير المدرسة، وكان بادي التشاؤم.

لذا، وباعتبار أن عملية قذف القارورة ارتكبت قبل دخول المسئولين وفي عدم انتظار لقدمهم، فقد استخلص كارير أن عقوبة الاحتجاز ليوم كامل تعد في نظره كافية جداً وأن الأمر لن يتطور لحد عمل مجلس تأديب، وهو الأمر الذي أكده نيلب باطمئنان، وأضاف:

— فضلا عن أنه إذا كان الأمر سيتجاوز مسألة الاحتجاز، لكانوا استدعوك الآن لدى المراقب!

— صحيح! صاح لانيو . ولو أن الأمر اقتصر على الاحتجاز، فلن يكون له أهمية! فلدي عددان من مجلة «بافالوبيل» وثلاثة من مجلة «نات بتكرتون» وهي كافية لكي أتسلى بها طيلة يوم الاحتجاز.

وشرع يرقص ويقهقه بالضحك.

وفي تلك اللحظة، دوى صوت القدر، قادماً من تحت شارب الفراش، في صيحة طويلة أسمعت كل الفناء:

— لانيو، من الصف الخامس أ ٢، عليه التوجه لمكتب السيد المراقب!

واستدار النذير عائداً، بلا أدنى تأثر من جراء النبأ الرهيب الذي أعلنه.

واصفر وجه لانيو، ثم ابتلع ريقه وقال، بنبرة ساخرة حزينة:

— الأوغاد!

وذهب، وقد تهدل كتفاه، لكن قبضتيه كانتا متشنجتين.

وانتظرنا عودته، ونحن نتحدث تحت أشجار الدلب ؛ وكنت قلقاً بعض الشيء من أجل صديقي، فقد صار المحكمان اللذان يحيطان بي أقل تفاؤلاً مما كانا عليه بعد ذهاب المتهم، وأضاف نيلب عنصراً جديداً، وهو التمادي الذي حدث مؤخراً في استعمال القوارير المنتنة هذه، وأعلن أنه يخشى أن يحاول المراقب أن يجعل من لانيو عبرة في هذا الموضوع لكي يضع نهاية لذلك التجاوز. يضاف لهذا أن غياب لانيو طال، وهو ما بدا لي أمراً غير مطمئن ؛ لكن كاريز خفف من قلقي قائلاً بأنهم «كلما تكلموا أكثر، أوقعوا عقوبات أقل» وأن لانيو ربما قد ينتهي به الأمر إلى أن يجازى بأربع ساعات احتجاز وبالتعهد بأن يسلك سلوكاً حسناً بعد ذلك ... ثم حدث فجأة حادث هازل جعل وقت الانتظار المرهق هذا يقصر. فقد وضع ماريون، الطالب بالصف الخامس ب، عصا في فتحة باب بدورة المياه، واقترب من شميدت، قائلاً له في تحد:

— لنرى ما إذا كنت أقوى مني!

ومد له طرف العصا المدبب المغطى بطبقة دهنية.

وأمسك به شميدت، بغير أن يحترس، بكامل كفه، وراح يشد، فانزلقت العصا في يده، تاركة طبقة لزجة كثيفة عليها. بينما هرب ماريون ساخراً منه. ولم يستسغ شميدت، الذي كان يعرف المزاح، هذه المزحة، فلحق بمضايقه في ثلاث قفزات، وحصره أمام الحائط ، وراح يمسح بعنف يده في وجه المازح

العدواني، الذي راح يفرغ ما في جوفه في ضجة شديدة.

ولم أتمكن من مشاهدة باقي هذا المشهد، فقد عاد لانيو للظهور أمام باب الفناء. وكان وجهه متشنجاً، وخطواته مضطربة، ورأسه منكفئاً وهو يسير.

– خيراً، قال نيلب، هل عاقبوك بالاحتجاز؟

وهز لانيو رأسه بنعم .

– احتجاز يوم الخميس؟

قال بصوت خفيض:

– نعم.

وأراد أن يضيف شيئاً، لكن دموعه طفرت من عينيه، وجرى ليسند ذراعه إلى الحائط، ليضع عليها جبهته، كي ينخرط في البكاء، وفوجئت بحالة اليأس التي هو عليها، ورحت أحدثه بصوت خفيض:

– وهل سيضيرك هذا، طالما أن لديك طريقة للتخلص من آثاره.

وأدار نحوي عينيه المحمرتين وهو لاينبس بكلمة، ورفع كتفيه، وراح يحك الأرض بمقدم حذائه. واقترب منا الآخرون، لكنهم لم يطرحوا عليه أسئلة، واحترمنا صمته إلى أن دق الطبل.

وفي قاعة المذاكرة، عاد لحالته الطبيعية، وكان قد وضع أمامه كتاب النحو اللاتيني وراح، وهو عاقد ذراعيه يحدق في «نموذج» مطبوع بأحرف كبيرة سوداء:

"Noctua cicadam interfecit, quanquam clamitabat" ou "quam vis clamitaret" «إن البومة تغتال الجدجد مهما تشكى» «مهما صخب»

لكن عقله كان بعيداً عن هذا المعنى الجليل، فقد كان يتنهد بين الحين والآخر تنهيدة طويلة وأخيراً، وبعد حوالي ربع الساعة، همس لي بحقيقة الموضوع. فقد عاقبه المراقب بالاحتجاز لمدة ثماني ساعات، من الثامنة صباحاً إلى الظهيرة، ومن الثانية بعد الظهر للسادسة.

وكان هذا عقاباً كبيراً في حد ذاته، وكان من الممكن الإفلات من عواقبه بفضل طريقته الناجحة، لكن المراقب أضاف قائلاً:

– أحيانا يأتيني الانطباع بأن شهادات عقوباتك توقعها السيدة والدتك، وكنت أتسامح مع هذا الموضوع حتى الآن. أما هذه المرة، فقد تماديت أنت كثيرا ولكي أتأكد من شكوكي هذه، أجدني مضطراً لأن أرسل خطاباً على عنوان مكتب السيد والدك به نسخة من ورقة احتجازك، مع خطاب توصية مني أعلن له فيه كل أسفي على سلوكك. كان يخبرني بهذا الحديث بشكل متقطع بسبب بعض النظرات التفتيشية التي كان يسددها نحونا السيد باير، والتي قطعت حديثنا عدة مرات. وعندما صرت في وضع يمكنني من الرد عليه –إذ كنت أستمع له وأنا أتصفح بنشاط قاموسي اللاتيني– فكرت للحظة، ثم أجبته بصوت خفيض من ركن فمي، وأنا أتصنع الكتابة ورأسي منحن على الورق.

– هذا شيء مؤذ، ولكنه ليس فظيعاً ... فبالنسبة لأبيك ستكون هذه أول عقوبة احتجاز توقع عليك هذا العام .... ونحن لا نقتل أحداً على غلطته الأولى.

ولم يجبني مباشرة، لأن صوت السيد باير القوي أرعد، وهو ينبه بيرلودييه إلى أن قاعة المذاكرة ليست عنبر نوم.

بعد هذا الإنذار، همس لي لانيو:

– سوف يأتي بالتأكيد لمقابلة المراقب والسؤال عن الأسباب، وعندها

سيعرف بكل العقوبات التي وقعت عليّ.

وكنت مقتنعاً شخصياً بأن هذا هو الخطر، ولم أعرف بماذا أجيب. ومع ذلك، فبعد عدة دقائق من التفكير، توصلت إلى أن المعرفة، بعشرين خطأ في مرة واحدة، لا يترتب عليها عشرون عقاباً، وأن المسألة بحسابها هكذا، بالجملة، سيكون هو الرابح فيها، وشرعت في إشراكه معي في هذه الفكرة المواسية حين قال لي على غرة:

– وأهم شيء، أهم شيء، أنه سيعرف بما فعلناه بالشهادات الفصلية.

وكان هذا بالنسبة لي شيئاً جديداً.

– وماذا فعلتم؟

ولم يجبني مباشرة، لأن السيد باير نزل من على منصته، وراح يقوم بجولته المعتادة في القاعة. وراح، ويده اليسرى تضم «قبضته اليمنى وراء ظهره» يذرع الممرات بخطوات بطيئة، متوقفاً بين فينة وأخرى لينحني على عمل تلميذ من التلاميذ. يعطي النصائح، ويعلق التعليقات. الشديدة الفظاظة في بعض الأحيان. وكانت هذه هي اللحظات التي رحنا نثرثر فيها، لأن سمعه كان يطن بدوي صوته هو الخاص، فلم يكن بمقدوره سماع همساتنا.

وهكذا، قص لاتيو عليّ فعلتهم الرهيبة. وهي التي طال شرحها وصعُب، لأن حديث اليائسين ليس له ما ينظمه، إذ تقطعه لحظات الصمت المختلجة، لتجعله دائماً غير واضح. مع ذلك، تمكنت من فهم تاريخ حكاية الشهادات الفصلية، وسأعرضها للقارئ.

لم تكتف أفعال الغش التي قامت بها الأم والخالة بإخفاء أوراق عقوبات الاحتجاز، فالجريمة دائماً ما تدعو للجريمة، وتلك هي دائرة الشيطان.

وقد فكرا فجأة في الشهادة المدرسية الفصلية، التي ينعكس فيها فعل ثلاثة

أشهر من البلادة وسوء السلوك، وربما ترد بها إشارة للعقوبات ... وقررتا، مكرهتين، أن تتسلماها وتزوراها.

واكتشفت الخالة بدون مشقة، على ورقة من أوراق الاحتجاز، اسم المطبعة التي تطبع مستندات وأوراق المدرسة الثانوية، ونجحت في التغرير بجامع حروف بها كان مدمن خمر، فأعطاها دستة شهادات مطبوعة مقابل اثنتي عشرة زجاجة من الأبسنت، وأعطاها دستة مظاريف مطبوع عليها اسم المدرسة مقابل ستة زجاجات من شراب البيكون.

ومع نهاية الفصل الأول من السنة المدرسية، قضت الأم والخالة أسبوعاً من القلق العصبي وهما تراقبان مرور ساعي البريد ومعهما مفتاح مزور لصندوق البريد.

لحسن الحظ، وصلت الشهادة المدرسية الحقيقية حوالي التاسعة صباحاً، بعد مغادرة معلم الشحن للمنزل، الذي لم يتأخر أبداً عن الوصول إلى مكان عمله لما بعد السادسة صباحاً كل يوم. وحصلت المرأتان الجانيتان على الخطاب القاتل وهرعتا لتغلقا على نفسيهما باب دورة المياه. وتحت بخار الماء الدافئ، مررتا بين الحافتين الملتصقتين إبرة تطريز مناسبة. ثم أوتا للغرفة بعد ذلك، لكي تتفحصا بدقة الشهادة الحقيقية.

وأصابتهما الرجفة أمام بعض الأصفار، وتنهدتا أمام الدرجات ٣ و ٤، وتأثرتا أمام درجة ٨ وابتسمتا أمام درجة ١٤ (في الرسم) ولكن بعض تعليقات الأساتذة كانت مخزية.

«بليد تماماً» (الرياضيات).

«وقح، كسول، غير مؤدب» (الإنجليزية).

« غير قادر على تركيز انتباهه، إن دراسة هذا التلميذ بالثانوي إضاعة لوقته»

(اللاتينية).

كانت هذه الأحكام تثبت -في رأي الخالة- بوضوح أن عدداً من الأساتذة «يبغضون ابن أختها». ولكن كان هناك منهم مع ذلك من هو أقل وحشية! «يحرز بعض التقدم ولكن ذلك غير كاف بالمرة» (الفرنسية).

- «غير كاف»، قالت الخالة، ولكنه تقدم أيضاً!

ووقعت الأختان تحت تأثير عبارة «بمقدوره إحراز نتيجة أفضل».

- بالطبع، قالت الأم. فبمقدورنا دائماً أن نتقدم. هذا ليس نقداً!

- على العكس! نعم! فلو أنهم قالوا: «بمقدوره الإجادة»، فذلك سيكون معناه أنه لم يجد. على حين أن «بمقدوره إحراز نتيجة أفضل»: تعني: «أنه أحرز نتيجة جيدة، بل وحتى جيدة جداً، ولكن بمقدوره أن يقدم أفضل منها!»

ثم تناقشتا -كما لو أنهما في مجلس للفصل- حول الدرجات التي يجب وضعها للأنشطة المختلفة للغلام العزيز. والتي لا تعبر عن جهده المدرسي، وإنما تعبر عن رغبات أبيه، بغير أن ترضيه تماماً بالطبع.

- لا يجب أن نغالي! قالت الخالة، بأن نضع ١٠ محل ٣. فلا يجب أيضا أن يعتقد إدوار بأن ابنه حاصل على امتياز!

وهكذا صارت الأصفار درجات ٦ أو ٩، وهو الأمر الذي لم يكن بحاجة إلا إلى إضافة ذيل قصير بأسفل أو أعلى دائرة الصفر. ووضعت ١٠ في اللاتينية بدلاً من ٥ (نحن لا نغالي!)، وقفزت درجة ٣ في التاريخ إلى ٩ ودرجة ٧ في الفرنسية، في وثبة بطولية وطنية، ممزقة حاجز المتوسط ومنطلقة حتى ١٣، وهو الرقم الذي يأتي بالحظ.

أما عن التعليقات الظالمة، فقد استبدلتاها بتعليقات أخرى، ولكن، لتوخي

الأمانة احتفظت الخالة ببعض التعابير الأصلية. واتخذت «تقدم غير كاف» شكلاً أبسط هو «في تقدم» و«لا يفعل شيئاً، ولا يريد فعل شيء» إلى: «بإمكانه أن يحرز نتيجة أفضل، لو أنه أراد».

وأخيراً ودائماً لتوخّي الأمانة ولكي يعوضا بعض الشيء هذه الزيادات، خصمت الخالة القاسية درجتين من الدرجة الممتازة للألعاب البدنية.

ووجد معلم الشحن هذه الشهادة في صندوق البريد، مساء اليوم التالي. وقرأها على طاولة الطعام. بصوت عال، وعلق عليها. وتحفظ على درجة الـ ١٣ في الفرنسية التي وجدها غير كافية بالمرة ؛ ولكنه انتهى للقول بأنه، في المجمل، فإن هذه الشهادة أفضل من شهادات العام الماضي، وأنه يعتبر هذا بداية مقبولة، أثناء ذلك، راحت الأم والخالة، وهما ترتعدان بسبب تفكيرهما فيما كان يمكنه أن يقوله لو أنه عرف الحقيقة، تتأسيان على تحجلهما في تعديل الدرجات وتتعهدان بينهما وبين نفسيهما بأن يحسنا أداءهما في المرة القادمة. ولم تقصّرا في ذلك، فقد تطلبت شهادة الفصل الدراسي التالي تعديلات أكثر جرأة من تلك التي حدثت في الشهادة الأولى. وعلى نفس الغرار الذي يحدث مع مزور ورقة المائة فرنك حين يجد ذات يوم أن جرمه لن يزيد إذا زور ورقة الألف، لم تترددا في أن تحولا الـ ٦ إلى ١٦ -وهو الرقم الذي يحتوي أيضاً ٦- وطبقتا هذا الإجراء بطريقة عامة، على جميع الدورات التي كانت دون المتوسط تقريباً. وسعد معلم الشحن بهذا. فقد اطمأن تماماً على مستقبل أسطوله واستمرار بقاء رقم تليفونه، وهنأ نفسه في سره.

مع ذلك، فقد ظلت المرأتان تعيشان في قلق لوضعهما كمزورتين، فمجرد تصور لقاء عارض بين المراقب ومعلم الشحن كان يعني تمزيق العائلة السعيدة. ورغم استعمالهما للمنومات، كانتا تقضيان لياليهما والندم يأكلهما، والندم هو أكبر مولد للكوابيس. كانت الأم تحلم بالأب في ثورة جنونية، وهو يبعثر

بضربات السياط عناقيد الأصفار التي تطن. وكانت الأم تراه أقرب لأن يكون ممدّداً متصلباً على سجادة غرفة المكتب، بوجه محتقن، وفم ملتوٍ وهو يقبض بيده المتشنجة. شهادة فصلية حقيقية.

كانت هذه هي حكاية لانيو التي روعتني عندما عرفتها، لأنني حدست من خلالها مدى الكارثة الممكن حدوثها، وقطعت حالة صديقي، التي كان عليها طيلة اليوم نياط قلبي.

ونزلنا إلى قاعة الطعام، فلم يتناول شيئاً . وظل شاحباً، يبكي في صمت من فوق طبق الفاصوليا بالسجق، وأعطى طعامه لبيرلوديه الذي أعلن له أنه صار مالحاً أكثر من اللازم بسبب دموعه، ولكنه التهمه مع ذلك. وأثناء الفسحة، التي قضاها تحت السقيفة لايتحرك لمدة ساعة كاملة، وهو عاقد ذراعيه، يأكله الذهول ... كنت أتحدث إليه وهو لا يستمع إليّ.

هذه الحالة من الأسى التي كان عليها، لاحظها سريعاً أصدقاؤنا، الذين راحوا يسألون عن سببها. وأبعدتهم عنه برفق، وأنا أقول لهم فحسب، إنه عوقب بالاحتجاز يوم الخميس بكامله، وإن ذلك سيتسبب بمأساة له في بيته، وهو ما أثار ضحك بعض عديمي الحس، خاصة بيريليه (من الصف الخامس ب)، الذي كانت أمه أرملة، وتصدق دائماً الكذبة التي يكذبها عليها عندما يعاقب بأنه لديه «حصص زائدة مجانية يوم الخميس» وأن هذه تعد مكافأة للطلاب الجيدين. وبعد الظهر، طلب سقراط من لانيو ولم يكن متأثراً بفعل حالته -أن يقرأ بصوت عال درس اللاتينية.

ونهض، وهو عاقد ذراعيه، ينظر نظرة زائغة، ويتلعثم في الأبيات الأولى (التي شوهها تشويهاً فظيعاً) لحكاية فيدرا وجلس بعد أن أعطاه صفراً، وهو يغمغم:

— والآن، ما الذي بمقدوره أن يحدث لي؟

وكان يقول هذه الجملة كما لو أنه مثل فيدرا على سرير الموت.

وأثناء فسحة الساعة الرابعة، رحنا نتمشى، كأننا في حداد، ونحن نمر بالآخرين وهم يلعبون، نفكر في حل لهذه المشكلة المعقدة.

وفكر للحظة في الهرب للخارج مختفياً –في المساء– في عربة بضائع. ولفتت انتباهه إلى أننا مازالت أمامنا أربعة وعشرون ساعة يمكنه فيها أن يطلب من أمه نقوداً تمكنه من الجلوس مستريحاً في قطار ركاب .

ثم اقترحت حلاً ثانياً، أوليس من المعقول أكثر أن يذهب ويختفي في تلالي؟

وكانت عندي خبرة كبيرة بهذا النوع من المغامرات، بما أنني كنت سأفعلها أنا نفسي لأنني فكرت فيها كثيراً. وعرضت عليه خطتي، التي استبعدها، قائلاً:

– لا، لا، ففيما يخصني لايهمني الأمر. لايهم إذا صرعني، لكن الكارثة هي فيما ستتعرض له أمي وخالتي. وأراهنك أنه سيطلقهما كلتيهما ... بل إنه لن يحتاج لذلك، لأن أمي ستقتل نفسها بالسم وستلقي خالتي بنفسها تحت الترام. أنا لا أهزل. فقد قالت ذلك ذات يوم: «أنا لن أتردد في إلقاء نفسي تحت الترام! وذلك بسببي! كل هذا، بسببي!

وفي اللحظة التي راح فيها يتخيل أجزاء جسد خالته المدماة تتدحرج على القضبان تلقى صدمة عنيفة، من كرة جليدية، قادمة من آخر الفناء، لتصطدم بعينه اليسرى فأمسكها بغيظ بيديه الاثنتين وراح يهتز في غضب كأنه دب، وهو يشتم في نواح تلون فيه صوته واندفعت، وباعدت بين يديه المتشنجتين. كانت عينه قد أدمعت وبدأت في الاحمرار، ولكن لم تحدث له أضرار أخرى. وجريت وبللت منديله تحت الصنبور ورحت أدلك له الكدمة بعناية، وهو يقول

بصوت واضح:

- هذا شيء طيب! الحمد لله! ولو كانت اقتلعت عيني لكان أفضل!

فكما لو أن هذا العقاب المسبق جاء ليخلص منه بعض ذنوبه. وفي المساء، بقاعة المذاكرة، مررت له مسودة درس اللاتينية، لكي لا يفعل شيئاً سوى نسخها بكراسته، ولكنه أزاح هذه الهدية بحركة ضجرة، ناظراً نحوي نظرة واهنة بعنيه المتورمة، وقال:

- إن هذا الواجب مطلوب ليوم الجمعة ... ويوم الجمعة، من يدري أين سأكون؟

كان نيلب جالساً على بعد ثلاثة دكك أمامنا. وأثر يأس لانيو في قلبه الحساس. لذا راح، من وقت لآخر، ينظر نحونا، ويبتسم، ويرفع كتفيه، غامزاً بعينه ومشيراً إشارات تدل على الاستنكار، أراد بها أن تكون رسائل مواساة. لكن أفعال الخير الحركية هذه تسببت له في التوبيخ لأن صوت السيد باير القوي دوّى فجأة، متهماً إياه «بعمل قراقوز من ربع ساعة» ، وهدده بوضع صفر له في السلوك، وهو ما كان سيصبح أول صفر في حياته المدرسية وربما الأول في سلسلة أصفار طويلة، لأن ضياع نقاء السجل يفتح أحياناً طريق المهالك ...

ولم يرنا بعدها إلا ظهره المنكب على العمل، بفعل الإرهاب، بينما راح لانيو ينظر بعين مقطبة في كتاب مفتوح كيفما اتفق. وعندما حررنا طبل الساعة السابعة، قال وهو ينهض:

- كان بمقدوري أن أتصرف بشكل أفضل، في هاتين الكرتين المتنتنتين.

وعند الخروج، كان يستند إلى ذراعي ويسير بخطوة مترنحة. وأشك اليوم في أنه كان يغالي بعض الشيء في التعبير عن قلقه، الذي كان مسألة جادة مع ذلك، وتبعنا نيلب وهو يفرط في تقديم عزاءاته الصداقية، على حين راح بيرلوديبه

المشاكس يسأله من بعيد، وبصوت عال جداً، عن المسافة المفترض أن يقذف به فيها أبوه من أول ركلة في مؤخرته، واصطحبناه حتى باب بيته، ثم قفز نيلب على سلم الترام الذاهب إلى سانت —برنابا، ومضيت أنا باتجاه السهل، قلقاً وشاعراً بالذنب لمجرد اطلاعي على سره هذا، الذي كان من المخجل أن أحكيه في بيت جوزيف.

وأخيراً، طلع فجر يوم الأربعاء، يوم المأساة القدرية المستفحلة ويوم المصاب. وكان مؤكداً بالقطع أن الفراش سيأتي، فيما بين الساعة الثامنة والساعة التاسعة، أثناء حصة الإنجليزية، حاملاً تحت إبطه الأيسر السجل الكبير الأسود الذي يسجل فيه بيتزو أسماء الغائبين وفي يده اليمنى عشر مظاريف صفراء يحتوي كل منها على عقوبات الاحتجاز التي وقعت بفصل من الفصول، ويعطي المظروف الخاص بنا لبيتزو، الذي سيوزع في التو هذه النصوص العقابية باليد، وكانت هذه الحفلة الصغيرة أمراً لا يمكن تفاديه، ولا شيء بمقدوره تأجيلها، اللهم إلا موت الفراش عند استيقاظه، أو زلزال أرضي، أو مجيء يوم القيامة، والتي هي أمور يندر احتمال وقوعها. وظل لدي مع ذلك بعض الأمل. وهو أمل ضعيف، بالطبع خيالي. ككل آمالنا تقريباً، كأن ينسى المراقب مثلاً الأمر كله كما نسي ذات يوم أن يسجل عقوبة احتجاز وقعت على باربي، (الذي ضبط وهو يدخن بدورة المياه، وكما حدث مرة أخرى، بعد أن وجه توبيخاً عنيفاً لريموسا (الذي وضع دبوساً حاداً على مقعد تينيام)، وقد عاقبه بأربع ساعات من الاحتجاز، لم يسمع بها المحكوم عليه بعد ذلك ولم توقع عليه. لذا لم يكن مستحيلاً بالمطلق أن ينسى حكاية لانيو، لدينا إذن فرصة صغيرة، جداً، بالطبع ؛ ولكن تظل لنا فرصة، موجودة ما تزال، وهي ضئيلة. ولكن بإمكاننا أن نعلق عليها بعض الآمال. وفي الساعة الثامنة إلا الربع، وجدت لانيو بالفناء، مستنداً إلى شجرة دلب، يداه في جيوبه، ناظراً إلى الأرض، وهو يستمع للتفسيرات المنطقية المعزية لنيلب، وهي تبريرات منطقية غير فاعلة، لأنها قائمة على جهل

بحكاية لانيو. فقد اعتقد نيلب في الواقع أن والد لانيو كان يوقع شهادات احتجاز ابنه وأن هذا الاحتجاز ليس أكثرخطورة من سابقيه، وبالمقابل، كان يفكر بأن حكاية الكرات المنتنة تتضمن تعبيراً ساخراً قد لا يغيب عن بال السيد لانيو. لكن لانيو زميلنا. كان يهز كتفيه كالمذنب، وهو يبتسم ابتسامة حزينة وهو يستمع إليه.

وأثناء نصف الساعة الأولى من الحصة الأولى وكانت للدرس الإنجليزية، رحنا نترقب دخول الفراش، نذير الكوارث. وانفتح الباب فجأة وأصابتني رعدة. وأحنى لانيو رأسه مرة واحدة، كما لو أنه يتفادى سهم القدر. ولكن لم يكن الداخل للفصل إلا واحداً من الطلاب الخارجيين، وصل متأخراً، حامياً نفسه بورقة اعتذار عن التأخير موقعة من عائلته. ودقت الساعة معلنة منتصف الحصة بعد مرور ساعة. وتضاعف توتر لانيو. وكان يكتب بعصبية ملاحظات لا تقرأ حين شرح لنا بيترو، مرة أخرى، قاعدة المضارع، بدلاً من المستقبل الذي يأتي بعد When التي كانت في مقام مفعوله المطلق —وفهمت أن لانيو، بانكبابه هذا، كان يأمل، على نحو غامض أن يتكرم الله عليه بإلغاء احتجازه. وقد بقيت ساعة أو ساعتان، ودقت الساعة تمام العاشرة إلا الربع.

وابتسم لي ابتسامة واهنة، ابتسامة بعضلات وجهه فقط، لم تلتمع في عينيه. كان الفراش قد تأخر. أكان من الممكن ألا يجيء؟ وهل يمكن أن يكون قد مات في الليل؟

ربما ... ولكن ها هو يفتح الباب، ويتقدم بفظاعة نحو المنبر، وفي يده اليمنى تلتمع المظاريف الصفراء ...

ووضع سجله الضخم مفتوحاً أمام بيترو الذي سجل فيه أسماء الغائبين، ثم بحث بشكل متوتر، بين المظاريف، عن المظروف الخاص بالصف الخامس أ٢. وعندما فتش فيها جميعاً، بدا مندهشاً لأنه لم يجد مظروفنا! وراح لانيو يتخبط

ركبته بركبتي تحت الطاولة، ويتشنج تشنجاته اليائسة. لكن الفرّاش عاود البحث، وفجأة، أمسك بالمظروف القاتل، وبابتسامة شنيعة، وضعه على المنصة واستعاد سجله، ووضعه تحت إبطه وخرج، سعيداً بفعله الشائن. وانسحق لاتيو، تحت وطأة قدره، فزرع مرفقه الأيسر على الطاولة، وأسند جبهته الباردة على يده، وانتظر أن يعلن صوت بيترو أسماء المذنبين حتى يتقدموا إلى المنصة ويتسلموا بأيديهم إعلان عقوباتهم.

رغم كل ذلك، ظل لدي بعض الأمل، فهذا المظروف يحتوي شهادات الاحتجاز لكن هل يمكن ألا تكون به الورقة الخاصة بلاتيو؟وكان يأمل طيلة الوقت، هو أيضاً، لأنه راح يرتعش بقسوة لدرجة أنني لاحظت ارتجاف سطح المحبرة أمامه. وسمعنا صوت السيد بيترو يرتفع فجأة. كان يقول: «عندما أذهب لإنجلترا، سآكل كعكة البودنج»

"When I am in England, I shall eat plum-puding" ورفع لاتيو رأسه، وكان المظروف الأصفر يلتمع في ركن المنصة، كما لو كان مهملاً.

هذا معناه، تابع السيد بيترو، إن الإنجليزية تعتبر أن من يتحدث صار بالفعل في إنجلترا عندما أكل كعكة البودنج، وبالنتيجة، سيكون ذلك بالنسبة لها مضارعاً. فياسيد روبان. هل يمكنك أن تترجم لنا: «عندما يصير أبي عجوزاً، سيكون له شعر أبيض»

" When my father is old. his hair will be white"

— مضبوط، قال السيد. بيترو، بفرح حقيقي.

واستدار ناحيتنا، وصاح:

— السيد لاتيو، هل لك أن تترجم لنا هذه الجملة:

"When I am at home I shall have a pleasant dinner with my family"

ونهض لانيو وبدا عليه التفكير وهو يصوب أذنيه لكي يتصيد الهمسات التي أحاطت به في التو فقد كان شميدت وبيرلوديه يكدّان في تلقينه وهو يردد وراءهما بصعوبة.

– عندما أصل ... إلى البيت .. سآكل عشاء طيباً .... مع عائلتي.

– شكراً، قال السيد بيترو. إن السيد شميلت سيحصل على عشر درجات لأنه ترجم الجملة بصورة صحيحة ، وعلى صفر في السلوك، لأنه غشّشك إياها. أما أنت فسأضع لك صفراً في الدرس لأنك لم تفعل شيئاً سوى ترديد ما لقنك ، وبغير أن تفهم ما همس لك به السيد شميدت. اجلس!

ثم عرج على قاعدة Shall ، Willو ، Shouldو ، Wouldو ، ولم نفهم كلمة مما قال، فلم نكن نتابع إلا حركاته. هل سيمسك بالمظروف؟ إنه حتى لم ينظر إليه. وراح يتباهى بعد ذلك بأداء بعض الشعر الذي وجدته مبتذلاً، ففي هذا الشعر، بعد أن حصل على مشورة نجم تلألأ، سأله عمن هو ... وراح لانيو، الذي كان في قمة عصبيته يهزهز ساقيه تحت الدرج بقوة رجت الممر.

ودق الطبل فجأة، ووضع بيترو كتبه في شنطته، وجرى جايانو، كعادته، إلى الباب في قفزة واحدة، عندما صاح بيترو:

انتبهوا! سكوت! وأخذ أخيراً، من على ركن مكتبه، مظروف المذنبين.

وفتحه وأخرج منه خمسة أو ستة شهادات وأعلن:

– جايانو! آه، هذا إعلان يخصك!

ومد يده بأول ورقة احتجاز له، وتوقف الفارّ، ثم تقدم، وهو يمثل بحركات إيمائية لطيفة أنه مذهول ومستنكر.

ونادى بعد ذلك على بيريديه (الذي تسلم بعدم اكتراث تام الدعوة

للحصص الإضافية ليوم الخميس)، وعلى فيرنيه (الذي هز كتفيه خفية)، ثم نادى على جونتار، الذي نظر إلى ورقته، ولم يتمكن من التحكم في التعبير عن سعادته، فقد طفرت منه قهقهة عالية.

– ماذا؟ قال السيد بيترو بفظاظة. أهذا هو رد فعلك على الأمر؟

– ياسيدي . قال جونتار، لقد تصورت أنني سأحتجز ليوم كامل ولكن السيد المراقب لم يعاقبني إلا بأربع ساعات فقط!

– آمل، قال السيد بيترو، ألا يضحك السيد والدك بمرح هكذا مثلك، كما أنني لا أعرف ماذا أفعل لكي أطيل لك عقوبة تبدو لك قصيرة بهذا الشكل!

وأمسك السيد بيترو بالورقة الأخيرة، وهو مايزال يتكلم، وغرس لانيو أظافره في عضلة ذراعي.

– إنها تخصني، غمغم، أنا متأكد أنها تخصني.

أجل، كانت تخصه ؛ فقد نظر السيد بيترو إلى الورقة، وقال:

– وفيما يخص «الاحتجاز ليوم كامل»، للذي قذف، فيما يبدو، قاورورة متنة أثناء درس التاريخ لذا فسوف يأتي غداً صباحاً من الثامنة حتى السادسة مساء، وهو الأمر الذي يعد تساهلاً معه على فعل كهذا.

ومد يده له بالورقة القاتلة، وأخذها لانيو، ولكنه لم يجرؤ على النظر فيها أمام الجميع ؛ ووضعها في كراسة نصوصه وتوجه للخروج عندما قال السيد بيترو.

– عقوبة ثقيلة كهذه، ربما يكون لها نفع كبير، وسوف أساعدك في الاستفادة منها ، فلكي توظف هذا اليوم على نحو أفضل، ستترجم لي،

نسختين، من الاثني عشر درساً الأولى من كتاب الإنجليزية "English Comrade" وسوف تتحسن إنجليزتك تماماً!

ومع إعلانه بهذه العقوبة الإضافية، تبلد لانيو تماماً، على حين قهقه بيرلوديه وغمغم الجمع، فقد احتج البلداء، وسخر الطلاب المتقدمون بنفاق. ووجدت صديقي يتفوه بألفاظ المسبة، ويدفع عنه حلقة المتسكعين، فاقتدته إلى ممرات المدرسة الداخلية.

وفي ركن من الفناء، تفحصنا الشهادة، ولم يكن شيء غير عادي، فقد كانت تعلن أن الطالب لانيو، بالصف الخامس أ٢، سيحتجز بالمدرسة يوم غد الخميس، من الثامنة صباحاً حتى السادسة مساء، بسبب «قذفه بقارورة منتنة أثناء حصة التاريخ».

ولاحظت من فوري أن المكتوب هو قارورة منتنة واحدة لا قارورتين، وبغير ذكر تكرار الفعل ووافقني تيلب على هذه الملاحظة. فقارورة واحدة ليست بالشيء الخطر جداً، وبوسع لانيو أن يقول لأبيه إن تلميذاً بجواره مررها له وهو يعمل وأنه قذفها بعيداً من قرفه منها، بغير حتى أن يعرف ماهي، وأنه كان أول من فوجئ بها، بل وإنه إرتعب، من هذه الرائحة المقززة التي أوجعت قلبه. وبدت لي هذه الرواية مناسبة، فأعلنت ، في انفعال صداقي:

وما عليك إلا أن تقول إنني أنا الذي أعطيتك القارورة!

— مادام الأمر هكذا، قال لانيو، يمكنني أيضا أن أقول إنك أنت الذي قذفتها!

— إذا شئت، فأبوك لايعرف أبي، وبالتالي، فهو لن يخبره بشيء!

— نعم، قال تيلب، ولكن إذا جاء يشتكي بالمدرسة ويقول للمراقب إنك أنت المذنب؟

— لن يصدقه المراقب، قال لانيو، لأنه رآني من النافذة، ثم إنه، إذا جاء أبي للمدرسة، فإن لديهم أشياء أخرى يقصونها عليه ولن تروني بعد ذلك هنا! ولن أنقل هنا ما تحدثنا فيه طيلة اليوم، لأننا رحنا نعيد نفس الحديث مائة مرة.

وأثناء حصة المراجعة المسائية، دمدم رعد، وهطلت قطرات كبيرة سريعة في التو على زجاج النوافذ، الذي راح يهتز بأثر الرعد

كانت قاعة المذاكرة هادئة ؛ فقد جلس السيد. باير بمنبره، يقرأ جريدة. وراح نيلب يلتفت من حين لآخر ليبتسم ابتسامة صداقية، ولكن بغير أن يتسبب في أية ضجة. ورحنا نستمع إلى صوت مصباح الغاز، الذي كانت مسارب الدخان تتراقص عليه فوق زجاجه.

وللصدفة البحتة، كنت قد أخبرت أمي بأنني سأتأخر على الأقل عشرين دقيقة هذا المساء، لأنني سأضطر للمرور لدى أحد الأصدقاء لآخذ منه بعض الكتب. وكان لانيو جاهزاً، قبل دق الطبل بخمس دقائق.

— لقد أخبرتهما، قال، وهما في انتظاري كلتاهما. تعال معي، تعال، ستقول لأمي، ستقول بأنك أنت الذي فعلت هذه الفعلة.

وأغلقت الكتب والكراسات وكان الطبل مايزال يدق حين خرجنا من باب قاعة المذاكرة. كان الرعد قد هدأ وراحت تلتمع خيوط دقيقة من المطر في الضوء الأصفر لمصابيح الغاز. وكانتا بالانتظار، ساكنتين، في ركن الشارع الضيق، واقفتين تحت مظلة واحدة.

كانت الخالة، النحيلة الطويلة جداً، تنتظر وعلى رأسها قبعة تشبه قبعات السيدات اللاتي يجمعن المعونات لجمعية جيش الخلاص، وكانت عيناها واسعتين زرقاوين كالبحر.

واقتربنا منهما .

– هذا هو مارسيل، قال لانيو .

وبغير حتى أن تنظر لي، سألت الأم، بصوت مختنق:

– هل أتيت بها؟

ومد لانيو يده لها بالورقة.

عند هذا المشهد. صاحت الخالة صيحة مختنقة، «يا إلهي! » ووضعت راحتها على خدها، كما لو كانت تسند رأسها. وفردت الأم الورقة واندفعت تقرأ فيها بصوتٍ عالٍ ؛ وتبعتها الخالة، وهي تمسك بالمظلة المفتوحة.

كانت المرأة المسكينة تحاول قراءة السطور الصغيرة السوداء التي كانت تمثل لها أهمية كبيرة فيما يخص سلام عائلتها . وعبر رذاذ المطر الذي التمع تحت الضوء، رأيت ارتجاف يدها، السمينة، البيضاء، التي تضع خاتماً في كل أصبع من أصابعها، ولم تتمكن من القراءة فأخذت الخالة الورقة.

وبصوت منكسر، قالت:

– قذف ... كرية ... كرة ....

– قارورة منتنة، قال لانيو.

ورددت هذه الجملة عدة مرات، بنبرات مختلفة، كما لو أنها كانت تأمل من وراء ذلك في تغيير معناها، ثم قالت بتصميم:

– أولاً، لماذا يسمحون ببيع القوارير المنتنة للأطفال؟ وهل يبيعون المسدسات؟ كم هي غريبة، الجمهورية! إنه مدير سوق هذا السيد سيبيه (الرئيس) ومن المفروض أنه هو الذي يجب أن يعاقب. فهو الذي قذف هذه القارورة المنتنة! أجل هو الذي قذفها بالفصل عندما سمح بوصولها ليد هذا الصغير المسكين!

– اهدئي يا آنا، قالت الأم. لاتتحدثي بصوت عالٍ هكذا .

واستدارت نحو ابنها.

– هل أنت متأكد من أنه أبلغ أباك ؟

– قال لي إنه سيرسل له «نسخة» من هذه الورقة لمكتبه.

– لمكتبه! رددت الخالة في استنكار. لمكتبه! أي فقدان للثقة هذا!

وبدا لي أن انعدام الثقة البغيض هذا كان جزاء وفاقاً، لكن النساء وبصفة خاصة الخالات، لاتقدرن الأمور بطريقتنا ...

وكانت الأم مشلولة الحركة، ورأيت دموعاً في عينيها. وغمغمت: «لو أنهم أرسلوها هذا الصباح، فسوف تصل في بريد الساعة السادسة، وسنجدها بالمنزل.»

– اسمعوا، قال لانيو، لابد أن تقول لأبي إن هذه عقوبة ظالمة، لأنني لست أنا الذي قذف هذه القارورة. وستقول إن من فعل هذا هو مارسيل.

– إنه لن يصدق هذا! قالت الخالة.

– وإذا صدق، فسيذهب للمدرسة غداً صباحاً ليحتج .... ومن ثم .... وأصاب الثلاثة الصمت، وظلوا ساكنين، تحت رذاذ المطر الذي أضفى حالة من الوحشة على الموقف. وفجأة، ألقى لانيو بكتبه على الأرض، واندفع نحو أمه وتشبث بها وهو يشهق. وانهمرت دموع الخالة، تحت المظلة المرتعشة. وأصابتني الاضطراب لهذا المشهد. ورغبت في البكاء أنا الآخر، وأنا أجمع كتب المسكين التي تبعثرت .

ثم فكرت في تضحية لانيو، الذي قبل أن يوقع الاحتجاز عليه بدلاً مني في عملية المشنوقين واتخذت قراراً بطولياً.

– اسمعي ياسيدتي، أنا عندي فكرة!

وفتحت الخالة، التي أصابها الفواق، عينيها على اتساعها:

— أية فكرة؟ يا إيرين، يقول إن لديه فكرة، أية فكرة؟

— إذا شئتم، سأقول أنا للسيد. لانيو الوالد، إنني أنا الذي قذفت بالقارورة المنتنة ... ثم أقول له إنني طالب حاصل على منحة وإنه إذا ذهب للقاء المراقب، فسوف يحرمونني من منحتي، وربما يؤذي هذا الفعل أبي، الذي هومعلم —نفسياً— أذى مميتاً!

— هل ستفعل هذا؟ قالت الأم المضطربة.

وصرت موضع إعجاب لبطولتي.

— نعم سأفعل ذلك في التو.

ونظرت لي الخالة بعينين مجنونتين، وأطلقت تنهيدة ما وقالت:

— إن الله هو الذي أرسل لنا هذا الطفل!

ونزلنا بخطوة سريعة طريق الكابيير، لأن لانيو كان يسكن بشارع الفردوس، وهو شارع البرجوازيين الأغنياء. وراحت المرأتان أثناء سيرنا توجهانني لما سأفعل وتحددان سيناريو هذه الملهاة المأساة . وأمسك لانيو بذراعي، وغمغم وهو يتنشق دموعه:

— ستنجح الخطة! ستنجح الخطة!

وبدأت أقلق، فالبطولة مثلها مثل فطيرة الجبن، لا تحتمل الانتظار حتى تبرد وقلت فجأة:

— هل يمكن أن يضربني؟

— بالطبع لا! قالت الأم. إنه قاس، ولكنه ليس مجنوناً.

– ثم إننا، قالت الخالة، سنكون معك، نحن الاثنتين!

– لربما كتب لأبي!

– لا أعتقد هذا، قالت الأم وعلى كل حال، لو أنه فعل ذلك ، سأذهب أنا لمقابلة أبيك، وأقول له كل الحقيقة! وأنا على يقين من أنه سيكون فخوراً بك!

ووضعت الخالة يدها على كتفي، كما لو أنها تؤمّن على وجودي، بينما كان لانيو ممسكاً بذراعي، وكان الاثنان يدفعانني للأمام، باتجاه التضحية ...

كان بيتهم بالفعل بيتا جميلاً، سلّمه مضاء بالكهرباء، وبه سجادة حمراء على الدرج، وكان العمود الأول للدرابزين موضوعاً بدلاً منه تمثال لامرأة من الرخام، في ثوب من البرونز. وكانت بديعة الشكل.

وصعدنا ببطء للدور الأول، بغير أن تحدث ضجة، وكانت المرأتان تتوقفان أثناء الصعود كل ثلاث درجات، لتتنصتا ما إذا كان الأب قد رجع؟ ترى هل سنجده بانتظارنا في الرواق، واقفاً وعصاه في يده؟

ولم يكن قد عاد، واقتادتني أم لانيو إلى بهو جميل يكاد يكون متحفاً صغيراً وأجلستني في مقعد بديع أسود من خشب من نوع خشب البيانو، ولكنه مفتول بشكل ملولب ؛ ثم قالت لي:

– اجلس هنا، فلا يجب أن يراك في التو. وعندما يصل، سنحاول أن نمهد له الموضوع، وسآتي لكي أصطحبك إليه في اللحظة المناسبة. لا تخش شيئاً. سيمر كل شيء على أفضل ما يكون.

وخرجت ولكنها عادت حاملة على طاولة علبة كبيرة من الكرتون، مليئة بمكعبات الشوكولاتة، وسلة صغيرة مستديرة، يعلوها شريط مضفر، مليئة بالفواكه المسكرة من كل الألوان.

– تفضل كل من هذا، قالت، ولاتقلق. كان هذا شيئاً من السهل قوله، وخطر لي فجأة أن هذه الأم الرقيقة لديها بالطبع حنان على ابنها أكثر مما لديها حنان علي، وبأنني سيصيبني، ربما، الأذى بسببه.

ولكن ما الخطب! إن علي ديناً لابد من أدائه تجاه لانيو. ومن ثم، إذا ما شرعت في شيء عليّ إكماله. وتناولت قطعتين من الشيكولاتة مرة واحدة، لأنني خشيت ألا يكون لدي من الوقت ما يجعلني أفيد من هذا الوضع الطارئ.

ولم أسمع أية ضجة. ورحت أتأمل بإعجاب الديكور الفخم، وأنا ألوك الشوكولاتة ثم نهضت، ورحت أتأمل المتحف عن قرب.

كانت هناك ساعة مذهبة معلقة فوق المدفأة، بين شمعدانين زجاجيين لكل منهما عدة أفرع. وفوق ميناء الساعة، كان يوجد تمثال صغير، يمثل امرأة صغيرة عارية . كانت تجري بسرعة حتى أن إحدى قدميها تلمس الأرض بطرف إصبعها والقدم الأخرى تتراجع في الهواء، بعيداً خلفها. وكانت تمسك، وهي تجري، بقوس تشده ، وحولها كان جمع من الكلاب يتقافز. واقتربت، أتلمس بأصابعي صدرها الذي كان رائعاً. ولكن تبيّن لي أن هذه اللوحة الرائعة. كان ينقصها الشيء الأساسي فقد كان القوس بلاوتر! وبدا لي أن هذا أمر يؤسف له، وقررت أن أوصي لانيو بأن يضع لها وتراً مطاطياً مزدوجاً، مذهباً ببودرة الذهب.

ولأنني لم أكن أسمع شيئاً مازلت، أخذت في عجلة قطعة شوكولاتة محشوة، وعلى طاولة ما (مذهبة هي الأخرى) ، شد انتباهي وجود أفيال صغيرة خزفية، وتماثيل لجنود ملونة، وعرائس يابانية لها شعر حقيقي، وحمار له وبر حقيقي ، يهز رأسه عند لمسه. كان المكان جميلاً، وكان به كثير من التحف الفنية كما لو أنه قرينة محل للتحف.

وبعد أن تخيرت قطعة من البرتقال المسكر، رحت أتأمل بإعجاب الثريا المعلقة بالسقف. كان بها على الأقل عشرة مصابيح كهربائية، معلقة في حزامية من اللؤلؤ، في منتصفها تماماً، وإلى الأسفل، ملاك من الزجاج له أجنحة خضراء يعزف في بوق ذهبي ... وخطر لي أن هذا الجو سحري، بما أن المصابيح كلها كانت مضيئة لاستقبال المدعوين ... وصرت معجباً بصديقي، تحت تأثير هذا الغنى، فباكتشافي هذه الفخفخة، تبين لي مدى تواضعه، لأنه لم يحدثني أبداً عن ثروته ، وأنه كان طيباً كما لو أنه كان فقيراً. ولم أتردد لذلك في أن آخذ مشمشة مسكرة ، مرشوشة بالسكر، وبدأت أتذوقها، عندما سمعت صفقة باب، ثم صوتاً غليظاً قوياً مزمجراً، تبعه صوت امرأة تحدثت في سرعة، ثم هذان الصوتان معاً، ثم صوت لإغلاق باب آخر، ثم لم أعد أسمع إلا غمغمات، وانتبهت لطعم المشمش في فمي. وفكرت في « أنهم بصدد إعداده للموقف.»

وتمنيت لو أن هذا الإعداد طال بما يسمح لي بأن أتلذذ بهذه المشمشة التي التصق نصفها بسقف حلقي. وفتحت الخالة الباب فجأة، وكانت تبتسم، ولكني لاحظت جيداً أنها كانت تدعي هذه الابتسامة لكي تطمئنني. وبإشارة من رأسها ، دعتني، فتبعتها.

لم يكن لاتبو مغالياً فيما يقول، فقد كان أبوه بالفعل طويلاً وعريضاً كأنه دولاب وكان شعره الشائب، القصير، ينتصب متصلباً فوق رأسه، وعيناه السوداوان، الصغيرتان الحادتان، تلمعان تحت حاجبيه الغليظين اللذين انتفش أسفلهما فيما يشبه أرجل العنكبوت.

كان واقفاً إلى جوار مكتبه، ممسكاً بالورقة في يده.

وعند ظهوري، تحدث بصوت خشن، كأنه صوت جنرال مبحوح.

– أهو أنت إذن، أيها السيد، الذي قذفت القوارير المنتنة في فصول المدرسة.

وأحنيت رأسي، في خضوع، ولم أجب بشيء.

— والأدهى من ذلك، الأدهى، هو كيف تتسبب في عقاب رفيق لك بدلاً منك؟

وحافظت على التصرف كالذليل، وأنا أنظر إلى السجادة، التي كانت مزينة بزخارف خضراء على أرضية حمراء. وصار صوته أعنف من ذي قبل.

— هل أنت مدرك مدى فداحة ما فعلت؟

كان عاقداً ذراعيه، في انتظار إجابتي. لكن المشمش الملتصق بسقف حلقي شل لساني ؛ وعندئذ، كرر قوله:

— هل أنت مدرك؟

— نعم نعم، يا إدوارد. إنه مدرك!

— بل لا! قال بإصرار ، إنه لا يعرف مدى تأثير ما فعل، ولابد من وضع النقاط على الحروف أمامه. وأشار بأصبعه على ابنه، الذي لم يبد عليه أي انزعاج، ولكنه كان يبتسم ابتسامة شاحبة لشهيد مظلوم.

— هذا الغلام، قال، الذي، يبذل جهداً مضنياً من بداية هذا العام— منذ شهر أكتوبر— لكي يتفوق. والذي حصل على درجات أعلى من المتوسط بالسلوك في شهاداته الفصلية، ولم توقع عليه عقوبة احتجاز واحدة من ثمانية أشهر، ها هو، بسببك، ينال عقاباً بالاحتجاز! فتضيع كل جهوده هباء، وعليه أن يبدأ من الصفر! نعم. من الصفر. قال لانيو بيرود:

— دع هذا عليّ يا أبي!

— أرأيت، يا إدوارد، قالت الخالة، إنه يتعهد بأن يبذل جهده من جديد!

— لأنه لايدري، هو الآخر، مدى خطورة ما حدث. إنني متأكد من أن

أساتذته سيعتقدون بأنه عاد لما كان عليه بالعام الماضي، وسوف يركزون مراقبتهم عليه بشدة وعندما نقتنع بفكرة أن طالباً يرتكب فعل قذف القوارير المنتنة، فسوف نضع كل الذنوب الأخرى على رأسه! والآن، فإن عليه أن ينتبه لأقل حركة تصدر عنه، وعند ارتكاب أحد لحماقة جديدة أياً ما كانت، فإنه هو الذي سيحتجز. وهذا كله نتيجة فعلك.

– ياإدوارد، قالت الأم، أعتقد أنك تغالي بعض الشيء .

– بالإضافة إلى أن الأساتذة الآخرين، قالت الخالة، لايعرفون حتى أنه قد عوقب. أليس كذلك يا جاك؟

ورفع جاك رأسه، وقال بصوت ناعم:

– لم يعرف أحد سوى السيد ميشيل ... وربما السيد المراقب أيضاً. ولكنه مع مجيء الأسبوع المقبل، سيكون قد نسي كل شيء! ...

وفكر الرجل الضخم عدة ثوان، وقال لي بفظاظة:

– في عمرك، يمكنك ارتكاب الحماقات، ولكن، على الأقل، عليك تحمل مسئوليتها. ولو أنني كنت في مكانك لذهبت واعترفت.

– ليس بوسعه أن يفعل هذا، قالت الأم. قلت لك. إنه حاصل على منحة، ووالده معلم فهو ليس ثرياً، إذ إنه معلم. ولو أن هذا الصغير فقد منحته، فلن يتمكن بعد من مواصلة دراسته!...

– إذن كان عليه أن يقدر ذلك قبل إقدامه على الجرم! ثم إننا عندما نكون حاصلين على منحة، فعلينا أن نلزم الهدوء. فلا يجب أن ننسى أن الحكومة تدفع هذه المنح لهم من ضرائبي– وهذا واحد منهم يمكر صغو فصل – ويتسبب في إدانة ابني! إن له عقلية غريبة. ولو أن الشباب الحديث هكذا، فسوف يكون لنا منه جنود هزليون! إننا أيها السيد لن نستعيد الألزاس واللورين

بالقوارير المنتنة!

وبدت لي هذه الفكرة فكهة، ولم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام.

— ثم إنه يضحك! صاح معلم الشحن. نحدثه عن الأقاليم الضائعة، وهذا الشيء يضحكه! وهذا هو الأدهى.

وتدخلت الأم على استحياء:

— اسمع يا إدوارد، لا تنس أيضاً أنه كان من الشجاعة بحيث أنه أتى ليقول لنا الحقيقة.

— أأنت التي أرغمته على الحضور؟

— إطلاقاً، قالت الخالة، إنه هو الذي عرض ذلك علينا!

وخطا الأب بضع خطوات، ثم عاد باتجاه مكتبه ووجه الحديث لابنه:

— ولماذا لم تقل ساعتها الحقيقة؟

— لقد قلت: إنه ليس أنا، ولكنهم لم يصدقوني.

— ومتى حدث ذلك؟

— صباح الاثنين.

— ومنذ صباح الاثنين، ألم تفكر في قول الحقيقة؟

واكتسب وجه لانيو في التو تعبيراً مستنكراً.

— أنا؟ قال. أشي بصديق؟ بالطبع، لا! هذا شيء لا يجب فعله!

— ومع ذلك فأنت تعرف أنك ستتعرض للعقاب!

— نعم أعرف ولكني عولت على أن أقول لك الحقيقة وأملت أنك

ستصدقني!.

– أنت مخطئ! فلو لم يأت هو إليّ هنا، لما صدقتك .

– انظر يا إدوارد، صاحت الأم، كيف أنك تكون ظالماً بعض الأحيان!

– هذا صحيح، قالت الخالة، المتأثرة، فأنت لا تثق أبداً بهذا الطفل! وفكر الأب ثانية لبرهة، ثم أعلن:

– عموماً، ليس الأمر برمته شيئاً شنيعاً.

واستدار ناحيتي. أما أنت، فموقفك ليس نبيلاً، بالطبع ليس نبيلاً! لقد جئت إلى هنا ، هذا صحيح، لكنه كان يجب عليك، قبل أن تقذف القارورة النتنة، أن تفكر في السيد والدك. إنه رجل أمين، والدك. فما الذي سيقوله إذا علم بتصرفك؟

وأزعجني جداً، أن تأتي سيرة أبي في مسرحية الكذب والنفاق هذه. وراح يلح:

– نعم، ما الذي سيقوله؟ ما الذي سيقوله أبوك؟

وكانت لدي رغبة في أن أقول له: سيقول عنك إنك مصران غليظ محشو!

ولكني، بالفعل لم تواتني الشجاعة، وهززت رأسي بحزن، ثلاث أو أربع مرات، وأنا أحاول أن أذيب بلساني نصف المشمشة الذي ظل ملتصقاً طيلة الوقت بسقف حلقي.

ومر صمت طويل. وراح معلم الشحن الضخم يتمشى بخطوة بطيئة من الباب حتى النافذة، وبدا مستغرقاً في تفكير عميق. وانتظرت المرأتان، صامتتين، ولكن في اطمئنان. وجلس لانيو على مقعد عاقداً ذراعيه، ناظراً للسجادة–لكنه كان يغمز لي بعينه في كل مرة يدير لنا فيها أبوه ظهره، ويخرج له لسانه.

وأخيراً توقف المفكر عن المشي، وقال:

– لا بأس! بما أنه أتى واعترف هنا، فلن أقول شيئاً لأحد، لا لأبيه ولا للمدرسة.

– برافو! قالت الخالة، برافو يا إدوارد، إنك رجل كريم وصاحب قلب نبيل!

– ولكن حذار من المرة المقبلة! أضاف، وهو يصوب نحوي أصبع التهديد.

– لن تكون هناك مرة مقبلة! صاحت الأم، التي كانت تبكي من الفرح. أليس كذلك يا جاك؟

وبدا جاك مقززاً، لأنه نظر مدعياً البراءة، وصاح:

– ولم تقولين ذلك لي؟ إنني بريء!

– معه حق، قال الأب. فكل ما فعله هو أنه تلقى العقاب لكي لا يشي بصديق، وهذا في صفه. نعم هذا في صفه. وهو أمر لا يشينه.

واقترب من ابنه وهو يواصل الحديث، ووضع يده الضخمة على شعر الرأس الأكرت لهذا المدلل، الذي تصنع التواضع والارتباك.

– لقد قبل أن يتحمل خطأ شخص آخر، لأنه رفض أن يقال عنه: إن لانيو الصغير، ابن معلم الشحن، يشي برفاقه. وأنا أحترم هذا. نعم أحترمه.

وكان يحترم هذا الموقف، بالفعل، فقد بدا لي فجأة أنه قد كبر أكثر؛ إذ رأيت ابتسامة بديعة تتفتح على هذا الوجه الغليظ، والتمع الضوء في عينيه.

جاءت نتيجة هذه المغامرة عجيبة.

فأولاً، وجد لانيو، بعد يومين من هذا، عند استيقاظه صباحاً، أمام سريره، دراجة تبرق ذات سرعات، ومقعد محشو، وبدالات بمساند كاوتشوكيه، فقد قام

معلم الشحن الرهيب بتقديم موعد عيد الميلاد لابنه. وهذه المكافأة التي جاءت في غير مكانها، ضاعفت من مسئوليات الابن، وأرهبته. فشرع صديقي في العمل بحماسة مذهلة، أو كما يقال أطعم الفم تستح العين، فقد قام بعمل موضوعات اللاتينية. وراح ينسخ –حرفياً– مسائلي، وخصص أيام الخميس لكتابة موضوعات الإنشاء الفرنسية بمعونة خالته.

الأكثر من هذا، أنه كان ينسخ دروس اللاتينية، بحروف كبيرة، على ورقة مقطوعة من دفتر، وكان يشبك هذه الورقة من أعلاها تحت ياقة سترة ريموسا، الذي كان يجلس أمامنا، الذي كان يصير بهذا الشكل كالرجل الذي يضع إعلاناً على ظهره ليحمل وبشكل واضح، أمامنا يميل نحو الأسفل، حكاية فيدرا، أو قواعد أفعل التفضيل المعروضة بين كتفيه الهزيلين. وكان لعمليات الغش هذه أثر كبير على وضعه، فقد حصل لانيو، بفضلها، على درجات جعلته يمتلئ بالزهو والثقة بنفسه؛ ومن جهة أخرى، بتأثير تفكيره في خدعه الدراسية، صار يهتم بالدراسة الفعلية وبدا أنه من السهل عليه أن يذاكر دروسه بدلاً من إضاعة الوقت في إعداد عمليات الغش المعقدة. وأخيراً، وبعدما بدأ الأساتذة يعدونه تلميذاً جيداً، أصبح بالفعل تلميذاً جيداً، وذلك معناه أنه لكي يستحق الناس ثقتنا، لابد لنا من أن نبادر بإعطائهم هذه الثقة.

بالطبع، لم يحصل على الامتياز، ولكن حصل على ترتيب الثالث مكرر في اللاتينية والرابع في الفرنسية، وكانت نتيجة، أطارت صواب الخالة في الفصل الأخير من العام، ولكن لأنها كانت أسيرة لما فعلته في الماضي، تطلب الأمر منها أن تزور شهادة أخرى (بسبب تغير الخط في الشهادة الأصلية، مما كان من شأنه حبك الموضوع على معلم الشحن)، ولكنها لم تبدل درجة واحدة ولا ملاحظة واحدة. وهكذا لم تصبح الدراجة الجميلة مكافأة على عملية نصب، وإنما مكافأة جاءت سابقة لأوانها فحسب. أما أنا، فإن إخلاصي للصداقة عاد عليّ بالنفع الكثير. فقد حملت لي الأم والخالة أولا عرفاناً أبدياً، وصرت أدعى

كل خميس للنزهات التي أصبحت حقيقية، لأن لانيو لم يعد يحتجز. وكانت هذه الفسح تقودنا إلى قرية الكرمة، أو قرية البوباديس أو إلى تلال الألاووش. ولكن في الظهر، بدلاً من أن نأكل الخبز والسجق، كانت الخالة الفنية، تدعونا إلى غذاء حقيقي في مطعم القرية، حيث كانت تقدم لنا مع الطعام فواتح الشهية! (وعندما قصصت على بول أنه بالمطاعم، يقدمون لنا عشرة أطباق صغيرة من فواتح الشهية قبل الأكل، بها كل شيء وأننا يمكننا أن نطلب منها ثانية ما شئنا، أثار هذا نهمه الطبيعي، وسأل أبي ما إذا كان ممكنا أن يتمتع مرة بهذه الأعاجيب.)

حوالي الساعة الرابعة، كنا نعود لبيت لانيو. وكانت أم لانيو تعد لنا وجبة خفيفة، باباس بالروم، وكعكة الميرغ، والملفوف بالكريمة وعجينة اللوز المشكلة على هيئة التين، المغطاة بطبقة سميكة خضراء، والتي تذوب بنعومة تحت الأسنان، لتعطي طعماً لذيذاً باللسان. وأحياناً، في حدود الساعة السادسة كان السيد لانيو يصل، ويجيء ليلقي نظرة على ألعابنا ... وفي المرة الأولى التي فعل فيها هذا، أصابني الموقف بالمفاجأة وقلقت بعض الشيء وأنا أستمع إلى خطواته بالرواق. فقد فتح هو باب البهو، حيث كنا نلعب الضامة ونحن مفترشون السجادة، وقال لي: آه! أهو أنت، أيها اللص؟

ثم شد على يدي، كرجل. وسأل بعدها زوجته:

— ألم تقدمي لهم وجبة خفيفة، على الأقل ؟

وبغير أن ينتظر إجابتها —فقد شاهد الأطباق على الأرض— تظاهر بأنه يتشمم الهواء، وقال:

— ما الخطب ألم يقذف أخصائي القوارير المنتنة شيئاً منها اليوم، إن الرائحة تكاد تكون رائحة الكريمة بالفانيليا.

ورنت ضحكته مجلجلة حتى أن الملاك الزجاجي تأرجح من تأثيرها، على خشخشات كريستالات الثريا ...

وبالمدرسة، ورغم أننا أقسمنا على الاحتفاظ بالسر، لم يستطع لانيو أن يقاوم لذته بأن يقص كل الحكاية لبيرلوديه، وقد بالغ، بالطبع، في تصوير غضب أبيه، ولم يجعلني أدخل في الموضوع إلا في اللحظة التي ارتفعت فيها العصا لتهوي على مؤخرته العارية، كما جعلني أمام هذا الوضع أركع على ركبتي وأنا أشهق، بينما راحت اعترافاتي البطولية تشل ذراع الجلاد.

وأقسم بيرلوديه في بداية الأمر ألا يشي بالسر، ثم راح يمجد شجاعتي، وأعلن وهو يشد على يدي الاثنتين أنني تصرفت كرجل وصديق. وأثار هذا التقريظ العلني فضول زكريا الذي تمكن من أن ينتزع من بيرلوديه تفاصيل الحكاية. وراح يمجد شجاعتي، وراح ابن هوميروس، في فسحة الساعة الرابعة، ينشد ملحمة الحكاية في جمع مصغ له، وحملني السامعون على أكتافهم كالمنتصر وداروا بي في الفناء. وأخذوا يمجدون بطولتي، ويثنون على صداقتنا، وكانت براعتي هي السبب في استحقاقي للثناء والعرفان من كل طلاب الصف الخامس، وحتى طلاب السنوات المتوسطة. فمنذ افتتاح أول مدرسة ثانوية، كانت عقوبة الاحتجاز تتسبب في الصفعات والركلات بالمؤخرة، والوعود الحانقة بالانكباب على الدراسة فوراً بشكل نموذجي وأنواع اللوم المهددة الأبوية التي تستمر غالباً لمدة أيام، وقد قلبت أنا الآية فجعلتها تسفر عن دراجة هدية، وتتزين بالحلوى، وبالتهاني المجددة في جو من الزهو العائلي، وكان السيناريو الذي نفذته أمراً في متناول الجميع!

ولم يتأخر البعض في استخدامه، فعلى هذا النحو ذهب بيرلوديه ذات مساء ليعترف في بيت دوفرنيه، ويتحمل المسئولية الكاملة عن دبوس وضع على مقعد بيتونيا ؛ وتمت مكافأته على ذلك، عندما ذهب دوفرنيه، الذي كان مازال غارقاً

في الغرفان، بعد ثلاثة أسابيع، ليلقي بنفسه عند أقدام والد بيرلوديه ويعترف في خضوع بأنه هو الذي راح يتوح في الممرات الأمر الذي أسفر عن عقوبة ظالمة لابنه.

وعلى هذا النحو أيضاً كان المذنب المفتعل يعرض نفسه بلا خوف أحياناً للوّم الوحشي، غير الموجع، لأب ليس أباه، على حين كان البريء الزائف يذهب لتحمل العقوبة المجحفة في ظل تعاطف وتقدير جميع عائلته، متأثراً وفخوراً بأنه قبل بإباء تحمل خطأ شخص آخر، مضحياً بيوم خميس كامل على مذبح احترامه لنفسه، ومذبح الشرف المدرسي، والصداقة.

وقد جاء النقد الوحيد لي من تيلب، زميلنا المتخصص بدراسة الإجرام، الذي بدا لي على نحو ما غيوراً.

– إنها حيلة بارعة، قال، وللأسف لا يمكن اللجوء إليها إلا مرة واحدة!

– مرة واحدة مع عائلة، صاح بيرلوديه، ولكن يمكن استخدامها مع ألف عائلة!

وهو أمر عظيم منه أنه فكر في هذه الحيلة، وأنا أرى أن عليه أن يكتب روايات!

مباراة جوزيف

أثناء الإجازة التي توجت ذلك العام، عام الصف الخامس، وجدت ليلي قد

تغير، فقد صار شاباً تقريباً، وصار له زغب أسمر خفيف تحت أنفه الطفل محدداً ظل شارب رجل.

وصار متعلقاً بألمع الصيادين المخالفين بالمنطقة، وهو موند دي باريبون. ولأن العم جول كان قد اشترى كلباً، كلباً صغيراً أبيض، من نوع الكوكر الإنجليزي، أعلنت لجوزيف أنه لم بعد بعد في حاجة إليّ للعثور على الطرائد أو مطاردتها، ورافقت ليلي وموند.

كان يسكن عنبراً لم يكن إلا عبارة عن دور أرضي طويل، تعلوه سقيفة، وتمتد عنه زريبة، بها خنزيرة هزيلة مخيفة، لكنها كانت طويلة طولاً غير عادي، غارقة حتى بطنها في مزبلة من صنعها، وهي تصرخ من الجوع طيلة اليوم.

كانت واجهة العنبر مبقّعة وقد زال ملاطها، لكنها كانت تظللها على نحو بديع شجرتا توت، من أيام حقبة دود الحرير.

ومن خلال الضوء الخفيف بالمطبخ الواسع، القادم من مصاريع نوافذه النصف مغلقة دوماً، كنت ترى الزنابير تتراقص ملتمعة في الغبار الذهبي لشعاع شمس كبير. وكانت تأتي لتتغذى على فضلات المائدة من آثار الحساء الذي جف في الأطباق اللزجة، وبقايا أرجل العصافير، وقشور الجبن، وحبات العنب المتعفنة، وقلوب التفاح أو الكمثرى. وكانت تتدلّى على الحوائط، معلقة، جدائل الثوم، والبصل، والطماطم الشتوية، وكانت الأرضية ذات البلاط المتبعج تعج بكل أنواع الحطام، من الكراسي المخلعة، والمقالي الفخارية التي بلا أذرع، والأباريق المهشمة، والدلاء المثقوبة، وبقايا الحبال المتسلّة، والأقفاص المعوجة، وكل سقط متاع الأدوات الزراعية غير الصالحة للاستعمال.

وأخيراً، في ركن، كان فراش، عبارة عن مرتبة قطنية طويلة مفرودة على الأرض، بغطاء مثقوب يمثل غرفة النوم ... وكان مظهر المالك لهذا البيت متناسباً مع بيته. فقد كان يرتدي طيلة الوقت بنطلوناً قديماً جداً من القطيفة

الصفراء، كان في حالة شديدة الرثاثة، مرقعاً عند الركبتين وعند الفخذين بقطع مستطيلة من القطيفة الرمادية. وكان قميصه رمادياً، هو الآخر، لكن هذا لم يكن لونه الطبيعي، وكان طيلة الوقت مفتوحاً من على صدره، بما يمكن من رؤية شعرات صدره الرمادية والبيضاء التي تتشابه مع فراء الغرّير.

كان يغتسل بلون ماء، هارشاً نفسه، لكنه كان يوم الأحد، يهذب ذقنه بمقص بستاني. وذات يوم كسر معصمه، حين سقط من على سلم ؛ ولأنه كان يقوم بعلاج نفسه دائماً، لم تلتحم عظامه ثانية.

وبقي له بهذا الشكل، بين الكوع والقبضة مفصل زائد، فكان بمستطاع يده أن تتخذ أوضاعاً مذهلة، حتى أنه كان بمقدوره أن يلفها كاملة حول نفسها، كما صار شكل ذراعه مشابهاً لشكل ذراع عصّارة. وكان يقول إنه مريح جداً له على هذا النحو، ولكني لم أكن أتحمل النظر إليه عندما كان يحركه، لأن ذلك كان يسبب لي ألماً في القلب.

واتخذني صديقاً مقرباً له، وعلّمني تقنيات نصب الفخاخ للأرانب، التي صارت لدي بعد ذلك قدرة على نصبها. فقد كان يجب أولا تحديد مكان نصب الفخ، بعيداً عن الريح، بين عرعرتين أو صنوبرتين وحفر حفرة نظيفة جداً . وعلى حافة هذه الحفرة نضع حجراً كبيراً على طرف باقة من سنابل القمح، أو الشعير. ولم تكن القوارض تتأخر في اغتنام هذه الفرصة، وكنا بصفة مستمرة تقريباً نحدد مسار مرورها ابتداء من اليوم التالي، فتصبح مؤكدة بعد ذلك عودة هذه الحيوانات النهمة كل ليلة، وكان موند يقول :

– إنها تعتلف!

وكم كان ذلك الاعتلاف قاتلاً! فلم يكن علينا في هذه الحالة إلا أن ننصب الفخاخ أمام باقات السنابل. وكنا نتصيد منها اثنين أو ثلاثة كل يوم تقريباً. ومن وقت لآخر كان موند يعطيني أجملها، فكنت أحمله مزهواً إلى

أمي.

وقد تكشف لنا ذات يوم، في وادي الباس توم، باقات سنابل لم تكن لنا. وغضب موند وراح يسب اللص المجهول الذي جاء لينصب الفخاخ في أراضينا، ولكني عندما رحت أنزع الباقة من مكانها، أوقفني بحركة:

– لا تلمسها! فلو أننا أخذنا هذه السنابل، سيضع غيرها، هنا أو في مكان آخر. وهناك شيء أفضل يمكن عمله، إذ يجب التبول عليها! فهو لن يكتشف ذلك، ولن تقترب الأرانب في هذه الحالة منها! وإذا فعلنا ذلك مع كل الباقات التي نصبها، سوف ينتهي به الأمر لليأس. هيا، تحركوا تبولوا أيها الأطفال!

وهو ما فعلناه بنهمة. لكن اللص لم ييأس سريعاً، وتضاعفت الباقات العدوة، وهو ما كان يجعل موند، يسقينا قبل الذهاب ثلاثة أو أربعة كؤوس كبيرة من الماء، حتى يشحننا وكان يوجّهنا لنفعل ذلك الواحد بعد الآخر، في جرعات صغيرة، الأمر الذي كان معذباً جداً، إذ كان علينا أن نتوقف بالأمر عن التبول، لنبدأ فعل ذلك عند الباقة التالية؛ ولكن كان من الضروري أن يثمر تعليمنا، وتمكنّا في نهاية المطاف من التعود على التبول بشكل متقطع.

أثناء ذلك، كان جول وجوزيف يتصيدان بشكل مجيد وراء كلبهما، الذي راحوا يقصون عنه الأعاجيب. فهذا الكوكر الصغير كان يتسحب بمهارة تحت الأدغال ؛ ويطارد الفرائس، بشكل خفي، ويعود دائماً بالدراج أوالأرنب الجريح. وذات يوم، وعند رؤيتهما لشبح أرنب بري يجري بالغابة، أطلق كل منهما النار في نفس الوقت، ولم يخطئا هدفهما، لأنهما أصابا الكوكر المسكين الذي سقط صريعاً في الثو.

وبخجل شديد من هذا الفعل، فسرا لنا اختفاء الكلب قائلين إنه راح يطارد كلبة أغوته، ولم يعترفا بالحقيقة إلا بعد مرور عدة سنوات. وقد غالى العم في التمثيل إلى درجة أنه سأل عدة مرات، عند عودتهما من الصيد، ما إذا كان

الكوكر قد عاد إلى البيت، وهو الذي دفنه بيديه بالقرب من نافورة بريجيت، تحت كومة من الأحجار. وهي كذبة وقحة بالفعل، لابد أنه تطهر من فعلها في الاعتراف. على كل حال، لجأ الصيادان إليّ في طلب خدمات، وقد استجبت لهما، ولكن ليوم واحد فقط كل يومين، لأن اليوم الثاني كان مخصصاً لموند.

كانت سعادة العائلة شبه كاملة، وكنت أنا سعيداً تماماً إذا نحينا جانباً الواجبات التي كان عليّ أن أدرسها بالإجازة.

وأرهقني جوزيف بمتسابقي الدراجات الذين راحوا يطاردونني حتى في الحلم فبسبب هولاء السادة لم أقرأ أبداً الجرائد التي تنشر أنباء سباق فرنسا للدراجات في شهر يوليو. فقد كان العم جول يجيء في السادسة صباحاً ليكلفني بالعمل الذي أقوم به، يصحبه ميكيوس سكايفولا، وإيجيلوس وسيبيون ناسيكا، واسم الفاعل والماضي المستمر. ولكي يتوج وحشيته، كان مثاله المحبب هو إله الريح، وكنت أريد اللعب. وكان هذا يمتعه. ولكني كنت أدرسها، بغير رغبة، وبوجه مكتئب، حتى أن العم كان يقول: حقاً هل تعضك اللاتينية؟ ولم أكن أجب بشيء، ولكني كنت أرغب في عضه هو، آه كم كانت كلمة العض هذه مناسبة.

إلا أنني يجب أن أعترف بأن موند دي باريبون كان كثيراً ما يواسيني بيلوتارك، وكيرس — الخامس، اللذين لم يكونا إلا صحفيين متواضعين، تصنع منّا كتاباتهم أطفالاً محشوين بالتفاهات.

وذات مساء جميل من سبتمبر، قطعت عليّ الدرس زيارة السيد فنسان، كاتب الأرشيف بالمحافظة، الذي كانت له مكانة معنوية عالية بالقرية. وكان بصحبة موند دي باريبون، وليلي، الذي لم يكن لديه ما يفعله في هذه الزيارة، والذي جاء معهم من أجل أن يستمتع برؤيتي.

وأجلسهم أبي تحت التينة، ونادى على العم جول، الذي قام وتبعته أنا.

كان موند دي باريون يفتر ثغره الأهتم من خلال ذقنه بابتسامة، وكان السيد فنسان يتحدث بجدية ، بل وببعض القلق، بينما راح العم يفتح زجاجة نبيذ أبيض، وراح بول يقفز، وهو يمتص صمغ اللوز، على رجلي جوزيف.

– إليكم ما سيحدث، قال السيد فنسان. هذا العام، ستكون مسابقة دورة الكرات الحديدية هامة بشكل خاص. فسوف تقدم الدورة جائزة قدرها مائتا فرنك، وخصصت لنا العمدية إعانة قدرها مائتان وخمسون فرنكاً، ليكون المجمل أربعمائة وخمسين فرنكاً. ويجب أن نضيف إلى ذلك اشتراكات المتبارين. وقد تلقينا بالفعل طلبات تسجيل ثلاثين فريقاً، وأتصور أن الرقم سيصل إلى أربعين يوم الأحد. وبحساب عشرة فرنكات رسم تسجيل لكل فريق، سيكون لدينا أربعمائة فرنك إضافية، ليكون كل المجموع تسعمائة فرنك وخمسين، ولقد قلصنا من عائد الجائزة الثانية، لكي نرفع من قيمة الجائزة الأولى، التي ستكون سبعمائة وخمسين فرنكاً.

– اللعنة! قال العم جول، هذا مبلغ ليس بالقليل!

ولم يكن بخيلاً، ولكنه كان يحترم النقود بسبب أصله الريفي.

– لاحظ، قال السيد فنسان، أن الدورة قامت بصفقة جيدة ؛ فكبر حجم الجائزة الأولى هو الذي جذب الأربعين فريقاً، أي مائة وعشرين لاعباً، وبالطبع عدداً كبيراً آخر من المستطلعين، الذين سيقدمون النفع لنا كشرائهم لحوالي ثلاثمائة مشروب روحي، وحوالي مائة وجبة غداء، ومائة زجاجة بيرة، وهي الأشياء التي سنشتريها من مال صندوق الدورة، الذي سنستعيد أضعافه بعد البيع، لكن ما يزعجنا في الأمر هو أن بيسوجيه جاء ليقدم طلب اشتراك في المسابقة، وأنه هو الذي سوف ينشل السبعمائة وخمسين فرنكاً!

كان بيسوجيه هذا، هو ساعي بريد منطقة الألاووش، الذي يحرز خمس كرات ناجحة من ست. وكان مع فيسيل، المصوب الدقيق، وبنجاتل، الذي هو

لاعب وسط لايشق له غبار، يشكلون مصدر رعب للاعبي الضواحي، وكان يقال عنهم إنهم «محترفون» . كما أنهم كانوا أنفسهم يقولون ذلك في زهو، ولأن فيسيبل كان من منطقة (المحاور)، وكان بنجاتل من (فالنتين)، أطلقوا على فريقهم اسم «الثلاثي العالمي لمنطقة البوش دي رون».

– إذا كان بيسوجيه قد اشترك، قال موند، فالأمر منتهٍ.

– الواقع، قال جوزيف، إنني رأيتهم يلعبون العام الماضي، وقد انتصروا في المباراة النهائية على فريق أونوريه، الذي كان طالعه سيئاً. إن هؤلاء الأجانب مهرة فعلاً، ولكن بدا لي أنهم أيضاً مخادعون. ومن رأيي، أنهم ليسوا فريقاً لا يمكن هزيمته.

وابتسم ابتسامة صغيرة أسعدتني جداً.

– برافو! صاح السيد فنسان، فهكذا يجب أن يكون الكلام! كما أنني لا أقول ذلك لكي أنافقك، لأنني أرى أنك تقذف الكرات بتحكم مثلك مثل بيوجيه.

– أنت لم تتابعني كثيراً وأنا ألعب، قال جوزيف، وربما رأيتني في يوم من الأيام التي كان فيها حظي طيباً.

– لقد شاهدتك على الأقل ثلاث مرات، قال السيد فنسان، ورأيت عديلك وهو يصوب، إن له طريقة غريبة في قذف كراته، لكنه يحرز دائماً نتائج طيبة.

وابتسم العم جول بطريقة خبيثة، ورفع سبابته وقال:

– العبرة دائماً بالنتيجة!

– تماماً ! قال السيد فنسان. ثم إننا لدينا موند، الذي هو لاعب وسط جيد –وهكذا سيكون لدينا فريق جيد يلعب باسم البراري، وسيكون لديه فرصة في

مقاومة بيسوجيه وربما هزيمته.

– للأسف، قال أبي، فليس لدينا وقت كثير للتدريب.

– مازال أمامكم ستة أيام للتدريب ولكي تدرسوا عن كثب أرض الملعب، التي ستجري عليها المباريات النهائية.

– لابد من المحاولة، قال موند. فما الذي سنخسره؟

– سنخسر ربما جائزة السبعمائة وخمسين فرنكاً، قال العم، ولكن قد يكون لنا عزاء في المائتي فرنك، قيمة الجائزة الثانية!

كانت القرية قد أعدت ست فرق، ثلاثة منها ليس لها فرصة على الإطلاق في كسب أية مباراة، وإنما كان تقديمها دسيسة من السيد فنسان، الذي أسرّ بخطته.

فقد أعلمنا بأنه، بعد أن استعلم، عرف بأن بيسوجيه يعرق كثيراً ويترك نفسه بسهولة للوقوع تحت إغواء البيرة المثلجة ، وهو مايجعل ضرباته، عند المساء تفقد، أحياناً دقة تصويبها. لذا يجب جعل الدورة تستمر لأطول وقت ممكن، وهو السبب الذي دفع السيد فنسان لإشراك أربعين فريقاً على الأقل، حتى لا تتم المباراة النهائية إلا في أعقاب أربعة أشواط كل منها من خمس عشرة نقطة، في حدود الساعة السادسة مساء، بعد إنهاك قوة بيسوجيه.

لذا، راح فريق البراري يتدرب بالقرية، على نفس الأرض التي ستقام عليها المباراة النهائية، وكان فريق أونوريه بنفسه هو الذي تتدرب معه. وكنت أجلس على حاجز أرض الملعب، بين بول وليلي، نشجع لاعبينا بصيحات الإعجاب وبالتصفيق. وكان العم جول وجوزيف يقيسون انحدارات الأرض، ويسجلون العلامات بالطباشير على جذع الدلب (لكي يتمكنوا من تحديد المسافات من أول نظرة). ويتفحصون أقل حصوة ملتصقة بالأرض باهتمام دقيق. وكان العم

جول رشيقاً، وموند يقوم بدوره خير قيام، وكان جوزيف مبهراً، والسيد فنسان متألقاً. وفي اليوم الخامس، كان سعيداً لدرجة أنه نصح لاعبينا بالتوقف عن مرانهم، وأن يريحوا أنفسهم ثمانية وأربعين ساعة، كما يفعل أبطال ألعاب القوى. لذا تم ركن الكرات جانباً، وتحيّنت هذه الفرصة لكي أقوم بتلميعها، بمساعدة أمي وليلي.

ومستيقظين في ساعة مبكرة، أخذنا ليلي في طريقنا، ثم موند دي باربيون، ونزلنا باتجاه القرية. كنت أحمل شنطتين صغيرتين، تحتويان على كرات أبي وكرات العم جول. وحظي ليلي بشرف حمل كرات موند.

وعندما وصلنا، دقت أجراس الكنيسة، فجرى العم جول في خطوات رياضية لأنه خشي أن يتأخر عن القداس الذي أقيم خصيصاً للاحتفال بالمتبارين.

وكانت بي رغبة بدافع الفضول الخالص، للمشاركة في هذا القداس، لكن جوزيف، الذي كان علمانياً متشدداً، اقتادني إلى الساحة، التي كان بها بالفعل عدد من اللاعبين يتدربون على التصويب، أو يعاينون الأرض معاينة الخبراء.

وكان من بينهم رجل، متوسط الطول، أسود، شاحب الوجه، محفور الوجنات، مستنداً إلى الحائط، يشاهد هذه التدريبات في برود، وكان يحمل كيساً من الجلد، معلّقاً بطرف أصبعه السبابة، به كرتان فضيتان.

– هذا هو بيسوجيه، قال موند.

– تصورته أطول من ذلك، قال أبي.

– لأنه عندما يلعب، يحتل كل الميدان.

وخرج السيد فنسان من القداس قبل انتهائه.

— عليّ أن أعد قرعة اللعب! وتوجه إلى مكان تنظيم الدورة.

وكان احتفالاً مهيباً. فقد اصطف أمام الحلقة، تحت أشجار الدلب، جمع من الجمهور قوامه مائتا شخص على الأقل. وكنا نتعرف على اللاعبين من الأرقام التي وضعوها لفرقهم مكتوبة على كروت معلقة بخيوط على صدورهم. وكان فريق البراري يحمل رقم ٢٣ وفريق بيسوجيه يحمل رقم ١٣، الأمر الذي كان بالنسبة لنا نذيراً طيباً.

وفي نهاية أرض الملعب، أمام الواجهة، كانوا قد أقاموا منصة. وعلى هذه المنصة. وضعت منضدة طويلة. ووراء المنضدة، جلس السيد فنسان وحوله شخصيتان هامتان هما: رئيس جماعة الكرة المرحة بمقاطعة شاتو جومبير (الذي كان نحيلاً ومهيباً في بذلته السوداء) ورئيس جماعة الرباعي الكروي ؛ وكان شاباً من المدينة، ولكن الجميع كانوا يتعاملون معه باحترام، لأنه كما قيل محرر رياضي وأنه سيكتب عن المسابقة في جريدة الريفي الصغير. كما كانت هناك أمام المنضدة، فتاة صغيرة شديدة الجمال في السادسة أو السابعة من عمرها، كانت تقف خجلة للغاية وعلى رأسها شريط أحمر معقود على هيئة فراشة عملاقة.

ورن السيد فنسان جرساً وقال :

— سيداتي وسادتي، نفتتح الآن دورتنا الواحدة والثلاثين للكرة، التي ستجري بحسب قواعد اتحاد كرة البوش دي رون، والتي وزِّع منها نموذج مطبوع على كل لاعب. ولأنكم أقبلتم في أعداد كبيرة (وأشكركم على ذلك) فالدور الأول سيتكون من تسع عشرة مباراة، توجب علينا أن نوفر لها تسعة عشر ملعباً. وهذه الملاعب ليست جيدة للغاية، ولكن ذلك أمر ليس مهما بالنسبة للاعبين في مهارتكم، ولكي لايحدث خلاف، فقد رقمنا الملاعب، وسوف تكون الأرض الأولى من نصيب الأول في القرعة، وهكذا دواليك. ولأن

الساعة الآن بلغت الثامنة والنصف، فلست أريد إضاعة وقتنا في كلام طويل، وأترك الخيار للقدر ولاختيارات يد هذه الصبيّة البريئة.

وأتبع ذلك، بأن مد يده للفتاة الصغيرة بكيس للسحب من النوع الذي يستخدمونه عادة في اليانصيب.

وبخجل، مدت يدها وسحبت قرصين خشبيين، وأعلن السيد فنسان:

– رقم ١٣ سيلعب ضد رقم ٢٢ على الملعب رقم١ ، أي على طرف الساحة وسمعت تنهدات الراحة، وفرك العديدون أيديهم بسعادة، فقد أفلتوا من بيسوجيه، على الأقل في الدور الأول. وكان الفريق رقم ٢ مكوناً من ثلاثة فلاحين من رويسائل. وقد استقبلوا نتيجة الاقتراع هذه في استسلام مبتسم، في الوقت الذي راح بيسوجيه فيه يتعجلهم ليقتادهم باتجاه المساحة كأنه يقتادهم إلى المذبح. وجاء من نصيب فريق البراري أن يواجه، بمقتضى الاقتراع، فريق إورو، الذي كان مكوناً من لاعبين جيدين لكن سمعتهم لم تكن مرعبة، كما أن الاقتراع أعطى لهم الملعب الرئيسي، الذي تعودوا عليه و درسوه، وظلوا مع ذلك بانتظار نهاية الاقتراع حتى يفرغ لهم الميدان الذي سيلعبون عليه.

وظللت، بالطبع، مع ليلي، وفرانسوا وبعض الآخرين، من بينهم السيد فنسان – نشاهد فريق البراري، الذي يلعب ضد فريق إورو.

وكان نجم العم جول ساطعاً، وراحت كراته، تتوقف بالضبط عند نقطة الهدف، سالكة مسارات غير متوقعة، ولم يكن أبي راضياً، لأنه كان يخطئ كرة كل كرتين، وبدا عصبياً، لكن موند، على الرغم أو بفضل ذراعه اللولبي، كان يلعب بمهارة. وبعد مرور نصف ساعة، «فازوا» بثمانية أهداف ضد اثنين. ولأن انتصارهم بدا لي أمراً مؤكداً، اقترحت على ليلي عبور الساحة، لمشاهدة تطورات مذبحة بيسوجيه. وعندما خرجنا من الممر الضيق، سمعنا صوت اصطدام المعدن، ثم سمعنا صوت بيسوجيه يقول :

— ١٥ صفر! إنها لمسخرة!

وانفجر الجمهور مقهقهاً، مصفقاً لبيسوجيه، وراح رجال رويساتل يلمون كراتهم، ويضعونها في أكياسها الصغيرة بغير أن يرفعوا أعينهم عن الأرض. وراح البعض يسخر منهم، ثم راح بعض الغلمان يجرون في اتجاه الدائرة وهم يصيحون «المسخرة المسخرة» كما لو أنهم ينادون على فتاة بهذا الاسم، عندئذ أمسك بيسوجيه بكراته التي جمعها له أحد المعجبين، وقال بصوت خفيض:

— أعتقد أن بانتظارنا آخرين!

وكان يبدو عليه التصميم بطريقة أخافتني.

أمام الدائرة، كان قد تجمع اثنا عشر لاعباً أنهوا مبارياتهم، وبين هؤلاء، سعدت برؤية فريق البراري، الذي هزم فريق إوور ١٥ – ٨. وكان من السهل التعرف على الفائزين، فقد كانوا يطرقمون كراتهم بعضها ببعض، أو ينظفونها بمناديلهم وهم يسندونها على أكمامهم وكان المهزومون قد ارتدوا ستراتهم؛ ووضعوا كراتهم في أكياسها أو حمالاتها، وكان البعض منهم يتعاركون، وهم يلقون بمسئولية الهزيمة على بعضهم البعض.

وعلى المنضدة الرسمية، راح الصحفي يسجل بعناية نتائج كل مباراة على سجل صغير وهو يكتب أسماء أعضاء الفرق. وأثناء ذلك، راح السيد فنسان يفرز أرقامه لسحب الدور الثاني، فقد كانت تجب تنحية أرقام الفرق المهزومة.

مع انتهاء ذلك العمل، قرأ السيد فنسان بصوت عال النتائج. التي استقبلت بالتحية والتصفيق وبعض الاحتجاجات. ثم، وفي صمت كامل، وعندما قدم كيس القرعة للفتاة الصغيرة، ارتفع صوت بيسوجيه.

— وماذا عن الاحتفال ؟

عندئذ راح الشباب يصيحون في صوت واحد:

— المسخرة! المسخرة!

— إنها التقاليد، قال الصحفي. وأعتقد أن من واجبنا احترامها! وعند هذه الكلمات، دخل شابان إلى قلب الدائرة جرياً، وهم يحملون، في جو من الحبور العام، لوحة مساحتها متر مربع، وقد أمسكها كل منهم من طرف.

وتقدم الخاسرون الثلاثة، وهم يضحكون في ارتباك، والجمهور يحييهم بالتصفيق. وتسللت حتى الصف الأول، فرأيت، لدهشتي، أن هذه اللوحة كانت تصور مؤخرة! لاغير. ليس لها أفخاذ، ولا ظهر، ولا أذرع. إذ ليس فيها إلا صورة مؤخرة مجهولة، مؤخرة حقيقية، لونها الرسام بلون أحمر فاقع بدا لي مبالغاً فيه. وصاحت أصوات من بين الجمهور:

— اركعوا!

وبانقياد، ركع المهزومون الثلاثة. وكان اثنان منهم يتظاهران بالضحك، لكن الثالث كان يحني رأسه، وهو ممتقع، لا يقول شيئاً.

عندئذ اقترب الشابان باللوحة من وجه رئيس الفريق، وقام هذا الأخير بوضع قبلة خجولة بشفتيه على هذه المؤخرة المجسمة.

ثم انفجر ضاحكاً، ولكني لاحظت أنه لم يكن يضحك من قلبه. وكان أصغر أفراد الفريق، إلى جانبه، محنياً رأسه وهو يضغط على أسنانه بما جعل فكيه يبرزان أسفل وجنتيه وكدت أموت من الخجل من أجلهما ... ومع ذلك، فقد حياهم البعض بالتصفيق، كما لو يزف لهم التهنئة على هذا التقليد، ودعاهم السيد فنسان لشرب كأس، لكن الرئيس رفض بإشارة من رأسه، وابتعدوا بغير أن ينبسوا بكلمة.

وجرت المباريات الثانية والثالثة بغير حادث يذكر، وراح بيسوجيه يسحق فرق أونوريه، وكاموان، واحداً وراء الآخر، مسجلاً ضد الأول ١٥—٤ والثاني

١٥-٢ . وكان من الواضح بالفعل أن الثلاثي العالمي للبوش دي رون يعرف جيداً إصابة أهدافه، وبدأت أتشكك في إمكانية فريق البراري المحاور، وفريق الفصول الأربعة.

وعند الظهر، لم يكن تبقى في التصفية إلا خمس فرق هي: فريق بيسوجيه وفريق البراري وفريق الكابوسيل، وفريق فالنتين، وفريق روكفير.

وعدنا للغذاء بالحصن الجديد، مزهوين بهذه الانتصارات الأولى، مع ليلي وموند ضيوف الشرف، رغم اعتراضات موند، الذي لم يتصور أن يأكل وهو جالس وقد انتهى مع ذلك إلى القبول، لكنه وأثناء مرورنا بيته، هرع ليهذب لحيته ثانية بالمقص، بل بلغ به الأمر حد غسل يديه.

ثم جلس إلى المائدة في مظهر طيب. وأثناء ذلك سألت أمي:

- بما أنه لم يبق في التصفية سوى خمس فرق، كيف سيجري تحديد المباريات فيما بينها ؟

- إن ذلك أمر بسيط قال جوزيف، فأول من سترسو عليه القرعة سيلاعب الثاني والثالث يلاعب الرابع. أما عن الخامس، فسوف يستريح ويدعى للجولة الثانية كما لو أنه فاز.

- لكن ذلك ليس عدلاً! قالت أمي.

- لو أننا كنا نحن الذين سنحظى بهذا، قال موند، سنجد أنه في منتهى العدل!

-وبعد ذلك، ماذا سيحدث ؛ قال جوزيف. فيما أن كل جولة تجري فيها التصفية لنصف الفرق، تصل حتماً إلى رقم زوجي! وبما أن الرقم الإجمالي للفرق لا يصل بنا إلى وضع زوجي مثل ٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢، ٦٤. إلخ .

ولكن ... قال العم جول، وشرع يشرح نظرية رياضية، ورفضت الاستماع إلى هذا الدرس الإضافي في الحساب ورحت أتخيل الرجال الثلاثة راكعين أمام هذه المؤخرة الضخمة، التي لم أفهم لأي شيء ترمز، ولكني لم أجرؤ على الحديث عنها، خاصة على الطاولة.

وفي الساعة السادسة مساء، بدأ الدور الأخير لهذه المسابقة؛ بحسب ما أعد السيد قسان الماكر. وكان الجو مازال بعد حاراً، والشمس تتراجع نحو المغيب بسرعة. وصارت المباراة النهائية ما بين ثلاثي البوش دي رون الذي لا يقهر، والذي انتصر بسهولة على خصومه، وبين فريق البراري العزيز.

كنت أنا وليلي موزعي العواطف ما بين الاعتداد برؤية أبطالنا يصلون إلى المباراة النهائية وبين الخوف من فكرة الهزيمة المخزية التي سيلحقها بهم بيسوجيه الرهيب.

وعند دخول بيسوجيه إلى الأرض ورؤيته لجوزيف فريق البراري، ابتسم ابتسامة صغيرة لم تعجبني. بل إنه في الاقتراع بوجهي العملة، كسب الحق في أن يقذف أولاً بالفلة التي تحدد الهدف، وهو الأمر الذي بدا لي نذيراً سيئاً -وبدأت المباراة، بين حاجزين من الجمهور كل منهما مكون من ثلاثة صفوف. وكان هناك صمت شديد مع انطلاقة كل كرة، وهي تدور مباشرة تحت قبة من التنهدات القلقة، وكان توقفها يتبعه انفجار من صياح الإعجاب أو اللعنات، ثم التعليقات التقنية.

ولسوء الطالع، لم يكن الحظ إلى جانبنا، ورأى البعض سريعاً أن موند لم يعد صاحب المفصل الزائد. ولم يستطع بيسوجيه، الذي كان ساعياً للبريد خارج حلبة اللعب، من أن يكتم قهقهة صغيرة ساخرة عندما طاشت كرة موند، صانعة زوبعة غريبة نتجت عن عدم تحكمه في قدمه غير الثابتة، وهي تعود ثانية للوراء بعد أن لمست الأرض. وامتقع جوزيف، واحمر وجه العم جول

وصار مثل الفلفلة، وحصل فريق بيسوجيه على ثماني نقاط من ثلاثة أهداف ... وهز ليلي رأسه حزيناً، وغادر البعض من مشجعينا أرض المباراة منسحبين في هدوء.

وهزني الغضب، بفعل الحظ الوقح لهؤلاء الأجانب والنحس الغريب الملازم لفريقنا. وبعد أن تفحص العم جول طويلاً أرض اللعب، قذف كرته عالية بحيث ارتطمت بفرع شجرة دلب وسقطت على رأسه، بما جعله ينطق بحرف الراء المتضمن بكلمة الجنرال كامبرون (خراء)، وراح الأجانب يقهقهون بشكل ساخر.

وعندما تفوق فريق بيسوجيه باثنتي عشرة نقطة مؤلمة، أعطى السيد قسان، موظف الأرشيف بالمحافظة، الأمر ببدء حفل الرقص بالميدان، لكي يحوِّل الانتباه عن هذه النتيجة المؤلمة. وسعد جميع المتفرجين بهذه الحجة لكي يهربوا إلى الميدان ... وتبعناهم أنا وليلي، ولخص الخباز الانطباع العام بما يجري قائلاً :

– إنها مذبحة!

وأضاف السيد قسان المغموم :

– ليت الوضع لا يصبح مسخرة!

وأصابتني هذه الفكرة بالاضطراب؛ فقد تخيلت جوزيف والعم جول راكعين أمام هذه المؤخرة، وقد قدمهم إليها بيسوجيه المخيف. وياله من عار أبدي لعائلتنا! واقشعر بدني، وكرر ليلي على مسامعي قوله:

– إنه خطأ موند! فلم يكن له أن يلعب الكرة بذراعه الطري هذا الذي يشبه الكرشة! كل هذا بسببه!

وكنت من رأيه، لكن ذلك لم يفد بشيء ؛ وبينما كانت الأوركسترا تعزف البوك، رحت أختبئ خلف جذع شجرة توت كبيرة، وتبعني ليلي بغير أن ينبس

بكلمة.

وصنعت الموسيقى ضجة شديدة، وراحت الفرقعات الصادرة عن الأبواق ذات المكبس تعلو حتى تتعانق مع أصداء التاومي. وكان الجميع يرقصون، وكنت سعيداً بذلك، فعلى هذا النحو لن يذهب أحد للفرجة على تقليد المسخرة، لو أن الفريق انهزم بسبب تحسه ١٥- صفر.

على أية حال لن أذهب أنا، وكنت متأكداً من أن السيد قسان لن يحضر ذلك هو الآخر، ولا السيد. فيرو، الخباز، ولا الجزار، ولا أي شخص من أصدقائنا الحقيقيين. لكن هل سيذهب الأطفال للسخرية من خزي أبي؟ قلت ذلك بصوت مرتعش، لليلي.

- تعال، قال لي، تعال!

واقتادني إلى زقاق، يقع فيه اسطبل السيد، فيرو، وأخذ المفتاح من ثقب بالحائط، ودخل، وخرج ومعه كرباج حوذي وعصا قوية من الخيزران، أعطاها لي:

- بهذا ، قال، لو أنهم ذهبوا للحضور، لن نجعلهم يستمرون طويلاً.

كان الرقص متواصلاً بالميدان. وكنت أنا أنتظر وقلبي يدق، ولكني لم أجرؤ على الذهاب إلى الحلقة، التي كان شرف اسمنا فيها في خطر.

رغم ذلك ولأننا كانت قد مضت علينا عشرة دقائق غادرنا فيها ذلك المكان القاتل، غمرني شعور مفاجئ بالأمل.

- ليلي، لو أن المباراة كانت انتهت لكنّا عرفنا الآن، وإذا لم تكن انتهت، فذلك يعني أنهم ربما يكونوا قد سجلوا نقطة على الأقل. لأن الآخرين لم يكن ينقصهم سوى ثلاثة نقاط، ولابد أنهم لعبوا بالفعل أدوارها الثلاثة.

— هذا صحيح، قال. نعم، إنهم سجلوا نقطة بالتأكيد، وربما نقطتين، وربما ثلاثا. أنا لا أقول إنهم كسبوا، ولكن الأمر لن يصير مسخرة على الأقل ... هل تريد مني أن أذهب وأستطلع الأمر؟ وقبل أن أجيب، كان قد ذهب.

كان البوق يعزف الفالس، وكل الشباب يرقصون بالميدان، الذي كان قد غمره الظل، لأن الشمس قد توارت وراء القبة. ورددت لنفسي:

— نقطة على الأقل! نعم لابد أنهم سجلوا نقطة!

وظهر ليلي بزاوية الزقاق. ولكنه بدلاً من أن يأتي صوبي توقف، ووضع يده على فمه، وصاح بصوت جلي وقوي:

— فريق البراري متقدم بـ ١٣ ضد ١٢!

وتوقفت الموسيقى تماماً، وارتبك الراقصون. وصاح من جديد:

— ١٣ ضد ١٢ لصالح البراري! تعال سريعا!

واتجه صوب الحلقة، وجريت خلفه. وجرى عازف البوق إلى جواري وتبعه كل الجمهور. وعند وصولنا إلى موقع اللعب، رفع مدير الدورة ذراعيه لنا، وراحتا يديه للأمام.

— انتبهوا، صاح. قفوا مكانكم! لا تشوشوا اللاعبين! أستحلفكم الصمت! إلزموا الهدوء.

واصطف الجمهور على طول أرض اللعب، وكان الرجال يسيرون على أطراف أصابعهم. كان اللاعبون الستة تحت الدلب متحلقين، حول عشر كرات أحاطت بقطعة الفلين. وكان أربعة من بينهم أبي واقفين، وقبضاتهم على خناصرهم. وهم ينظرون إلى العم جول وبيسوجيه، اللذين كانا مقعيين. وكان العم جول يقيس الأرض بخيط، وبيسوجيه ينظر إليه شزراً. ثم صاح فجأة:

- نقطة واحدة فقط لاغير! قلت لك!

- لديك حق، قال العم جول وهو يقوم واقفاً. لم نحرز إلا نقطة واحدة. ولكن تظل لنا كرة نلعبها. وأشار إلى جوزيف، الذي تقدم، وبيده كرة. وكان هادئاً مبتسماً. وهو يتأمل اللعب ويقول :

- إذا قذفتها من أعلى، فلن أكسبها، وهناك احتمال أن أدفع بكرتهم هم للأمام.

- بالتصويب، قال بيسوجيه، هناك احتمال أن تزيح كرتكم أنتم. وإذا لم أنجح في كرتي، فلن يغير ذلك من الأمر شيئاً، لأننا ستظل لدينا بعد ذلك كرة بنياتل ...

- نعم، قال جوزيف. ولكني إذا نجحت في إصابتي، فسوف تسجل خمس عشرة نقطة .

وعاد باتجاه بداية الحلقة بخطوة واثقة. ويأمل أن يتسبب له في الاضطراب جرى بيسوجيه فجأة باتجاهه، ونظرة متشككة للقدم اليسرى لجوزيف، وانحنى لكي يتثبت من أن هذه القدم لا تلمس خط الدائرة .

أثناء ذلك، تحرك بنياتل، الذي ظل قريباً من اللعب، ثلاث خطوات جانبية لكي يلقي بظله على الكرة الهدف. وصاح السيد فنسان من بين الجمهور.

- أيها الصديق! أبعد ظلك عن هنا! ابتعد عن طريق الشمس والكرة!

لكن الوغد بنياتل تظاهر بأنه لم يفهم أنه هو المخاطب. عندئذ اقترب موند دي باريبون منه، وقال بمودة:

- يا بنياتل، تزحزح قليلاً!

وبغير أن ينتظر لكي يتزحزح من تلقاء نفسه، وضع يده السليمة على

كتفه، ودفعه للوراء مترين، وهو يقول له بعناد :

— آسف، لا تؤاخذني.

— إنها القواعد! صاح مدير الدورة، فلابد أن تكون الكرة في الضوء.

ولم يلح بنياتل. وراح جوزيف، وكعب قدمه اليسرى في قلب الدائرة، ومقدم رجله مرتفع عن الأرض، ينظر طويلاً للهدف، في صمت احتفالي. ولكنه عندما بدأ يستعد لقذف الكرة، تعالى صرير خمس سعلات مزقت حنجرة فيسيل اللاعب الثالث بفريق بيسوجيه، وتوقف جوزيف، بغير أن يبدي أي نفاذ صبر، لكن الجمهور راح يغمغم مستنكراً، وصاح إزيار الضخم، ملك الحمص:

— فيما يبدو أنهم في قريته يظلون مصابين بالسعال الديكي حتى سن المائة!

واقترب موند من فيسيل، وقال بصوت عال:

— إن أفضل علاج له، هو ضربه على ظهره!

ولكنه عندما رفع يده الضخمة، تراجع فيسيل أربع خطوات للوراء، وهو يقول: لا، شكراً ... لا داعي لذلك!

وحل الصمت ... عندئذ، قفز جوزيف القفزات الثلاث القانونية، وطارت كرته في الهواء، ملتمعة كأنها شمس صغيرة ... وتوقفت أنفاسي، وراحت يد ليلي تتقبض بقوة على ذراعي، بينما كانت هذه الكرة الأخيرة تواصل الانطلاق ولا تهبط بعد ... وفجأة، دوى صوت طرقعة والتمعت كرة بيسوجيه السوداء التماعة فضية. فقد تمكن جوزيف من إصابة الهدف. وقال وهو ساكن ومبتسماً ابتسامة خفيفة:

— بهذا نحصل على خمس عشرة نقطة!

وانفجر التصفيق، المختلط بصيحات الإعجاب، واندفع الجمهور نحوه، بينما أنهى السيد القسيس صلاته، ونزل يعدو عبر الزقاق وهو يرفع طرف ثوبه بيديه الاثنتين .

عندئذ، شرب الجميع الشمبانيا -نعم، تم إرغام جوزيف على شرب كأس مترعة منها وأسرعت أمي فكانت أول من تذوقها بشفتيها. ثم رفع العم جول كأسه، وذكر ألف صفة رائعة، ولكن صحيحة جداً، عن شجاعة جوزيف الحبيب، وعلمه، وإحكامه، وعن أنه لم يصب باليأس، وعن شجاعته التي تستحق الإعجاب (ولقد ذكرت ذلك قبلاً، لكن العم جول كرره عدة مرات) وبعد ذلك، أعلن جوزيف (بتواضع) أن العم جول كان يبالغ (ولكنه لم يبالغ بالمرة) وأنه جول، هو الذي كسب المباراة بخطته، وذكائه، ومعرفته الرائعة بالأرض. ولكني أعتقد أنه كان زائغ البصر قليلاً، وأنه كان يرتاب في أفرع الدلب التي صوب نحوها كراته. ثم هنأ أبي موند دي باربيون، وقال إن ذراعه كانت معطلة قليلاً في بداية المباراة، وأنها خذلته؛ ولكنه بعد ذلك، وعندما استعاد سيطرته عليها، وفي قذف الكرات الأرضية، تمكن من إحراز نقاط جميلة جمال الذين صفقوا في نهاية مسابقة «الريفي الصغير». وهنأ السيد فنسان الجميع وأعلن أن بيسوجيه ورجاله أخطأوا برحيلهم، فقد كانوا مدعوين لشرب الشمبانيا هم أيضاً، لأنهم لعبوا بمهارة شديدة، وأنه ليس خطأهم أن واجهوا فريقاً أقوى منهم. وأخيراً، وبعد تصفيق شديد أخجل أعضاء فريق البراري الثلاثة، ودعا أمي للحضور رسمياً لتفتتح الرقص معه.

وهكذا رأيتها تدور بين ذراعيه على صوت الفالس المدوي.

كانت تبتسم، وفمها نصف منفرج، ورأسها مائل للوراء، وكانت تدور بسرعة ويرتفع ثوبها، وتمكن الجميع من رؤية ساقيها. كانت تبدو كأنها فتاة صغيرة، ولكن عليّ أن أقول إنها لم تحول عينيها أبداً عن جوزيف، الذي راح

يرقص، مع خبازة إزور، واضعاً يده على خصرها، وكانت شابة جميلة سمراء. وكان يحدثها وهو يرقص، وبدا لي أنه كان يطريها ويجاملها.

وراح العم جول، هو الآخر، يرقص في احتفالية تعبيرية مع آنسة عجوز ترتدي الدانتيل، كانت ترقص وعيناها مغمضتان، على حين تركت الخالة روز نفسها لِيَدَيْ مصطاف مجهول، ولكنه محترم.

زيزي

كان الأستاذ المسئول عن فصلنا، بالصف الرابع أ٢، هو السيد. جاليازي، المعروف باسم زيزي.

كان طويلاً نحيلاً، مقوس الظهر بعض الشيء، وكان ذا لحية مدببة، أصابها المشيب ولم يكن أنفه المعقوف صغيراً ؛ وكانت نظراته الرمادية الزرقاء تطل مباشرة من عينيه المتحجرتين، الزجاجيتين، فكان عندما ينظر لليمين أو لليسار، تدور رأسه، ككشاف المنارة وكان صوته ضعيفاً ولكنه واضح، وطريقة نطقه تفصل بشكل صارم بين كل مقطع لفظي وآخر.

لا أقول إنه كان يخيفنا، ولكنه كان يقلقنا، كأنه سحلية وكنت على يقين من أنه شخص بارد الدم من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

كانت سطوته شديدة، وقد أثبتها لنا من أول يوم، عندما طرد الأخوين التوأم لفصل التأديب.

كان هذان الأخوان المهرجان يونانيين من عائلة مرسيلية كبيرة. وكانا وسيمين كتمثالين، ومن أبناء الذوات، ولايمكن تمييز أحدهما عن الآخر،

وكانا يرتديان ملابس متشابهة على نحو شديد. أحدهما يدعى ببساطة بيركلي، والثاني أرسطو.

وقد طردا بالفعل من عدة مدارس داخلية، حيث كانا يستغلان تشابههما الشديد لكي يثيرا اضطراب الأساتذة التعساء، وقد وعدانا بأن يمتعانا ببعض الجولات على طريقتهما. ولكنهما لم يجدا لذلك فرصة.

كان بيركلي يجلس في الصف الأول، بالقرب من الباب، على حين كان أرسطو مبعداً لأعلى الفصل، في الممر الأخير، إلى جوار النافذة المطلة على فناء الداخلية وأصابت زيزي الدهشة في بادئ الأمر من رؤية نفس التلميذ في مكانين مختلفين وكان عليه أن يتكبد مشقة أن يذرع الفصل ذهاباً وجيئة ثلاث مرات برأسه الدوارة لكي يتأكد من أنه لا يحلم، وعندما تيقّن من ذلك، سألهم عن أسمائهم الأولى، التي أضحك ذكرها كل الفصل.

عندئذ، وبغير أدنى احترام لأجدادهم القياصرة، أعلن زيزي أن هذا التشابه الشديد يربكه وأنه لا يتصور أنه قادر على تحمل تواجد تلميذ مزدوج بفصله. لذا أنذرهم بأنه لن يسمح لهم بالتواجد في فصله بعد الظهر إذا لم يضع كل واحد منهم ربطة عنق مختلفة في اللون عن الآخر، وبانتظار ذلك، طلب من الفيلسوف والجنرال أن يذهبا لقضاء فترة الصباح في غرفة المراقبة، وبأن يترجما معاً أو كلاً على حدة الفقرات الأولى من قيصر.

وبعد الظهر، عاد أرسطو برباط عنق أحمر، بينما عاد بيريكلي برباط عنق متموج اللون.

وأجلسهما زيزي في مقدمة الصف الأول، جنباً إلى جنب، أمام المنصة. وهكذا، وقد ميز بينهما التجاور واختلاف الألوان، لم يفقد التوأمان شجاعتهما، فمن وقت لآخر –وأحياناً مرتين في اليوم الواحد– كانا يبدلان أسماءهما وأربطة عنقهما، ويبدو أنهما يحصلان من هذه الحيلة الصغيرة على سعادة كبيرة

خاصة.

ولم يحاول زيزي، الذي كان يخمن بالطبع ألاعيبهما، أن يتعقبهما أبداً في ذلك. واكتفى هذا المعلم الذي تثقف بالمدرسة الرواقية الفظة، بتوقيع العقاب أو مكافأة كل رباط عنق منهما على حدة، وكان ينادي على كل منهما حسب رباط العنق، بغير أن يتنازل ويستفسر عن هوية واضعه.

وأصابت التوأمين، اللذين ضاعت شخصيتهما بفعل هذا الإهمال، وتقلصت إلى مجرد أربطة العنق، حالة من الإذلال الشديدة، حتى أن أرسطو حلق شعره تماماً ولم يبد زيزي أي دهشة لذلك، فانتهيا إلى أن يقبلا خضوعهما صاغرين، وصارا قادرين على عرض شروح قيصر .

كان قيصر هذا هو ديانة زيزي. وكان يشبه نخلة جزر الباسفيك، التي يصنع منها الأهالي أقواسهم، وأكواخهم، وسقوفهم، وخمرهم وخبزهم، وسهامهم، وملابسهم، فكان مدرسنا زيزي يستلهم من قيصر كل شروحاته للنص، وكل الدروس وكل عقوبة يوقعها علينا ... بل لقد صنع منه اسماً دارجاً حين قال:

— السيد شميدت، أنت معاقب بالاحتجاز ساعتين، وبواحد قيصر وهو ما يعني أنك ستترجم لي فقرة من قيصر ...

وقد بذلت في بادئ الأمر جهداً شديداً للمشاركة في هجوم الغاليين عليه، ولكنه كان أمراً مضنياً لي، أن أتابع عمليات الزحف والتراجع كهؤلاء المتطوعين الانتحاريين، عبر الغابات التي تعج بالحواجز الشائكة، المجهّزة، في (خطوطها الأمامية) بجحافل من أسماء الفعل، المحصنة بأسماء الفاعل وأسماء المفعول، التي لا تستطيع الخلاص منها إلا بالتعثر في الأحراش التي تئن فيها جوقات أسماء المفعول المطلق.

ومع ذلك —كانت هذه الحرب تجذبني على نحو عاطفي، بسبب فيرسا

فيجيتوريكس بطلنا القومي الأوفرني- ولأن انتصارات قيصر كانت تثير حنقي لأنها لم تأت إلا نتيجة الخيانات، والتقدم التقني، وأدوات الحرب.

كانت هناك الأنواع المختلفة من القواذف والمقاليع والمنجنيق، وكانت سيوف الفيالق من الحديد المطروق، على حين كانت سيوف أجدادي الغاليين من البرونز، الذي ينفتل من أول ضربة، وكان من الضروري تقويمها في التو، بتثبيتها في جعابها، وبالتصويب على الجناحين، و أثناء هذه العملية كانت الفيالق تقوم بدفع سيوفها الصلبة في مركز (أوفرن) أو (سيجوبريج) بطريقة لايمكن انتزاعها.

وكان لاتيو نفسه غير مستعد لذلك، بينما اجتاحتني رغبة عارمة للتدخل شخصياً في هذه المعارك. ورحت أتخيل نفسي على رأس فصيلة من الممنوحين، المسلحين ببنادق فلوبير، تلك التي تطلق في المهرجانات، فبمدد معقول من الخراطيش. سيكون بإمكاننا قلب الموازين في حرب الغاليين هذه، واقتياد الفيالق التي تعدو حتى (روبيكون) ، لكي يتمكن الرجل الصغير الأصلع من أن يكون أول الجناحين لها، وبلا أي تردد، ولكن ذلك لم يكن إلا حلماً، وتضاعفت مرارتي لأن قيصر اقترب من جيرجوفيا.

لحسن الحظ أكّد لنا بيدق صغير، كان يراقبنا أثناء الفسحة، ويثرثر برفاقية مع التلاميذ، أن أجدادنا الغاليين كانوا ألماناً، وسويسريين، وفلامانديين، وأن فيالق روما كانت روسية، وبلغارية، وصربية، ومجرية. لذا عدلت في التو عن المشاركة العاطفية في هذه المعارك بين الأجانب وبعضهم البعض، ورحت أنظر من ذلك الحين إلى هذه الشروحات باعتبارها ديواناً لا ينتهي من النصوص اللاتينية.

في ذلك الوقت حدث حادث طارئ قلب حياتي المدرسية .

فلاتيو- الذي كانت أمه تعطيه مبالغ طائلة، أي خمسة فرنكات أسبوعياً-

كان قد عثر، في محل تاجر الكتب القديمة على ثلاثة ملازم من بافالوييل، بسعر فرنك واحد للثلاثة. وقد تبقى له فرنك واحد فقط، لأنه أنفق الباقي في الليلة السابقة على شراء الكراملة الطرية؛ فاشترى لتوه الملازم الثلاثة، ولكنه اكتشف في عمق المحل كتاباً صغيراً أصفر بفعل الزمن، دفعه الفضول لكي يفتحه، فوجده يحتوي على الترجمة الفرنسية لشروحات قيصر، ومعها، في أسفل الصفحات، النص اللاتيني، ولم يتردد لأكثر من ثانية، وضحى ببافالوييل مقابل يوليوس قيصر، بما أنه كان يتمتع بحس واقعي، وفي صباح اليوم التالي، في حصة المذاكرة الأولى، التي يجيء موعدها في الثامنة إلا ربعاً، وضع على درجي هذه الرزمة من الورق الأصفر، التي صارت بالنسبة لنا أكثر نفعاً من درابزين في سلم.

ولابد من القول، بلا تواضع، إنني عرفت كيف أستخدمه بمهارة. فبعد العثور على الفقرة التي تعرض النص اللاتيني المقرر علينا للأسبوع، كنت أنسخ الترجمة! ولكن لكي لا أوقظ الشك المرضي في نفس زيزي. كنت أضفي مصداقية على فروضنا بكتابة بعض الأخطاء.

كان الأمر يتطلب، بالنسبة للاتيو، تناقضين في المعنى، وخطأين، وغلطتين إملائيتين» وبالنسبة لي تناقضاً واحداً، وخطأ بإحلال للمضاف بدلاً من اسم المفعول المطلق، «وثلاثة أخطاء إملائية» .

وشيئاً فشيئاً، بدأت أقلص عدد أخطائنا، وخففت من خطورتها. ولم يشك زيزي في شيء وذات يوم، وأمام كل الفصل، هنأنا على التقدم الذي أحرزناه الأمر الذي جعلني أحمر حتى أذني. ولأنني كنت أستشعر الخجل بسبب الغش الذي فعلته رحت أفكر في قلق شديد بالإنشاء، الذي سيدور الامتحان فيه بالفصل، تحت رقابة زيزي نفسه، وعندما جاء يوم الاختبار، أملانا صفحة من تيت – ليف، وكنت خائفاً في بداية الأمر. ومع ذلك، وبإعادة قراءتي للنص،

بدا لي أنني فهمته جيداً، وسعدت سعادة كبرى عندما جاء ترتيبي الثالث، على حين جاء ترتيب لاتيو الحادي عشر، وفهمت حينذاك أن عملية الغش التي قمت بها أفادتني إفادة كبرى، في تطوير قدرتي على العمل، ومهاراتي الطبيعية.

أنا أكتب الشعر

في تلك الحقبة، كان علينا أن نودع فناء الصغار - حيث صرنا كباراً - ونرتقي إلى فناء السنوات المتوسطة، الذي صرنا صغاره. وهو موقف مذل بعض الشيء، ولكن له بعض فوائده، لأن طلاب الصف الثالث والثاني، كانوا يعطوننا أحياناً حلول المسائل الرياضية والهندسية. كما أنهم علمونا بعض الكلمات البذيئة الجديدة، غير المعروفة في فناء الصغار، وعلمونا التدخين، بالاختباء وراء عمود من أعمدة السقيفة، وبإخفاء الدخان المتصاعد بواسطة اليد اليسرى التي تستخدمها كمروحة. وأخيراً، أعطونا نصائح ثمينة حول أساتذتنا الجدد، الذين كانوا أساتذتهم، وكشفوا لنا الاسم الحقيقي لبويتوس، الذي صار أستاذنا المسئول بقاعة المدرسة بعد أن أسفنا على وداعنا للسيد باير العزيز.

وهذا الاسم لم تكن له علاقة باسم بيتومان الشهير، كما اعتقد لاتيو. ففي واقع الأمر كان بويتوس يدعى ليرو ؛ ولكنه كان كل عام، بالشتاء أي في فصل الزكام والنزلات الشعبية، يحل محل أساتذة الأدب الذين كانت الحرارة تعلو في بيوتهم. وفي كل عام يملي على الطلاب نفس الدرس اللاتيني المعنون «موت بويتوس سيسينيا»، بما أنهم لم يكونوا هم نفس الطلاب

وهذا البويتوس الذي كان بالقطع نبيلاً رومانياً، حكم عليه بالموت بواسطة الامبراطور كلود، ولا نعرف لماذا ؛ ولكن بكرم خاص، سمح له الامبراطور بقتل

نفسه، وبعث إليه بخنجر شديد الجمال.

وتفحص بويتوس هذا السلاح، بأن تحسس حده بطرف أصبعه، وهز رأسه، وراح يفكر طويلاً. عندئذ، تقدمت زوجته (آريا)، وأمسكت بالخنجر، وأغمدته في صدرها وهي تقول: "Poet, non dolet" أي: «يا بويتوس، إنه لايؤلم» .

عندئذ، أخرج بويتوس الخنجر المدمّى، وأغمده في قلبه، وسقط فوق جثة زوجته.

وجرى تخليد انتصار هذه السيدة الرومانية، التي لفظت أنفاسها الأخيرة لكي تطمئن زوجها بمناهج الصفوف النهائية بالثانوي، يضاف إلى ذلك أن السيد بويتوس، وكان يحث تلاميذه على النطق الصحيح، فكان يقول: «ياصغيري، غير مؤلم» ، "pété, non dolet" وهو ماكان يثير ضجة من الضحك الجنون بالفضول، وقد حكوا عن طالب مهرج من الصف الأول ب يدعى بيرياديس، لم يتردد ذات يوم في حصة الترجمة من أن يترجم هذه العبارة البطولية على طريقته قائلاً:

الضراط ليس مؤلماً (لأن كلمة pété تعني ضراط بالفرنسية - المترجم) وجنى من وراء ذلك عقوبة بالحجز ليوم كامل ومجداً مستمراً بما أنني أتحدث الآن عنه بعد مرور ستين عاماً على ذلك.

ولم يكن بويتوس هذا مرحاً، ووقوع خياره مائة مرة على قصة هذه المذبحة يثبت هذا بوضوح، ولأنه كان شخصاً قصيراً، فقد كان يجهد نفسه ليبدو قاسياً؛ لكن هذه القسوة لم تكن تعبر عن نفسها إلا بالتهديدات التي كان يتلفظ بها بصوت خفيض، بفم متقلص إلى حد ما، والتي كانت كافية لإحلال الصمت بقاعة المذاكرة، بسبب الجو المأسوي المحيط به بلاشك.

وطبيعي، أنني تقاسمت دكتي ثانية مع لانيو، وتبعنا، بالانتقال إلى الصف

الرابع كل زملاء الصف الخامس، فيما عدا زكريا الذي أعاد السنة.

وحدث لي كشف هام أثناء المذاكرة المسائية، فيما بين السادسة والسادسة والنصف مساء.

كنت قد انتهيت من ترجمتي اللاتينية، وكانت للفقرة الثالثة والستين من الكتاب السادس لقيصر"Decftion, Haeducrum ,Cognita" خلاصة المعرفة للصغار، وبانتظار قرع الطبل المسائي الأخير، رحت أتصفح القطع المختارة من الأدب الفرنسي، حين أوقفتني الصدفة على قصيدة لفرانسوا فابيه.

كان مؤلفها يحدث أباه، الحطاب من رويرج، ويعده بألا ينساه أبداً: لأن ريشتي الريفية ابنة لبلطتك.

وبدا لي هذا التحويل للبلطة إلى «ريشة» قمة البلاغة الشعرية، وشعرت بالرجفة المقدسة للجمال. وطفرت الدموع من عيني، ودخلت في مملكته تحت أعين هذا البويتوس، الذي لم يشك في شيء.

وبعد أن قرأت هذا العمل الرائع ثلاث مرات، حفظته

وقلق لانيو، الذي سمعني أهمس:

— أهذا درس للغد؟

— لا.

— لمتى إذن؟

— إنه ليس درساً.

— إذن لماذا تحفظه؟

— لأنه جميل.

وبدا له هذا السبب سخيفاً لدرجة أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من القهقهة التي تسبب عنها إنذار قاس من بويتوس نزل على رأس شميدت المذهول.

عند الخروج، كان شميدت يصحبنا كل يوم حتى محطة الترام، بنهاية الخط بموقف ليوتو. وفي الطريق، تلوت عليه بصوت مرتجف بعض الشيء هذه الأبيات الرائعة، واستمع لها ونحن سائران، محنياً رأسه، ومرهفاً سمعه، ثم أعلن بكل حماقة أنها «ليست بطّالة»، ثم لفت انتباهي بغباء إلى أن هذه البلطة لابد وأن تكون صغيرة جداً لكي تكون كافية بالكاد لأن تصنع منها ريشة، وشرح لنا بجدية فائقة أن بلطة الحطاب تزن في حدود الثلاثة كيلو جرامات، وثلاثة كيلوات من الفولاذ وأن بإمكانها أن تصنع مائتي علبة من الريشات من نوع الصول (Sergent Magor) .

واستنكرت هذا النقد الفظ، وأجبته بأنه لم يفهم شيئاً. وأنه ينظر للأمور بطريقة خردواتي ثم تركناه وحده، على محطة ترامه تحت مصباح غاز مرتعش، ولم يبد عليه أنه تأثر على نحو آخر، فقد راح ينظر إلينا ونحن نتركه في سخرية وأثناء صعودنا طريق ليوتو أمسكت بذراع لانيو، وعاودت تلاوتي عليه وحده.

واستمع لي، مقطِّباً، لكنه لم يقل شيئاً ورأيت بوضوح أنه كف عن التفكير. وتركته عند السهل، بمنعطف شارع القديس – شافورنان، ورحت أفكر، وأنا أهبط شارع تيروس، في أن سخرية شميدت وعدم فهم لانيو لا يدلأن إلا على شيء واحد، وهو أنهما ليسا شعراء.

واستنتجت أنني كنت شاعراً، وأنني كنت غبياً لعدم ملاحظتي ذلك قبلاً، وأنني يجب علي أن أبدأ في تأليف الشعر من الغد إذا كنت أسعى وراء المجد والثراء في سن العشرين.

وتخيلت لنفسي في تلك الحالة صورة فوتوغرافية بمكتب عملي، محاط

فيها بالكتب القيمة، تحت تمثال نصفي مكلل بالغار لي. وجبهتي العارقة تستند إلى راحة يدي اليسرى، وأنا أكتب قصيدة لأبي، بقلم حبر، وهو ما كان أحدث اختراع، رأيته لدى السيد المراقب العام. هذه القصيدة التي ستصبح أنشودة، تعرض أمجاد جوزيف، الذي كسب مسابقة الكرة، وصعق الدراج الملكي، والحاط أخيراً بعرفان تلاميذه ؛ وسوف أنهي القصيدة بهذه الأبيات المجيدة التي أستلهم فيها فرانسوا قابيه:

إنني لن أنسى أبداً أنني مدين لك ماحييت

وأن قلمي الحبر هو ابن لريشتك.

صباح اليوم التالي، وعند حصة المذاكرة الأولى، أعلمت لانيو بمشاريعي، وهنأني وأعلن أن ذلك لا يدهشه، لأنني في رأيه لي عقل شاعر. وأعلمني فضلا عن ذلك أنه كان يعرف بالفعل شاعراً آخر، كان يعمل وراقاً، وبائع جرائد في شارع روما، وأنه كتب بنفسه الأبيات المطبوعة على بطاقته. ولكني لفتّ انتباهه لأن هذه القصائد لم تكن أبداً تتعدى الأربعة أبيات، وأنها لا تعدو أن تكون أُلهيات، وليست قصائد حقيقية.

شاعر إذن، ولكن مثل مَن مِن الشعراء؟ هل أكون مثل فيكتور هوجو؟ لا. ليس الآن. إذن، هل أكون مثل ألفريد دي موسيه، لا. فهو شديد الحزن. هل مثل لافونتين؟ لا. فهو شاعر أطفال ... وقررت أخيراً ألا أقلد أحداً، وأن أترك نفسي لإلهامي الخاص، وأن أؤلف كتاباً من خمسين صفحة على الأقل، عنوانه: «كتاب الطبيعة».

وأثناء حصة اللاتينية، وبينما راحت الكتيبة الرابعة من الفيلق الخامس تتعثر في الأحراش، بدأت تأليف عملي الشعري الأول. وقد أسميته قبل أن أكتبه «قتامة» لأن هذه الكلمة كانت تعجبني، لإيقاعها، لكن إلهامي لم يطاوعني على المضي وراء هذا العنوان ؛ وكتبت، كما لو كنت أكتب رغماً عني،

أنشودة الجدجد (وهذا هو الوحي). في الساعة العاشرة عندما راح قيصر يستجوب إيوريبدوريكس انتهيت من المقطع الأول.

وخلال المذاكرة من الساعة العاشرة حتى الظهر، أتيت على نهاية المقطع الثاني، وبعد تفكير طويل، مصحوب بالإيماء والغمغمة التي أثرت كثيراً في لانيو وأدهشته –كتبت الثالث في دفعة واحدة.

وأخيراً، وفي فسحة الساعة الرابعة، وبعد أن ناجيت نفسي طويلاً ، رضيت بأن أذيع لأول مرة عملي على الملأ، أي أنني ذهبت وجلست على دكة تحت السقيفة بين لانيو ونيلب، وقرأت –بصوت خفيض– أنشودة الجدجد.

ولولا عمتي العجوز ماري، لكانت هذه القصيدة ضاعت تماماً. فقد قضت حياتها تجمع الكروت التي تصلها: («نهدي لك التحية من سانت مالو» ، «للذكرى الحسنة من طولون»)، وكذلك إيصالات الغاز، وإنذارات الجباة، والرسائل، أي باختصار كومة من الأوراق القديمة كانت تسميها «وثائقها» وبين هذه الوثائق عثرت، بالصدفة على مقطعين من هذه القصيدة، أوردهما للقارئ:

إنني جدجد صغير.

أسود، مسالم، ووحيد ...

بخاصرة شق محراث، أصفر اللون

بعيداً عن مناقير الطيور الصغيرة

أعيش في ثقب تحت الأرض ......

في المساء أخرج لأغني

تحت ضوء القمر صديقي ...

وأحدث النجم الفضي

عن رونق ليالي الصيف

بالريف النائم.

عند هذا الحد، للأسف، تمزقت الصفحة، واختفى المقطع الرابع -المفضل عندي-، ولكني مازلت أعرف مضمونه:

فأنثى الجدجد ، الغيورة من «النجم الذي يشع» جاءت نحوه، مختفية في العشب ؛ لكن المنشد الصغير قال حين رآها:

ورحت أغني بصوت مختلف

فجأة من أجل أنثاي.

وقد ضاعت الأبيات الثلاثة الأولى من ذلك المقطع الأخير للأبد ...

ولكن ماذا في ذلك! لقد فقدنا نصف الملحمة الشعرية لأرسطو. ومن ثلاثين مسرحية لميناندار لم تتبق لنا إلا عشرة أبيات، ففكرة أن يكون الزمن، القادر على إهلاك كل شيء، احترم على الأقل مقاطعي الأولى وأبقى عليها، تعد شيئاً لصالحها.

في نهاية قراءتي، غمرت لانيو الدهشة، وأعلن في نفس واحد: إنها رائعة! «إنها رائعة! سأقرؤها لأمي! إنها رائعة! ». وكانت دهشة نيلب أكبر، فقد ذهب إلى حد عدم تصديق أني كاتبها، وأغرق في الضحك، وقال ببساطة:

- من أين نسخت هذه القصيدة؟

وأجبته بحمية:

- لقد نسختها من رأسي!

– غير معقول، قال نيلب.

– ماذا؟ صاح لانيو باستنكار، لقد رأيته يكتبها!

– أنت رأيته يكتبها، قال نيلب، لكن ذلك لايعني شيئاً. وأن أقول أنه قرأها في كتاب، وأنه حفظها عن ظهر قلب، وبعد ذلك، لم يكن من الصعب عليه أن يتظاهر بأنه ألفها.

وأطرتني كثيراً هذه الفرضية المشينة.

– ياصغيري، قلت له، إنك تسعدني بهذا! نعم، تسعدني! فإذا كنت تعتقد أنني نسخت عن هوجو أوعن فرانسو كوبيه، أو حتى عن فرانسوا فابييه، فإن هذا معناه، أن هذه القصيدة رائعة! ولكي أثبت لك أنني أنا الذي ألفتها، فسوف أشرح لك كل كلمة فيها !

ثم وبزهو عبثي، ولكن باقتناع أكيد، قمت بشرح النص لهما، بحسب منهج زيزي، أي أنني قمت بشرح تفصيلي لجماليات عملي، وإليكم ما قلته!

– «إنني جدجد صغير».

وكان هذا البيت الأول بسيطاً ومباشراً، فهذا الجدجد يتكلم، الأمر الذي يبدو مدهشاً. لكن لافونتين أنطق الزرزور، وجعل النملة تجيب عليه. وهو ما يسميه البعض بالتجاوزات الشعرية. من ناحية أخرى فإن كلمة «جدجد» كلمة موحية. وعندما ينطق بها أحد، يمكن أن نتخيل (الحصن الجديد)، في أمسية ما، من أماسي الإجازة، وأشعة الشمس الأخيرة تعلو أشجار الزيتون. بل حتى يمكننا أن نشم رائحة الجديان.

– «أسود، مسالم ووحيد»

وهذا وصف في ثلاث كلمات، لملامح الشخصية

- «في خاصرة شق محراث أصفر اللون»

وبديهي أن شق المحراث ليس له «خاصرة»، بما أن هذه الكلمة لاتنطبق إلا على مخلوق حي. لكن ذلك ما يسميه البعض الاستعارة. والشعراء كثيراً ما يلجأون للاستعارات، وشق المحراث، كلمة شاعرية، وهي كلمة موحية.

فأنا عندما أقرأ كلمة «شق المحراث»، أتخيل صديقي (فراتسوا)، الذي يغرس حد المحراث اللامع الذي يقلب رائحة الأرض، وهذا يجعلني أنفعل انفعالاً شعرياً ثم أستمع لغناء شحارير الباس - توم. وهذا هو الشعر.

- «بعيداً عن مناقير الطيور الصغيرة»

وهذا، موقف درامي، لأن الطيور الصغيرة تتربص بالجدجد لتأكله.

- الطائر الصغير، قال نيلب، ليس طائراً صغيراً كما يفهم من ذلك، وإنما هو طائر شديد الصغر مازال بعد في عشه.

- إنه في النثر مثلما تقول، ولكن في الشعر، قصدت بهذا القول أنه طائر ليس ضخماً، مثل العصفور أو الشرشور. وهذا يدعى، المجاز، بما أن كل شيء يجب أن يقال. فحتى فيكتور هوجو نفسه استعان بالمجاز الشعري. وكذلك أنا أيضاً.

- إنها مقنعة! قال لانيو، أكثر من هذه المداخلة غير المقنعة.

وتابعت الشرح:

- «ولكن، لكي أهرب من فرخ الطير هذا.

فأنا أسكن في ثقب تحت الأرض».

وهنا، نرى مباشرة الثقب الصغير المستدير، وقرن الاستشعار الدقيق الأسود وهو يطل منه، مباشرة عند جذر باقة من الهندباء، أو ربما الخشخاش.

وعرضت بنفس المزاعم، المقطعين التاليين، وخلصت إلى القول، مدعياً الحق: لاحظوا أنها قصيدتي الأولى، ولست أعرف حتى ما إذا كنت سأنشرها!

عندئذ قال لانيو في وقار:

— إن ما هو رائع حقاً، هو أنها مقفاة بالكامل! وهو ما أراهن يا عزيزي، أن سقراط نفسه ليس بمقدوره فعله!

— هذا ليس مؤكداً، قلت في تواضع. فأنا لا أجرؤ بعد على مقارنة نفسي به.

— أما أنا، قال نيلب، فأقول لك بجد، إنه إذا لم تكن نسخت هذه القصيدة، فأنا على يقين من أنك ستصبح عضواً بالأكاديمية الفرنسية.

وقد أثبتت لي الأيام أنه لم يخطئ، فالتواضع لايجيء -إذا جاء- إلا مع كبر السن، ومع ذلك، فأنا أفهم وأغفر هذا الزهو السخيف «لشاعر» في الثالثة عشرة من عمره لأنني عرفت منذ وقتها عدداً كبيراً جداً من السادة والسيدات الذين، بعد مضي زمن مراهقتهم بوقت طويل، يكتبون بتأثر عاطفي القصائد الغنائية، والأناشيد، وحتى القصائد الملحمية. وهم ينفعلون انفعالاً جاداً، وغنائيتهم عفوية، ولهم نفوس شاعرية جميلة. وعندما يقرأون علينا أعمالهم، لايستطيعون منع أنفسهم من البكاء، لأنهم يعيشون ثانية حالة الإلهام التي ألهمت وجدانهم. والتي اعتقدوا أنهم استطاعوا وضعها في الكلمات. فهذا الذي يتحدث عن فرانسواز، وتتضمن أسطر المقطعين والنصف التي كتبها حكاية الحب الأول في الشباب ، يقول «جرادة» ويستمع إلى الموسيقى الخفيفة البعيدة المنبعثة من أول مساء للإجازة؛ وهو ينطق «بحمية» صلاة المساء ، ويرى الكنيسة الصغيرة الريفية، غير المضاءة جيداً، ذات مساء شتوي، حيث ركع أمام أمه العزيزة. لكن السامع لايعرف مفاتيح هذه الكلمات، وغالباً ما يكون لهذه الكلمات عنده معان أخرى. فلعله لم يذهب أبداً لصلاة المساء؛ وتذكره كلمة

جرادة بهذا الزنجي الضخم الذي قلاها في المقلاة، والذي ألح عليه في أن يقرقش واحدة على الأقل، وبأن فرانسواز هو بالتحديد اسم طباخة حولاء، كانت تتباهى بأنها تبصق كل يوم في الحساء حتى فصلت في نهاية المطاف.

وهو ما يجعل المستمع المندهش لا يسمع إلا طنيناً مضجراً للكلمات، ويبدو له أن انفعال الذي يلقي الشعر أمامه أمر غامض على نحو يثير الرثاء.

وانشغلت طيلة عام الصف الرابع هذا بكتاباتي الشعرية. فقد كتبت ثلاثين قصيدة في تخليد الطبيعة الأم. على ألسنة الزرزور، والنبع، والريح، والعندليب، والراعي، والبذور، والحصاد. وكنت أذهب يوم الخميس إلى بيت لانيو، وأطبعها على آلة النسخ، بتعاون وحماس خالته، التي اعتبرتني عبقرياً يولد. فكانت ترسل نسخاً من أعمالي إلى الجرائد، والمجلات، مصحوبة برسائل على طريقتها. ولأن أحداً لم يرد عليها، استنتجت أن هؤلاء الناس قد قرروا القيام «بمؤامرة صمت»، لكي يخنقوا المواهب الشابة، وكتبت لهم صفحات وصفحات تتهكم فيها عليهم، ويحدث لي الآن أن تصلني رسائل من مجنونات من هذا النوع، تجعلني أفكر بحنين في خالة لانيو، التي كانت تعاني من اضطراب في الهرمونات، نتجت عنه في رأسها أفكار غريبة شاذة «لم يعرف بها المنطق».

في سنوات مراهقتي البعيدة وعلى دكك مدرسة مرسيليا الثانوية القديمة، كتبت الأشعار. وقد بدأ كل الكتاب تقريباً بهذه الطريقة.

ونحن لا نفهم جمال النثر، قبل أن نبلغ سن الخامسة عشرة، فلا نشعر جيداً بعبقرية أسلوب مونتاني أو شاتوبريان. وما يعجبني في الشعر، هو التمكن، وكنت أعتقد بسذاجة أن كتاب النثر خضعوا لكتابة النثر لأنهم لم تكن لديهم القدرة على كتابة القوافي. ولأنني تمكنت بسهولة منها، تصورت نفسي أقوى بكثير من بوسويه وبلزاك.

ولقد أعجب زملائي بموهبتي، وشجعني أساتذتي، لأنهم تصوروا أن هذا

الهوس كان تدريباً رائعاً لي في اللغة الفرنسية.

وقد كتبت على هذا النحو عدداً كبيراً من القصائد الصغيرة، وقصائد الحب لزملائي المحبين، الذين كانوا يكافئون عبقريتي بالكراملة الطرية من ماركة الكلب القافز، وأحياناً بالسجائر.

وعندما انتقلت للصف الثاني، قررت أن أتخلى عن كتابة الغزليات والمراثي لكي أبدأ عملاً ما، من نوع (مأثرة العصور)، أو (الإلياذة). باللغة الحديثة بالطبع. وكان البطل العظيم للقرن العشرين بلا نقاش هو نابليون. لذا فقد وقع خياري عليه. وبعد أن قرأت دروسي في التاريخ بحثت عن استهلال فخيم كاستهلال الإلياذة، "Arma Virunqu cano" (سلاح الشعر المؤدى)، ولكني فهمت سريعاً أنني ليس لدي النفس الملحمي، وعدلت عن كتابة ملحمة الامبراطور. واعترفت بإحباطي لألبير كوهين فقال:

– كنت أعرف أنك ستعدل عنها.

– لماذا؟

ولأن صداقتنا كانت أقوى من تواضعنا، أجابني:

– إنك شاعر مراث كبير، من نوع راسين أو ألفريد دي موسيه. وما تستطيع فعله أنت، هو كتابة مأساة من نوع بيرينيس، تمثل قصة حب جميلة.

وأعجبتني فكرة أن أكون شاعر رثاء من الطراز الراسيني لأنه مادام كوهين قال ذلك، فهو ليس بالنسبة لي أمراً قابلاً للتشكيك فاستعرت من مكتبة المدرسة ديواناً في المراثي اللاتينية، جمعه السيد أرنو أستاذ الصف الأول بالمدرسة. وتعرفت من خلاله على بروبرك، وتيبول، وأوفيد، وكاتول.

كنت أجيد إلى حد كبير اللاتينية، لأنني كنت أتحدث اللهجة الريفية مع جدي وأصدقائي من قرية الكرمة، بالقرب من أوبان. وهذه اللهجة قريبة من

اللاتينية أكثر من قربها من الفرنسية. وبديهي، أن الكلمات قد غيرت من هيئتها عبر القرون.

لكن بتلك الحقبة، التي لم تكن مع ذلك بعيدة، كان أهل الجنوب يتحدثون مازالوا اللغة الرومانية، لغة إقليم الأوك. وكان الريف ما يزال مستعمرة رومانية، وأرض مهجر لزرّاع التوابل، واللمبارديين، والنابوليين، وكان بالمدارس العامة في ذلك الوقت عدد كبير من الغلمان الذين كانوا أول من تعلموا القراءة في عائلاتهم، وأول من تكلموا الفرنسية.

وكان تلاميذ أبي يدعون: رو ، ودوريك، ولوران. لكن كان الكثيرون منهم يدعون: لومباردو، وبينوشيه، ورينبيري، وكونسوليني، أو سوكوداتي.

ذات مرة، لم يحضر إلى المدرسة لمدة أسبوعين، غلام وسيم كان يدعى فيوري أوكاشيابوا، وكان أبوه رخّاماً. وعندما عاد، سأله أبي عن سبب غيابه. فأجاب بأن والده قد اصطحبه إلى إيطاليا، لكي يزور جدته، التي كانت عجوزاً جداً، والتي لم يكن قد تعرف عليها.

– أنا أصدقك، قال أبي ؛ لكن لابد أن تأتي لي بورقة من والدك تؤكد ما قلته. وهذه هي القاعدة.

وبعد ظهر ذلك اليوم، عاد لأبي بورقة كراس مطوية أربع طيات. فتحها أبي وقرأ هذه الرسالة، وهو مذهول. في منتصف الورقة، لم يكن مكتوباً سوى كلمةواحدة، مكتوبة بأحرف كبيرة: napator

– ما معنى هذا؟ قال أبي.

– معناه، قال كاشيابوا وهو محمر من الخجل، أنني قلت الحقيقة، وأنني لم أخطئ.

– هذا كاف تماماً، قال أبي، بغير أن يبدي أي دهشة. ووضع الورقة في

جيبه. لكنه على طاولة الطعام، قص الحكاية على أمي، وأراها هذه الكلمة الغريبة، «إنها جديرة، قال، بأن تنقش بالهيروغليفية على تابوت فرعون ...

وتوجب عليها أن تشرح لي معنى هذه العبارة الغامضة، بما أنني كنت أهوى الكلمات ...

وقد أضحكني جهل الرخّام، فعندما تكون معرفتنا قليلة، نكون شرسين ضد من معرفتهم أقل منا ... وحكيت الحكاية همساً لفلورنتان، الذي حكاها لدوبوفيه الذي حكاها لدافين، وأطلقنا على كاشيابوا اسم نابانور، الأمر الذي أضحكه هو نفسه؛ ولم يكن مجد أبيه ساطعاً في الهجاء، ولم ندرك أن مجده كان مزدهراً بأعمال الرخام التي كان ينقشها بدقة على شواهد القبور.

لقاء مع إيف

كل يوم، أثناء الفسحة القصيرة للساعة العاشرة، وفي حوش الخارجية الكبير، كنت أتمشى، حالماً، تحت أقواس الفناء، وأنا أؤلف ؛ متظاهراً بحالة الوحي. ولكني عندما كنت أرى، عبر الباب الموارب لدورة المياه، حزاماً معلقاً يشي بوجود أحد فيها، كنت ألم من تحت شجرة دلب ؛ حفنة من الحصى، ثم، أختفي وراء جذع، وأتيقن من أن أحداً لا يراقبني، وأقذف بحفنة الحصى من أعلى الباب الواطئ.

وكنت أرى في التو جذعاً يفر ثائراً، جذعاً حقيقياً لشخص بلا أذرع، كما لو أنه تمثال نصفي بمتحف، لأن ذراعي الضحية تكون في ذلك الوقت مشغولة بمحاولة ارتداء السروال. وكان الجذع يصيح ببعض الشتائم، التي تنتهي

بالتهديدات، ولكن بغير أن يراني، لأنني أكون حينئذ مختبئاً وراء الشجرة التي تحميني، مستمتعاً بالنتائج الصوتية الناجمة عما فعلت.

وفي الصمت الذي يحل ثانية، كنت أتيقن ثانية من أن أحداً لا يراقبني، عندما ينزل الجذع ثانية ليكمل مهمته التي قوطعت. وكنت أقذف، على سبيل اللهو، حفنتين أخريين من الحصى. وأنا أعلم أن المقرفص الهائج لن يعود للظهور فوراً، لأن الامبراطورة الطبيعة تكون ممسكة به، لكن صيحاته الراعدة تظل تدوي من وراء الباب. وكنت أقذف عندئذ الحفنة الأخيرة التي تخيرتها من زلط أكبر، مختلط بالتراب، ثم أهرب باتجاه الأقبية. وهناك، كنت أتصنع، وأنا أسير بخطوات بطيئة، أنني أواصل حالة الإلهام التي أنا فيها، وأنا أراقب ما سيجري من أحداث.

كان المرجوم يظهر أخيراً ؛ ومن الحركات المرتجة لأكتافه، يتضح أنه أدخل أذيال قميصه بنطلونه في عجلة شديدة، وهو يذرع بنظرة متوحشة أرجاء الفناء. وكان يمسك بحزامه، ويربطه أثناء خروجه، ثم ينقض على واحد من الأبرياء يكون مشغولاً بلعب البلي وحيداً، ولا يفهم في بادئ الأمر سبباً لتلك الركلة التي أصابته من وراء، فينقض بدوره لتوه مهاجماً المعتدي.

كانت تلك المعارك السخيفة تبهجني، إلى أن يأتي بيدق المراقبة، الذي يقتاد المتعاركين إلى مكتب السيد المراقب العام.

لكنني ذات يوم -وكان عليّ أن أحترس، لأن الحزام الذي تعلق بالباب كان شديد الطول- عند أول رشقة حجارة، رأيت رأساً شديدة الضخامة تظهر، تلاها كتفان ضخمان. كان طالباً من الكبار الذين لم يكن لهم أن يجيئوا إلى فنائنا، لكن الحاجة دفعته لذلك. ولم يتردد ذلك الشخص لحظة واحدة. فبغير أن ينطق بكلمة، شد بنطلونه بسرعة خاطفة، وفتح الباب، وأمسك بحزامه وهو يخرج، وقفز عليّ. وشدني من وراء الشجرة التي تمسكت بها، وجلدني بعنف

على قصبتي رجلي. وكان بيدق المراقبة بعيداً، واندفعت باتجاهه، وهو يجلدني في كل خطوة بحزام الجلد الثقيل ؛ واحترقت قصبتا رجلي، وسقطت على الأرض، حين سمعت شتيمة غاضبة، وانبطح «الكبير» فوق حصى الفناء وذقنه أمامه ؛ وكان غلام يكبرني بالكاد، قد طرح هذا الوحش وأوقعه أرضاً بحركة مصارعة جميلة بالقدم.

كان المدافع عني أسمر اللون، ذا وجنة شاحبة محفورة، وأكتاف عالية وعريضة وراح ينظر للمطروح أرضاً ببرود، لكن قبضتيه كانتا في مستوى أنفاسه. ونهض الآخر ؛ وكانت ذقنه قد احمرت من السقطة، وهو شديد الحنق.

— أيها الصغير الوسخ! قال بعنف. أيها الصغير الوسخ.

وأجاب الغلام الأسمر، بصوت متحفز:

— ماذا جئت تفعل هنا أيها الأبله!

وأصابت العملاق الدهشة من هذه الشتيمة، فاندفع باتجاهه، رافعاً ذراعه، ممسكاً بالحزام مطيحاً به وراء ظهره، في استعداد لأن يضرب به ضربة طائرة ؛ وللصدفة السعيدة النادرة، اصطدمت حلقته المعدنية الثقيلة، بطرفها، بأعلى رأسه، وطنّت طنة مكتومة. فتوقف مشلولاً، وأمسك برأسه بيديه الاثنتين، واستدار باتجاهي، وهو في قمة حنقه، مما سمح لحليفي لأن يركله ركلة بديعة في مؤخرته ؛ لكن تلك الضربة الناجحة، لم تؤثر إلا في التعجيل بهجومه عليّ.

وأمسكني من شعري، فأخفيت وجهي بين ذراعي المفرودين، حين سمعت دوي صوت جهوري :

— ما هذا الذي يجري ؟

وكان هذا السؤال، الذي لم تعقبه أية إجابة، صادراً عن بيدق المراقبة، الذي هرع يجري بساقيه الطويلتين. وأمسك بيده كتف الكبير، وقبض على كتفي

باليد الأخرى، واقتادنا بخطوة واسعة إلى مكتب المراقب العام، محاطين بجمع من الهواة، يجرون إلى جانبنا، وهم يشجعون بصوت عال فعل المتطفل.

وعندما وصلنا أمام باب المراقب العام، لحت الغلام الأسمر وراءنا. وبرغم خطورة الموقف، ظل محافظاً على رباطة جأشه بشكل يدعو للإعجاب .

واستدار بيدق المراقبة دفعة واحدة، وصاح عليه في وجهه!

– ماذا تفعل هنا هل تريد أن تعاقب أنت الآخر؟

فأجاب الغلام بلا تلعثم:

– أنا أيضاً، تعرضت للضرب، ولذا فقد رأيت كل شيء، وأنا شاهد. فالكبير هو الذي بدأ العدو.

– ليس صحيحاً! جأر الآخر ... لقد جئت إلى دورة مياه هذا الفناء، لأن دورة مياهنا مزدحمة، ثم ....

لكن صوتاً قاطعاً أوقفه عن المواصلة، وكان هذا الصوت صوت المراقب العام، الذي خرج من كهفه.

– وماذا جئت تفعل بدورة المياه هذه؟

وشرع الكبير في الإجابة على هذا السؤال، حين قال السيد المراقب العام له بخشونة:

– اخرس! إنك تكذب! لقد جئت هنا لتدخن! لست أنا الذي تضحك عليه! لقد كنت تدخن! اخرس! إنها المرة الثالثة التي نفاجئك فيها تدخن! أربع ساعات احتجاز! اخرس!

وقص البيدق باختصار، قصة المعركة التي لم يرها إلا من على البعد. وقلت أنا إن الكبير المتوحش قد هاجمني من الخلف بضربة حزام، وإنه لولا

التدخل الشجاع للغلام الأسمر، لكنت بلاشك نقلت إلى المستشفى. وكنت أتحدث بنفاق واضح، وبصوت طفولي متقطع، وحاولت جهدي أن أبدي فزعي.

— يضاف لهذا، أرعد المراقب العام، أنك جرؤت على إرهاب طفل! ثمانية ساعات احتجاز! وإذا رأيتك مرة أخرى في هذا الفناء، فسوف تطرد من المدرسة، اخرس. وراح الكبير، الذي عدل منذ أن سكت عن الكلام، يدعك رأسه وقد أطلت من بين كتفيه رقبته الطويلة وراح يحرك رأسه يميناً ويساراً، وقد بدت الحيرة في عينيه، والبلادة على مظهره.

— اذهب! قال المراقب العام.

ودار الكبير على عقبيه، ثم، ذهب إلى مصيره، مسدلاً كتفيه ومحنياً رأسه.

— وماذا عن هذين الاثنين؟ سأل البيدق.

— هذان الاثنان، قال المراقب العام، لايوحي لي مظهرهما بالبراءة ... وأفكر في أن أعاقبهما بساعة احتجاز لكي يتهذبا ...

وتظاهر بالتفكير لحظة، بينما رحنا نحن ننظر الي أحذيتنا، وأيدينا خلف ظهرينا، وكرر:

— نعم إني أفكر في ذلك! فما قولك أنت ياسيد بوانسو .

— لقد كان هذا الغلام أقوى منهما بكثير، قال السيد بوانسو في شهادته .

— إذن قال المراقب العام لنحتفظ لهما بهذه العقوبة للغلطة القادمة، هيا، انصرفا! وانصرفنا.

ولكي نتحدث على راحتنا، اقتدت حليفي حتى آخر الفناء. ورحت أرقبه، أثناء سيرنا، كان نحيلاً بعض الشيء، بلاشك لأنه كان ينمو بسرعة. كانت ساقاه طويلتين وكذا ذراعاه، وكانت مفاصلها مرنة، بحيث تبدو كما لو أنه غير

قادر على التحكم فيها كما يجب ... وكانت له بضع شعرات طويلة على ربلتي ساقيه، وظل شارب، تحت أنف مقوسة تقوساً خفيفاً، وكانت عيناه السوداوان ثاقبتين ملتمعتين، كانت فيه وسامة ورجولة جعلتني أشعر نحوه بالصداقة دفعة واحدة.

وجلسنا في ركن. مختبئين بعض الشيء وراء. عمود من الأعمدة، وأمامنا جذع شجرة دلب. وسألته:

- ما إسمك؟

- إيف بونيه.

- هل أنت طالب خارجي؟

- نعم.

وكان ذلك واضحاً، فقد كان يرتدي حذاء جميلاً أبيض، وربطة عنق حريرية زرقاء.

- بأي صف أنت؟

- بالصف الخامس أ٢.

- أنا، قلت مزهواً، بالصف الرابع أ١ .

- لكن يبدو عليك أنك أكبر من سنك.

- هذا لأن أبي طويل جداً، ويزن مائة كيلو جرام.

ولم أحدثه مباشرة عن أبي، فقد وجدتني مهزوماً مقدماً في مباراة وزن الآباء. وتابع هو الحديث:

- إنه رئيس الميكانيكيين على الباخرة (أتوس)، ويسافر في خط مرسيليا

يوكوهاما، أي يسافر لليابان. وهو مايجعله في معظم الأوقات غير متواجد بالبيت.

– وهل تعيش وحدك مع أمك؟

– مع أمي، وأخوي الاثنين. وهما أصغر مني ... ولأن أبي لا يأتي إلا كل ثلاثة شهور فهو ليس لديه الوقت لكي يزجرنا، وهو يغمرنا دائماً بالهدايا.

كان يأتي لهم بالعصي التي يؤكل بها الأرز، وبالأقفاص الصغيرة المصنوعة من الخشب الصلد التي بها تمثال قرد دقيق الحجم، منحوت هو أيضاً وراء قضبان القفص وبـ «عرائس البحر» المحشوة بالقش ، والتي لا تزيد في الحجم عن سمكة هلوق البحر. وكان يأتي لزوجته، بالشيلان والإيشاربات، والسجاجيد الحريرية المزخرفة بالتنانين التي تطلق النار من أفواهها.

وقد بدت لي هذه الطريقة في الحياة رومانسية ؛ ورحت أنظر له بإعجاب، أي بتطلع، ورحت أفتش عن الكيفية التي أبدو بها في نظره مهماً.

– أما أنا، قلت، فإن أبي يعمل مدير مدرسة، هي أكبر مدارس مرسيليا.

وكان هذا كذباً؛ لكن جوزيف كان قد قال لنا ذات يوم أثناء الطعام إنه يفكر في أن يحصل سريعاً على منصب مدير. لذا فقد كان من المشروع تحقيق هذا الأمل بتمجيده، خاصة أمام غلام يمتلك عرائس بحر محشوة، ويسير بقدمين حافيتين على التنانين.

وأحدث قولي أثراً كبيراً ؛ ولكن لأنني لم أحب أبداً أكاذيبي الخاصة، لم أسهب في الحديث في هذا الأمر، وعدت بلباقة للحقيقة، قائلاً :

– إنه فوق كل هذا صياد جيد.

ورحت أحكي عن صنائعه، وسردت مرة أخرى قصة صيده للدراجين

الملكيين بتصويبة واحدة.

هذه الملحمة - بدون إدراكي - اغتنت على نحو كبير، بعد أن تمت حكايتها ثلاثين مرة، فقد تضاعفت أحجام الدراج الملكي بها، وتغيرت مسافة التصويب بما جعل أبي يطلق عليها من على بعد مائة متر وأكثر، كما تمت المبالغة في مشهد سقوطهما فوق رأسي، بإضافة أنهما أغرقاني في بحر من الدماء. وأضفت أن هذا الفعل كان عملاً فريداً من نوعه في العالم كله، بما أنه لا يوجد في تاريخ الإنسان المسجل، أي صياد تمكن من تحقيق «ضربة ملك» مشابهة. وابتسم إيف لذلك ابتسامة صغيرة، وقال بأدب:

- في هذا، أتصور أنك تخطئ، فقد أروني، منذ سنتين أو ثلاث، أثناء الإجازة صياداً فعل نفس الشيء.

وقطع هذه العدوان على مجد أبي أنفاسي.

- غير ممكن. أقول لك، إن هذا غير ممكن .

- ومع ذلك، فقد حدث. ولقد رأيت نفس هذا الرجل. وكان شخصاً من المدينة، يقضي إجازته في كوخ بالبراري، بعيداً عن قرية الكرمة، بل إن القسيس بنفسه قام بتصويره.

وانتابتني حالة من الزهو الهائل، وشببت على أطراف قدمي، وصحت:

- حسناً، إنه هو! إنه أبي ذلك الذي رأيته، وهذه الصورة معلقة ببيتنا! وفي كل عام نذهب لقضاء الإجازة في البراري، بالحصن الجديد!

- هذا، قال في تعظيم شديد، شيء رائع ... لأننا، نحن أيضاً، لدينا بيت في الكرمة!

- بالقرية نفسها؟

– لا! بعيداً عنها قليلا! إلى اليسار، تحت طريق البراري، بيت كبير أبيض، بمنتصف المنحدر الهابط باتجاه روبو ....وهو يدعى العندليب.

ولم نعرف بعد ماذا نقول، لأن هذا الاكتشاف بدا هو الحدث الأكثر إعجازاً في حياتنا ؛ ولم يكن هذا مصادفة وإنما موقفاً قدرياً، فإيف كان يعرف تلالي! وكان يركب كل يوم سبت بترام البارامس الجيد! فلم لَم أره أبداً عن قرب؟ ولماذا لم يسمح لنا القدر باللقاء، حتى حدوث هذه المَعركة العجيبة؟

وراح يشرح لي، حين رأيت الحذاء الضخم الأسود يتقدم نحونا وفوقه كان بيدق المراقبة يجدف بيديه ؛ وهاجمنا على غرة، بصوت بعوي، فقد كان الفتاء قد فرغ بالفعل، ولم نكن قد سمعنا قرع الطبل.

ومضينا مسرعين، كل منا إلى فصله، ووراءنا صيحات التهديد المجنحة، التي كانت تتوعدنا «لو تكرر ذلك». وكان أستاذ اللاتينية بفصلنا، الذي ندعوه زيزي، له شارب غزير جداً، ولحية صغيرة بيضاء مذببة. وكان في نظرنا قاسياً، لأنه كان من الصعب خداعه. ولم يكن لوصولي متأخراً أثر طيب في نفسه، ومع ذلك، لم يقل زيزي لي شيئاً، ولم أكن بحاجة لاختراع سبب.

وكانت شروح اللاتينية قد بدأت؟ وفتحت في عجلة كتاب «قيصر»، ووضعت رأسي بين قبضتيّ، ورفعت حاجبيّ، وأنا أتصنع التأثر بالدرس، وبينما راح الغاليّون يحاولون بلا جدوى محاصرة الفيلق الحادي عشر، رحت أفكر في معركتي، وفي المعجزة التي أتت لي بصديقي الجديد ؛ وأخذت أفتش عبثاً عن مفتاح لهذا اللغز الكبير: ماذا أعاقني عن الالتقاء به قبلاً؟ ولماذا؟

وعند هذه السلسلة من التساؤلات، أضاف زيزي فجأة سؤالاً ؛ وهو يشير إليّ بسبابته، قائلاً:

– لماذا يكون أوبيدو في المفعول المطلق؟

ووقفت، عاقداً ذراعي، وأجبت بوضوح:

– لأنه لا يركب نفس الترام ...

وعبر شحوب وجه زيزي عن دهشة استنكار، في الوقت الذي اندفع فيه الدم إلى وجهي، وهزت فيه الفصل قهقهة هائلة. وخبط زيزي على مكتبه بمسطرة ثلاث مرات، ثم، راحت نظرته تجوب الفصل كشعاع المنارة. فاجتزّت الضحكات كلها. وفي الصمت الذي حل، قال :

– يا سيد، أنا أتسامح مع الغباء، حين لايكون وقحاً. وإجابتك ليست إلا عملاً من أعمال التهريج. لذا فسوف تترجم لي من أجل يوم الاثنين الفقرة السابقة من شروحات قيصر.

بعد ذلك ولتصوره بأنني نلت جزائي، تركني لأحلام يقظتي، وراح يوجه سهامه نحو بيكون، ثم نحو ألبير كوهين ؛ فقد ضحكا بصوت عال، لكنه اختصهما واحداً بعد الآخر بسؤال في الفعل المنصوب.

أثناء ذلك، رحت أفكر في إيف، وفي الحصن الجديد، والبيت المسمى بالعندليب، وامتلأ رأسي بالزرازير. ورحت أتساءل: متى يمكننا أن نتبادل حكاياتنا؟ كان إيف، لسوء الحظ، طالباً خارجياً، لذا فقد كان يغادر المدرسة في الساعة الرابعة! ولم يكن بمقدوري أن أراه إلا في اليوم التالي، وهو ما بدا لي أمراً غير مقبول. لذا قررت أن أقفز خارج الفصل عند ابتداء قرع الطبل، وأن أجري نحو فصله، لكي أقابله خارجاً، وسيكون لدينا بهذا الشكل بضع دقائق نتبادل فيها أهم أسرارنا.

لم يكن المحاربون المرحون الغاليون، الذين يضعون على جنوبهم سيوف الفضة والذين تراجعوا عند أول اصطدام، قد انتهوا في غضون تلك الساعة من الدرس لكن عصرهم بأكمله قد ولّى، عند دوي قرع الطبل تحت قبة الفناء.

ومع أول نقرة للطبل، قفزت كالضفدع، واضعا يدي على مقبض الباب، حين ارتفع صوت زيزي:

— من هذا الأرعن؟ أهو أنت ثانية؟ تعال هنا! ماهذا الجنون، ياسيد؟ أهذا هو كل ماتعلمته من دراستك؟ هيا، قف، إلى جوار السبورة! ولن تخرج من الفصل إلا آخر واحد!

وعندما وقفت لأكون عبرة، استدار هو للفصل، قائلاً:

— هيا اخرجوا!

وكان ذلك أمراً لايمكن إصلاحه، وتمنيت، من كل قلبي لو أن هذا الجلاد القاسي القلب سقط ميتاً عند قدمي وهي أمنية عبثية. فلن أرى إيف قبل حلول الغد ...

وعندما خرج الجميع، مشى زيزي المتوحش هو الآخر باتجاه الباب بخطوات بطيئة، ثم توقف حوالي نصف دقيقة. والتفت أخيرا إليّ، وقال: هيا اذهب، بينما كان هو يخرج. وانطلقت، وكان نهر التلاميذ يهدر متجهاً إلى الفناء، وكان من الصعب عليَّ أن أعبرهم بغير أن أدفع البعض منهم، وهو ماجعلني أتعرض لكمية من الشتائم، ولركلة قدم في مؤخرتي، لحسن الحظ لم تكن قوية بسبب سرعتي في الجري ... ولكنني عندما وصلت أمام الفصل الخامس أ٢، لم أجده مسكوناً إلا بصورة دمية كبيرة مرسومة بالطباشير تملأ السبورة السوداء، وكانت تمثل بالطبع السيِّد المراقب العام، لأنها كانت تضع قبعة منفوخة، ولحية، وأذني حمار.

كان إيف قد رحل إذن، بسبب هذا الكريه زيزي، الذي لا يعرف بالتأكيد حجم الكارثة التي تسبب فيها لي.

ونزلت ثانية باتجاه باب الخروج، بخطوة حثيثة، لأبحث ثانية في كل

الاتجاهات. ولكن بغير أمل كبير، لأن التلاميذ الذين كانوا يخرجون أمامي، حاملين حقائبهم الثقيلة مدلاة في أيديهم، كانوا كائنات من عالم آخر، أي تلاميذ من الصف الثاني، أو الأول.

عندئذ، مضيت بلا اكتراث إلى آخر الفناء، حيث كان الطابور المزدوج للممنوحين بانتظار أوامر بيدق آخر لكي يتجهوا إلى قاعات المذاكرة،حصص الداخلية. وكان هذا البيدق من النحافة بحيث أنني كنت أتخيل أن سرته ملتصقة كعنكبوت على الجانب الأمامي من عموده الفقري. كانت له رموش طويلة صهباء حول عينيه الزرقاء، وكنا ندعوه الأزرق.

ورحت أتخذ مكاناً في آخر الطابور، وأنا أفتش مازلت بعيني في كل الأرجاء، كان لدي أمل في أن يكون إيف هو الآخر يبحث عني، أو، على الأقل ينتظرني لبضع لحظات. لكنني لم أجده ، ولابد أنه رحل مسرعاً مع الآخرين، وكاد إحباطي يتحول إلى حزن شديد ...

فجأة، وجدت يداً تشدني من سترتي. فالتفت، وكان هو الذي يشدني، وانفجر ضاحكاً من فرط السرور.

– هل تنتظرني؟

– نعم، وسأظل معك ...

– لكن هذا ممنوع، لأنك طالب خارجي!

– لايهمني، قال. وإذا لاحظوني، سأقول إنني عدت لكي أطلب كتاب اللاتينية الخاص بي من شوسون الذي هو طالب ممنوح معنا. فقد أعرته له بالأمس، وهو في غرفة العيادة. كما أن الواحد عندما يفعل مايحبه، فلا يهم أن يعرض نفسه لبعض الأخطار.

في تلك اللحظة، سعل الأزرق، وقال في صوت مختنق:

- ضموا الصفوف!

ولأنه راح يركز بصره علينا، أخفى إيف أنفه في منديله وأحنى رأسه، لكي يخفي وجهه المعروف كوجه طالب خارجي.

ولم تكن به حاجة لهذه الاحتياطات المقنّعة، فالأمر لا يستدعي ذلك، إذا لم يكن في صفوفنا حيوان من نوع الأيل، أو عقيد في سترته الرسمية حتى يلاحظه الأزرق. فقد كان يعد -منذ عدة سنوات- لدرجة الليسانس في الرياضيات، ولم تكن عيناه تلاحظان أي شيء خارج رأسه، وكان كل تركيز فكره على معادلات الأرقام المتجمهرة في عقله الضيق.

وبصوت مخنوق، قال:

- اذهبوا!

وذهبنا.

في آخر فناء فسحة الداخلية، كانت توجد سقيفة كبيرة معدّة من أجل أيام المطر، وراء الأقواس الرومانية العالية. كان الضوء تحت هذه السقيفة أقل تصوعاً منه في الفناء. وكانت هناك دكة ملتصقة بالحائط البعيد للسقيفة فرحنا نجلس عليها. هذه الفسحة التي استمرت ساعة، بدت قصيرة.

وأعلمني إيف أولاً أن جدته لأمه تعيش طيلة الوقت بقرية الكرمة، وأنها تمتلك عربة جميلة جداً - من خشب الأكايو اللامع- يجرها بسرعة عجيبة «نغل» نشيط. وعندما طلبت منه بعض الإيضاحات حول نوع هذا الحيوان الغريب أجابني بأنه يشبه في الظاهر حصاناً صغيراً، ولكنه من وجهة النظر العلمية يعد التركيب المعاكس للبغل، وأنه لا يعرف أكثر من ذلك.

كل يوم سبت في الساعة الرابعة، كانت أسرته تركب الترام، ليس الترام الذاهب إلى البارامي، وإنما الذاهب إلى سان مارسيل ؛ وهناك، كان النغل

الغامض، الذي يقوده فلاح، يأتي لانتظارهم، لكي يأخذهم، بسرعة، إلى القرية، ومنها يذهبون سيراً على الأقدام إلى العنادليب، عبر ممر يحفه الزعرور، وزهور القويسة، ونبات السُّذاب، وإكليل الجبل ...

وهكذا انكشف الغموض، وصحَّت إجابتي -التي وجدها زيزي سخيفة-. وعلمت منه بعد ذلك أنه يعرف تلالي معرفة غير عميقة، فهو لم يصعدها إلا مرة واحدة حتى التاومي ؛ وأن كشوفه الخاصة كانت تقوده في العادة لناحية كهف المصابين بالطاعون، وإلى (رأس بوجناو) ، بناحية الألاوويش.

عندئذ، قدمت وصفاً رومانتيكياً للأحراش الحقيقية، التي كنت أعرفها، وراح يتأملني، فاغراً فاه، بشغف وقلق، وهو ماحدث لبشر العصور الوسطى عندما راحوا يستمعون إلى حكايات ماركو بولو. وقد كدت أطفح بالسعادة وأنا أحكي له عن الشعاب البعيدة للباس -توم، وعن نعومة نسائم المساء في الصمت الجاف لصخور البريكاتوري، وعن الخضرة التي تعبق بالروائح فوق أشجار صندل الجاريت، وعن رقص الهواء على الأحجار الزرقاء وعن الأصوات الزاجرة للأصداء، وعن الصقر الوحيد، الساكن أعالي السموات مطلاً على مملكته الشاسعة.

ونظرت إليه، كان مستيقظاً مازال في حالة من التوحد، والسكينة.

السيد سيلفان

في ذلك اليوم، مشيت مع إيف على طريق الحصى الموصل إلى نهاية وادي الباس -توم. وذهبنا إلى بريكاتوري، وهو خور بلا أشجار، لكن أشواك الرند

والعرعر كانت تطول به حتى تصل إلى مترين.

ووضعنا هناك الفخ الرباعي المحجوز المنطّى، على أمل الحصول على بعض الأرانب، لابهدف الصيد الخالف. وإنما بناء على طلب الطباخين، الذين أرسلونا للصيد من أجل إعداد اليخنة.

وحتى بالظل، في داخل الوادي، كان الجو حاراً الحرارة المحرقة، لفصول الصيف في الأزمنة الماضية. وكان صمغ الصنوبر يسيل كالعسل من الشقوق الحمراء بلحاء الشجر الأسود، وكانت الزرازير تنشد بصوت عال جداً، بسبب جفاف أحبالها الصوتية. وكان يوجد منها المئات، جعلتها أصداء الحرف تبدو وكأنها الآلاف. ورحنا نسير بخطى المتنزهين، نجر نعالنا على الحصى، وكنا نتوقف كل عشرة أمتار، من أجل الإسهاب في الحديث.

وكان إيف يحدثني بالإنجليزية، وأرد عليه باللاتينية .

– بماذا يسمّون الجدجد في الإنجليزية؟

How do they call a "Cigale'in english"? -

Eheu! cicadae autem Britannis ignotae sum, Cum,-

fabulam La Fontis traducunt, Cicada 'gras hopper" vocatur,

للأسف! فالبريطانيون يجهلون وجوده! فالمرجع يترجم، الجدجد «بالجرادة»، تفضل،

– لكن ذلك بلامع This is nonsens!

Optime! Ouia "grashoppers"locustae sunt

– عظيم ! لكن الـ "grashoppers" هو الجرادة.

كنا مزهوين بتبادل الحديث بإنجليزية غير ناضجة، ولاتينية خليط –ولكن عليّ أن أقول إنه بفضل هذا التحذلق، الذي تطلب منا نوعاً من انتباه العقل،

أحرزنا تقدماً كبيراً في هاتين اللغتين ؛ لأن كلانا كان يسعى لكي يحصل على إعجاب الآخر، فأهم دافع للتقدم بالنسبة للشباب، هو المباهاة.

وحين رحت أبحث عن عبارة لاتينية تعادل عبارة «لايهمني»، توقفت خطواتنا وتفكيرنا بسبب تعالي الصوت النحاسي لبوق آت من عمق الوادي، كانت أصداؤه تتردد في ثلاثة ترجيعات وهبط شحروران كانا في حالة من الحب بلاشك، في ياسمين البر، تحت شجرة لبلاب .

وقطعت الأصوات الزاعقة، في هذه الوحدة، أنفاسنا، ولكنها لم تقطع أنفاس العازف غير المرئي، الذي راح ينفخ، نفخة وراء أخرى، كأنه الفونوغراف، سلسلة من نفخات البوق النحاسية، جعلنا إيقاعها العسكري تفكر في رجال الدرك.

وخبأت في التُوكيمي بدغل من الأعشاب، فقد كانت به ستة من فخاخ الدراج، ثم غادرنا الممر، وتقدمنا عبر غابة من السماق والرند، بلا ضجة نحو مصدر الموسيقى التي استمرت تتردد أصداؤها.

كان علينا أن نتجه ببطء حتى منعطف الوادي. وهناك، ومن خلال أوراق الشجر، رأيت فتحة بوق نحاسية، وراءها زوج من الوجنات المنتفخة تحت أعين مغمضة، ثم رجلاً ضخماً ينفخ في النفير. ولم يكن الرجل من رجال الدرك، فقد كان يرتدي بنطلوناً من نسيج أزرق، وحمالات حمراء على قميص أبيض، بياقة مفتوحة. وتحت شجرة جوز عجوز، على كومة من الصخور، وضعت سترة سوداء مطبقة بعناية، تحت قبعة من قبعات الفنانين. وما إن نزع النفير من شفتيه، حتى كشف لنا عن وجه ذي ملامح محددة، ولكنها متسقة ونبيلة. فأسفل حواجبه اللامعة، بدت عيناه جميلتين زرقاوين زرقة فاتحة ؛ ولم يكن شعره أشيب، وإنما كان أسود وكثيفا تتخلله بعض الخيوط الفضية الملتمعة. وكانت كل هيئته تعطي انطباعاً مطمئنا بالذكاء والطيبة.

وأخرج من جيبه خرقة بيضاء، وراح ينشف بها فوهة نفيره بعناية. واستشرت إيف بنظرة من عيني، فغمز لي، وخرجت من الحوش، وتقدمنا على الممر. ورفع الرجل المجهول رأسه ونظر إلينا، مندهشاً من هذا الظهور الذي لم يكن ينتظره، ثم قال، بصوت مكتوم ولكنه مستساغ:

– طاب يومكم، أيها السادة! آمل ألا تكون معزوفاتي قد أزعجتكم فهل حدث هذا؟

– أوه، لا ياسيد! قلت بأدب.

– لقد اندهشنا بعض الشيء في البداية، ثم استمتعنا بها بعد ذلك! أضاف إيف.

– أما عن دهشتكم فليس بوسعي إلا أن أؤكدها، فهو أمر بالفعل مدهش سماع صوت نفير خيالة في هذه التلال، لأن هذا بوق خيالة.

وتفحص الآلة للحظة، ثم قال بغتة، كما لو أنه قد اكتشف اكتشافاً:

– إنه مضبوط على مقام مي بيمول!

وأعاده إلى شفتيه، وعزف نغمة واحدة طويلة.

– لقد أسمعتكم الآن، قال، نغمة مي بيمول.

– من الواضح، قلت، أنك خدمت بالخيالة!

وفتح عينيه الزرقاوين مندهشا.

– بل لا! إني آسف لقولي هذا، لكنكم التبس الأمر عليكم.

وابتسم ابتسامة كبيرة، وغمز بعينه، وقال كما لو أنه يسر لنا:

ـ لا يوجد خيّالة بالبحرية وأنا بحار! بحار، بالطبع في إجازة بما أنني أجدف

في هذه اللحظة بهذه التلال، كما تلاحظون ... وأراكم مندهشين لذلك، ولكن: هناك أشياء كثيرة على الأرض وفي السماء، كما قال هوراشيو، الذي لم يلهم فلاسفتنا. إني أتمنى ألا يغيب عنكم مغزى هذه الإشارة لهاملت، فأنا أرى أنه يبدو على مظهركم أنكم من شباب المدينة، ويحملني سنكم على الاعتقاد بأنكم تدرسون في سنوات قريبة من البكالوريا. فهل أخطأت؟

– سوف ننتقل للصف الثاني في شهر أكتوبر! قال إيف.

– أهنئكم، قال المجهول، وأتمنى أن تهنئوا أنفسكم. فالصف الثاني يعد سنة مرموقة، لأننا لانفعل بها شيئاً. وهي بالنسبة للكثيرين تعد سنة انتقالية، وبالنسبة للآخرين، تعد سنة إنجاز، تسمح برؤية عامة للشاطئ، وبتعيين تضاريسه وراح يأخذ سترته، التي وضعها على ذراعه، ثم وضع قبعته ذات الحافة الكبيرة.

– إذا لم يكن لديكم مانع فسوف أصحبكم، للمتعة، حتى فخاخكم .

ونظر إلينا لبرهة، كما لو ليستمتع بمفاجأتنا.

– بالطبع نعم، قال ضاحكاً، لقد رأيتكم تنصبونها بعد ظهر أمس، فقد كنت أتمدد في ظل أكمة عرعر، أفكر في بعض معضلات القدر الإنساني، حين وصلتم، وشهدت، بغير أن تروني، عملكم كصيادين مخالفين. وعليّ أن أعترف لكم أنني بعد رحيلكم ذهبت واختبرت نوعية التقنية التي تستخدمونها. وأنا أهنئكم، لأن الفخاخ الثلاثة الأولى كانت موضوعة في الأماكن المناسبة، وبحسب قواعد فن الصيد. ولكني أهنئ نفسي على أنني راقبت عملكم سراً، لأنني لم تعجبني طريقة تمويهكم على الفخ الرابع، وسمحت لنفسي بأن أضيف بضع أوراق ميتة، كانت– في رأيي على الأقل– لمسة نهائية لابد منها للخدعة القاتلة ... وأتمنى ألا ترفضوا هذا التعاون الذي قمت به بشكل تلقائي وتزيه تماماً.

وشكرناه بحرارة شديدة، ثم مضينا معاً نحن الثلاثة إلى وادي بريكاتوري .
ويبدا لي هذا الرجل الضخم مذهلاً ولطيفاً . كان يسير أمامنا، بغير أن يحدث أدنى ضجة، لأنه كان -مثلنا- يرتدي خفين لبفيين. ومن وقت لآخر، كان يستدير، ويبتسم .

- كيف يحدث سأله إيف، أن يجيء بحار ليتوه في هذه القرية؟

- الواقع، قال، إنني لم آت هنا لكي أتوه، وإنما لأعثر على نفسي هنا! وبما أنك استخدمت صيغة السؤال كيف يحدث؟ فسوف أجيب عليك بكيف حدث. كنت أقود، لعدة سنوات، واحدة من سفن الحرب الصغيرة التي تدعى سفن الحراسة ، في المحيط الهندي. وقد كنت أطارد عدداً من القراصنة، الذين لم يكن لديهم سلاح آخر سوى جرأتهم التي لم تكن تدعمها فروسية العصور الغابرة، وكنت أقرأ بيرلوتي تحت سيل منهمر من الأسماك الطائرة. لكن كثافة طيرانها لم تكن كافية لتظليل سطح مركبي، إلى أن طرحتني أرضاً ذات يوم شعاع شمس شديد فتيبست كشجرة ممددة متصلبة. وهو الأمر الذي جعلني، حتى بغير طلب، أحصل على إجازة طويلة، ووفق لي عليها لهذا السبب. وهز رأسه، بابتسامة بدت لي حزينة.

- ولكن هل سترحل قريباً مرة ثانية ؟

- فوراً! قال بتصميم. فحقائبي جاهزة، ولست أنتظر إلا إشارة الأميرالية. فأنا في راحة، في رأيي، من وقت طويل! ولكن عليّ أن أعترف -بالطبع فيما بيننا- أن نتائج ضربة الشمس هذه طالت أكثر من المتوقع. ومن وقت لآخر -وهذا بالطبع سؤال في الأرصاد الجوية -أو، بمزيد من الدقة، بالبقع الشمسية- من وقت لآخر، أقول، لم أعد أشعر بها في طبقي. ولا تأخذوا كلمة طبق هذه بمعناها الحرفي، ولا بالمعنى الذي يستخدمه البحارة عندما يطلقون كلمة الطبق على الباخرة . فعندما بدا لي أنني بدأت أهذي، لجأت، بشكل

عقلاني جداً -وأرجوكم التحقق من ذلك- إلى علم الأطباء ... وقد وضعوني عندئذ رهن الإصلاح، في حوض للترميم، أو بكل وضوح ، في بيت يدعى خطأ: مصحة، فأنت لا تقابل فيه سوى المرضى. ولقد قضيت به أربعة أشهر، وأريد أن أفسر هذا لكم.

وتوقف عن الكلام، بعد أن تلفت حوله ، كما لو أنه خشي أن يسمعه أحد، ثم عاد للقول بصوت خفيض.

- ذات صباح، عند استيقاظي، وبتفحصي -كما أفعل كل يوم- لأفعالي وتصرفاتي في العشية، تحققت من أنني انحرفت باتجاه السفينة حوالي عشر درجات. وهذا أمر يمكن تقديره، فمهما يكن من أمر جنوح سفينة على هذا النحو إلى جانبها تظل أيضاً في حالة صلاحية للعوم في الطقس الحسن، مع ذلك لم أتردد، وأصدرت أمري: إلى الترميم! وهو السبب الذي جعلني لم أعد إلا الأسبوع الماضي، وأنا مستعد تماماً للإبحار. لكني لم أتمكن هناك من عزف النفير، فهذه الآلة ليست تصلح للعزف بها في الحضر، لأن الأصداء التي تصدر عنها هي التي تجلب المتعة. وهو ما جعلني، هذا الصباح، أحضر إلى هذا الوادي، قلقاً بعض الشيء، وعلي أن أعترف بهذا، فقد خشيت أن أكون فقدت، خلال هذه الشهور الأربعة، قوة ومرونة عضلات الشفتين، التي ينتج عن جفافها عدم قدرتي -ربما لوقت طويل عن عزف الأصوات المنفوخة. وبعد الإختبار الذي قمت به -أقولها بلا تواضع- يبدو لي أنني في أفضل أحوالي. وبالنسبة لكما، أنتما الاثنان (وفيما بيننا كأصدقاء) مارأيكم في ذلك؟

ولم أكن أبداً قد سمعت بكلمة الأصوات «المنفوخة»، لكني أكدت له بحرارة أن هذه الأصوات كانت هي نفسها التي سحرتنا.

وأكد إيف على حكمي. مما حدا به، إلى أن يضع فجأة نفيره على فمه، ويولنا بوجبة من الألحان العسكرية، وبعد ذلك ببعض صيحات الصيد، التي قال

لنا أسماءها : الجمَّال، المتعبون ، الـ «دعه يجري» و «صيحة الهجوم».

ورحنا نثني عليه بما جعله يطفح بالسعادة ؛ ولم يعد بمقدوره التوقف عن الضحك احتيالاً. أثناء ذلك ، ظل أثر فوهة الآلة مطبوعاً بشكل محفور على فمه ـ وكانت شفته العليا مزخرفة بنتوء أحمر في حجم الحمَّصة، بدا أنه يجعله قادراً ـ كالفيل في حديقة النباتات- على رفع قرش من على بلاطة.

- هيا، قال بغتة، هيا! لقد أضعت لكم وقتكم، إنه أمر لايدعو لكثير من الإعتداد، أن يلح قبطان سفينة في طلب الثناء على طريقته في عزف النفير! هيا!

ومضى في خطوة سريعة موقَّعة باتجاه وادي بريكاتوري؛ وكنا نلحق به بمشقة، وقال لي إيف بصوت خفيض:

- إنه مختل قليلاً، لكن كل بحارة المستعمرات هكذا. يقول أبي إن ذلك بسبب تأثير الويسكي!

ولم تمسك فخاخنا الأربعة إلا بأرنب واحد.

- إنه هو الفخ الذي وضعت عليه الأوراق الجافة الثلاثة! قال المجهول. أترون أهميه التفاصيل الصغيرة! لكم، أولاء بما أنكم ستتذوقون يخنة لذيذة، ولكن قبل كل شيء لهذا القارض، الذي خدعته هذه الأوراق الجافة فاطمأن لها، وكلفته حياته! وبما أنني مسئول عن موته، وبما أنه سيلتهم - ساخناً، أياً ما كانت تلك السخونة مصطنعة -فإنه يبدو لي مناسباً أن أعزف على شرفه معزوفة (توزيع حصة الكلاب).

لذا راح يعزف، وعيناه مغمضتان، وفي مظهر متأثر، بينما أمسكت أنا بالأرنب من أذنيه.

وأعاد إيف نصب الفخ، ثم وضع صديقنا بنفسه الأوراق الجافة القاتلة.

وقبل أن نأخذ طريق العودة، خبط بيده على جبهته فجأة، وقال:

— لقد تذكرت إني نسيت أن أقدم لكم نفسي! أنا أدعى سيلفان بيرار، ورهن إشارتكم.

ولأنه بدا عليه أنه ينتظر أن نقدم أنفسنا بدورنا، فقد قدمنا أسماءنا وصفاتنا، فأتبع ذلك، بأن خلع قبعته لتحيتنا تحية كبيرة، وشد على أيادينا بطريقة حارة، وبغير أن يكون مفهوماً لماذا، راح يهنئنا بحرارة على كوننا هكذا. ثم، وعلى طول الطريق، راح يتحدث، مبتسماً هادئاً بسطوة كبيرة، وبغير أن يترك لنا فرصة للكلام، فقد كان هو الذى يسأل وهو الذي يجيب.

— إنني أمارس هواياتي مرغماً، قال لنا، بسبب العمل العقلي، العمل الذي له أهمية لاتغيب ربما عن أذهانكم.

وكان يبتسم طول الوقت، كما لو أنه لم يكن يأخذ مأخذ الجد مايقوله لنا:

— لكم أن تعرفوا أولا أنني انتهيت من إعادة ضبط هندسة إقليدس. فهذا الإغريقي كان ذا عقل، لكن عمله شابه أنه خضع لأن يتضمن مسلمة! وحيث أن التسليم، يقتضي ألا نبرهن، فهو يتوسل القارئ لكي يقبل بمبدأ بغير أن يقوم على دعم هذا الطلب بأي منطق. ومع التسليم بأنه كان قوياً بعض الشيء! حاولت أن أسد هذه الفجوة عبر برهنة صارمة على هذه المسلمة، برهنة سوف أعرضها عليكم في يوم مقبل!

ولأننا هززنا رؤوسنا، وكانت أعيننا تلتمع بالدهشة والإعجاب، ابتسم ابتسامة رضا، وقال بصوت خفيض:

— هذا، بالطبع، يجب أن يظل سراً بيننا، على الأقل لحين نشر عملي، الذي استشعرت الحاجة اليه منذ حوالي ألفين من السنين، والذي سيظهر قريباً، بما أنه القسم الصغير الأول لنظريتي الكاملة، أما القسم الثاني فهو أيضاً برهنة،

على الإقتراح التالي لفرما: مجموع زوايا مربعين قد يساوي مجموع زوايا مربع واحد، ومجموع زوايا مكعبين لا يساوي أبدا مجموع زوايا مكعب واحد. هذا العمل جعلني أقضي وقتاً ممتعاً، وقد أسفت على انني تمكنت بسرعة من حل المسألة، التي بحث ألمع الرياضيين عبثاً عن حل لها لمدة مائتي وخمسين سنة.

واستعرض بعد ذلك القسم ج، ثم القسم د، وهلمجرا، حتى القسم ياء. وردد على أسماعنا أن نظريات باستير كانت سخيفة، وأن هذا العالم الكبير بتكذيبه للتوالد الذاتي، لم يكن له من هدف آخر إلا أن يثبت بهذا الشكل وجود الله؛ وراح يدين بقسوة عملية استئصال الزائدة الدودية، وأكّد أنه إذا وافقت النساء الحوامل على السير على أربع، فسوف يلدن أطفالهن، بغير حتى أن يلحظن ذلك، وهذا يتطلب بالطبع اللحاق بهن بانتظام، لجمع المواليد الذين يسقطون على العشب، قبل تنبه الأم لما يحدث.

وعرج بعد ذلك على الفلك، ورفض القبول بعبقرية نيوتن، وأعلن:

– لو أن التفاحة كانت مكعبة الشكل، لما اكتشف هذا الإنجليزي شيئاً، وإني أجده أمراً مؤسفاً أن القانون الذي ينظم الكون يتم اكتشافه عبر شكل ثمرة الفاكهة.

وأكد بعد ذلك أن البواخر الحالية ليست سوى قاطرات، وأن عليها أن تسير على الماء بدلاً من أن تحك بطونها فيه؛ وبعد ذلك انتقد صناعة الألبان، وأطلعنا على أنه بصدد تنفيذ طريقة تصنيع للّبن، تبدأ من العشب مباشرة دون المرور بالوسطاء الذين يخورون.

– هذه الخطة، قال، والتي تبدو بسيطة في ظاهرها، تتطلب مع ذلك بعض العمليات المعقدة جداً. فالمبدأ الذي تقوم عليه هو التالي. أنا أسحق العشب، ثم أهضمه بواسطة سلسلة من حمامات السوائل الحمضية الخفيفة، في درجة حرارة ٣٧ مئوية. وبعد يومين من النقع، خمنوا ما الذي أستخرجه منه؟

– اللّبن! قلت.

– أبداً! لكن خطأك مغفور وأنا أهنّئك ففي الواقع، أنا أستخرج منه ...
وراح ينظر لنا، كلا بدوره، نظرة منتصرة، ثم قال في صوت خفيض:

– الرَّوث! وما الذي يظل في وعاء التقطير؟ إنه اللبن! إنها مسألة سهلة سهولة حكاية بيضة كولومب، ولكن كانت بحاجة للتفكير! ولأن تجاربي مازالت طور الاختبار، فأنا أرجوكم ألا تتحدثوا مع أحد قبل الإحكام النهائي للنظرية. إذن، لنصمت، لحين إشعار آخر.

وطمأنّاه على احتفاظنا بالسرّ، وباركنا بحرارة. وصمت لعدة دقائق، متفكراً، وهو يبتسم من حين لآخر ....

كنا قد وصلنا إلى سفح هضبة (الأدرت)، وحمل النسيم إلينا بضع أنغام من صلاة تبشير بعيدة، فتوقف، يتصنّت، وأعلن عن إعجابه بالكنيسة الكاثوليكية فهي، بحسب ما قال، أقوى تنظيم للدعاية شاهده في العالم، بما أن لها وكالة في كل قرية، مقامة مجاناً في أجمل مبنى ومجهزة تحت سقفها المقوّس بالأجراس الرنانة. لكي تدعو مستهلكي الميتافيزيقا الطامحين بالحياة الأبدية.

وتصورت أنه يدين بهذا الشكل العقيدة المقدسة للعم جول، لكنّي وجدتني مخطئاً عندما أعلن أن هذه الدعاية الطنانة كانت لحسن الحظ في خدمة أجمل الأفكار المصممة التي امتلكها الإنسان، وأن المسيحية كانت هي الأساس لكل الحضارة، وأن البلهاء فقط هم من يتشككون في ألوهية إلهنا المسيح. وعقب هذا التأكيد الاحتفالي، توقف، وأشار لنا بالاقتراب منه، وأضاف، بصوت خفيض:

– رغم ذلك، رغم ذلك، فقد قال قولاً أربكني حين قال: إنك الصخرة،

وعلى هذه الصخرة سأبني كنيستي. حسناً، لا، لا، لقد تأثرت بهذا اللعب بالكلمات. بالطبع، يمكننا أن نؤكد أن المخلّص أراد أن يولي مقاليد القدر الإنساني لأتباعه، وأنه هبط بإرادته إلى مستوى التورية بالكلمات. ويمكننا أن نقول أيضا أنه قال ذلك لكي يخاطب البسطاء الذين يعجبون باللعب بالكلام، وتبدلات الأحرف الأخيرة للألفاظ. وهذه الأسباب ليست سخيفة ... ولكنها مع ذلك، مع ذلك ... هنا تكمن مشكلتي الكبرى، حتى إنني لا أنام الليل بسببها أحياناً...

أثناء ذلك، كنا قد وصلنا الى مفترق طرق على إحدى القمم .

– هذا هو، قال، مكان وداعنا المؤقت، بما أنني أريد أن أراكم كثيراً، إذا كان ذلك الأمر يسعدكم. ولكني قبل أن أترككم أرغب في أن أقدم لكم هدية من فكرة ثمينة خطرت على رأسي هذا الصباح، وأريد أن أعهد بها لذاكرتكم أنتم، خوفاً من أن أنساها أنا، اسمعوا: إذا رأيتم ذات يوم سلكاً من الرصاص المعووج، ستقولون بالطبع إنه قد حدث شيء ما بمكان ما. فكروا في هذا.

ونظر إلينا برهة، بجدية، وبغير أن يتكلم، ثم تابع الحديث:

– اسمحوا لي الآن أن أطرح عليكم بعض الأسئلة، وربما أستودعكم سراً. وإذا لم يكن لديكم مانع، هيا بنا نجلس على هذه الأحجار الثلاثة، التي يبدو أن القدر أو العناية الإلهية قد أعدتها للقائنا.

وكانت هذه الأحجار تشكل نصف دائرة، تحت شجرة بلوط ذات سبع أو ثمانية جذوع. كانت شمس الصيف الكبيرة تهبط رويداً رويداً باتجاه البحر، وكانت شعاعاتها، الأفقية، تقريباً، تمر عبر الأفرع الواطئة للبلوطة، وتذهّب الوجه النبيل للسيد ميلفان. وكانت الجداجد، تصر معلنة عن اقتراب نهاية اليوم، وهي تلهث بإيقاع صريرها.

– أنظروا، أيها السادة، قال، هل يضجركم الحديث معي؟

واحتججت بشدة، وعلى نحو شديد الجدّية:

– على العكس. إنني من شغفي بالحديث لم أشعر حتى بطول الطريق!

– إنه من النادر، قال إيف بدوره، أن تتاح لنا الفرصة لسماع مثل هذا القدر من الأفكار الجديدة ... وقد قضينا بعد ظهر مفيد!

– ألم يصدمكم شيء مما قلت؟

– بالتأكيد لا! قلت، طبيعي أنني لم أفهم جيداً نظرياتك الرياضية، لكن كل الباقي كان مهما بالنسبة لي.

– هل كل ما قلته، في مجموعة، بدا لكم معقولاً، وحساساً ومنطقياً تماماً؟

وأجاب إيف:

– إن له منطق مبهر!

– حسنا! قال السيد سيلفان. والتمعت عيناه ببريق الرّضا.

– حسناً، كرر قوله وهو يفرك يديه. إنني أجد لزاماً عليّ أن أحدثكم عن الخفة العدوانية لبعض الأشخاص بالقرية ؛ وأحددهم لكم على سبيل التأكيد، كالبقال وخادمة القس، وساعي البريد، وعامل النافورة، ورئيس النادي إلخ فهؤلاء الأشخاص قد تخيلوا... (وابتسم ابتسامة مريرة) أن بإمكانهم أن يعاملوني كمجنون نعم، مجنون، بكل بساطة!

_ هذا لأن أفكارك جديدة، قلت.

– بالطبع! صاح السيد سيلفان. وهؤلاء الناس ليسوا مؤهلين بالمرة لفهم الأقوال أو الأفعال عند تناقضها. ومن بين الوشايات التي تناقلوها، أنهم راحوا

يرددون أن حوض الترميم الذي يستقبلني من وقت لآخر ليس إلا عنبراً للممتوهين، كما يقول الإنجليز. بما يجعل الآباء، إذا ما حدَّثني طفل من أطفالهم، يهددونه بأنه سيحدث له ما لاتحمد عقباه. وإذا لقيتني امرأة في المساء بشارع من شوارع القرية، تهرع مسرعة للعودة على أعقابها، وتختفي ..

لاحظوا أنني مسؤول بعض الشيء عن هذه الأشياء، بما أنني لم أحاول أبداً أن أؤكد لهم أنني أتمتع بسلامة الحس المطلوبة، بل على العكس، أعترف، أنني قد حدث مني، بسبب النَّزق، أن قمت أمامهم بأفعال غريبة، أو تلفظت بأقوال لا معنى لها، لأن هذه الفكرة السخيفة التي لديهم عن جنوني، كان يطيب لي أحياناً أن أؤكدها، لأنها تبعدهم عني بمسافة كافية من الاحترام، بما يؤمِّن لي راحتي، وهدوئي.

ولكني معكم، وبما أنكم شبان مثقفون -ولن أظل أحتكم على ذلك كثيراً- حرصت على أن أقول لكم الحقيقة المجردة، وأؤكد لكم أنني لست مجنوناً!

- إنها فكرة غبية، قلت.

- بالضبط! صاح السيد. سيلفان. لكنه مهما كانت هذه الفكرة غبية، كما قلت بوضوح، فأنا حريص على أن أريكم مدى غباوتها.

- لا تحمل نفسك مشقة هذا الفعل، قال إيف. فقد ثبت لنا هذا!

- ليس بعد! قال السيد سيلفان، المتألق، ليس بعد، ولكن سيحدث. سوف أحصي لكم هذا المساء. بعضاً من المنجزات وبعض وجهات النظر الفلسفية التي كان يمكن ألا أفهمها لو أن عقلي كان مجنوناً، وعليَّ الآن أن أمسك بالأمور من طرفها الآخر، وأن أريكم كيف كان يمكن أن يتعذر علي التوصل لشيء لو كنت مجنوناً حقاً. إنتظروني الآن دقيقتين، فأنا مضطر لعمل شيء، وابتعد

بخطوة سريعة وهو يضحك، واختفى وراء الطلل.

ونظر لي إيف، متفكراً، وقال:

– إنه عالم، وهو يجيد الحديث. لكني أجده طريفاً بعض الشيء.

– بالطبع، قلت. ولكن تذكَّر أن كثيرين من الرجال العظماء تم اعتبارهم مجانين لأن الناس العاديين لم يفهموهم. ففلاحو القرية ليس بمقدورهم بالتأكيد فهم نصف ما قاله لنا، لذا فهم يتصورونه مجنوناً. أما أنا فأجده عظيماً!

– أنا أيضاً. هذا رجل يعاشر، لأن بمقدروه أن يعلمنا الكثير.

كنا قد استمعنا له بالفعل بغير شعور بأي إرهاق، بل باهتمام شديد. فالمراهقة تقبل طوعاً أكثر الأفكار شذوذاً، خاصة إذا كانت تتناقض مع الأفكار التي تدرس بالمدرسة.

– ربما لم يكن عبقرياً كبيراً، قلت، لكنه بالتأكيد شخص من نوع (بيك دي لاميراندول) أنا أرى ذلك...

لكن إيف قاطعني قائلاً بصوت خفيض:

ـ يا للعجب، ماذا ذهب ليفعل؟

وعاود السيد سيلفان الظهور من وراء الطلل، وتقدم نحونا متخذاً شكلاً غريباً. كان جذعه عارياً، وهو يطوق صدره السمين بقطعة سمينة من فراء النعجة. كان قد وضع في مكان القبعة على رأسه دلواً قديماً متآكلاً من الصدأ، له مقبض على شكل الحلقة. وقد أدخل حشفتي بلوط في فتحتي أنفه بما جعل أنفه تشبه حبة البطاطس، وكانت باقتا سعتر تطلان من أذنيه، وقد علق طوقاً من اللبلاب على رقبته، وثني بنطلونه إلى ما فوق ركبتيه، مما جعلنا نرى على هذا النحو سمانتي رجله المشعرتين. وبصوت مأساوي أغن، صاح بنا هكذا

يلبس المجنون، وهذا ما يفعل. واقترب منا ببطء، وهو يتهزهز كغوريللا، فاتحاً ذراعيه، ومدلياً راحتيه، وراح يغني فجأة، بصوت متقطع:

«بحشفتين في فتحتي أنفه

وبصوته التينور الجميل

إنه ضابط بحار مسكين

ضل في تحديد طريقه»

ثم صاح: إلى الغناء! وراح يغني من جديد، وهو يرقص رقصة عنيفة:

«وهوب هوب! ياللأسى!

إني أتحرك متثاقلاً، وأسير بلا هدف ،

وهوب هوب! أين بوصلتي؟

فلم أعد أعرف اتجاهي! »

وراح يدور فجأة كأنه إعصار، وهو يصيح هوب هوب بصوت له صرير. ثم مضى، راقصاً قافزاً، على الطريق، باتجاه القرية. وتبادلنا النظر مندهشين، خائفين بعض الشيء. ولم يجد إيف ما يقوله إلا:

– يا للهول، يا عزيزي ! ياللهول، ياعزيزي!

وأصابني الذهول، لكني رغبت في نقاش الأمر .

– اسمع، يا إيف، لقد أعلمنا، لقد قال لنا إنه سيلعب دور المجنون، وبالتالي فهو ليس مجنوناً! على كل حال، لو أنه ذهب هكذا إلى القرية، فلن نستطيع تكذيبهم.

– أوافقك، ولكن بما أنه أعلمنا! فهذا وضع طريف، نعم، إنه يغالي في

النكتة قليلاً، لكن لا يمكن القول بأنه يجب القبض عليه كمجنون!

أثناء ذلك، وعلى البعد، راح السيد سيلفان يقفز قفزات عالية في الهواء فارداً ذراعيه، مطلقاً صيحات «هويّا ،هويّا!» التي راحت تمزق سلام ساعة الغروب.

المصابون بالطاعون

إليكم القصة التي حكاها لنا السيد سيلفان، وهو جالس على حجر أحمر، بمواجهة مغارة المصابين بالطاعون.

– في ١٧٢٠، كما تعرفون، حاصر الطاعون مرسيليا. وبالطبع لم أشهده، وأهنئ نفسي على ذلك.

– ونحن نهنئك بدورنا، قلت أنا.

– ونهنّئ أنفسنا أيضا، قال إيف.

بعد وفاة لويس السادس عشر العظيم، صار أمير أورليان فيليب وصياً على المملكة. وكانت هناك دسائس كثيرة بالبلاط. لكن فرنسا وبصفة خاصة مدينة مرسيليا، كانت في كامل ثرائها. ويقول لنا المؤرخون إن كل مفوّضيها كانوا أغنياء جداً لدرجة أن نبلاء المدن المجاورة كانوا يتعجلون التحالف معها. وكانت تجارتها الأساسية تجري مع بلاد المشرق، أي مع سوريا ، وفلسطين، وجزيرة قبرص، التي كانت كلها في آسيا، والتي كانت ترسل، عبر البحر المتوسط، بالقطن، والصوف، والجلود، والحرائر، وعدداً من البضائع الأخرى ... لذا كانت مرسيليا غنية، فكل سكانها (باستثناء الكسالى والمحكوم عليهم بالأشغال

الشاقة المقيّدين) يعيشون عيشة مرفهة. وكان بتلك المدينة السعيدة، حي صغير، أسعد من الأحياء الأخرى، وكان حقاً قطعة من الجنة. لم يكن الميناء القديم – لاسيدون الإغريقي– يزيد عن كونه فرجة صغيرة، شقها البحر المحيط بين سلسلتين صغيرتين من التلال، على حافة واد قليل العمق. وبعيداً عن الماء المالح، كان عمق هذا الوادي يعلو باتجاه القمم المحيطة بالمدينة. وعلى بعد ثمانمائة متر من لاسيدون، كانت توجد بجوار المنحدر، جهة اليمين، ربوة صارت تسمى فيما بعد تل دفيلير. كانت تكسوها بعض الأحراش من أسفلها، وكانت تلوح، بأعلى الحافة، جهة السماء، ضيعة ما يحيط بها حائط عال محاط هو الآخر بأوراق الدلب المهذبة وكانت توجد بهذه الضيعة ساحة صغيرة مستطيلة، محاطة من ثلاث جهات بالبيوت، التي كانت أدوارها السفلى مشغولة بالمحلات.

وبمنتصف هذه الساحة، وفوق عمود مغطى بالزغو وضعت سمكة كبيرة من الحجر تخرج رأسها من صخرة وتصب ليلا ونهاراً، ماء شفافاً، يسقط بوفرة في صدفة من الصلصال. وكان يتفرع عنها شارع –كان في مجموعه طريقاً، يمرّ إلى يمين ميدان القديس ميشيل، ويعبر الساحة إلى آخر الواجهة، وينفذ شمالاً، ليهبط حتى شارع مادلين كانت هذه المنازل يسكنها البورجوازيون الأغنياء جداً، بسبب نقاء جوها، وجمال المنظر الطبيعي العريض الذي يطل عليه الساكن عند فتح النوافذ. كما كانت وراء المنازل حدائق كبيرة تسيّجها حوائط حجرية ترتفع لثلاثة أمتار على الأقل، تضم هذه الحدائق اسطبلات كبيرة، وتؤوي أعداداً من الأحصنة.

وكان من الطبيعي، أن يكوّن سكان هذا الحي الصغير المستدق نوعاً من المجتمع، ومهما أحاطتهم المدينة من كل النواحي كانوا هم يعيشون على طريقتهم، التي تشبه بعض الشيء حياة سكان القرى.

كانوا لايتبعون الحكم المحلي لمدينة مرسيليا، ولم يكن لهم أي نظام خاص. ومع ذلك كان يتحكم فيهم الأستاذ بانكراس، وكان شخصية غامضة جداً، فلم يكن أحد يعرف من أين أتى لكنه كان طبيباً مرموقاً جداً، يذهب كل يوم إلى المدينة ليعالج أمراض البورجوازيين الكبار، كما كان يعالج كبير الأساقفة، وكان يبلغ من العمر ستين عاماً، وكان مازال بعد وسيما، برغم تجاعيده وشعره الأبيض، وعلى الرغم من قصره، كان يبدو عملاقاً ذا لحية شديدة البياض مقصوصة ومدببة، ومحل عنايته الدائمة، ولأن يده كانت جميلة كان يزينها بخاتم أنيق ويرصع خاتمه بماسة، ماسة تلتمع بالزرقة، كدليل لا يدحض على الثراء الشديد، الحاضر أو الماضي. وكان بالقطع غنياً جداً، أو على الأقل كان يبدو كذلك. وكان بيته في منتصف الواجهة نفسها للميدان، وهو أكبر المنازل، وبرغم أنه كان يعيش وحيداً، مع اثنين من الخدم، هما: السيدة التي تدعى آليبيت، وكانت –كما يقال– عالمة بالمطبخ، والعجوز جوبو، الذي كان فكه خاليا من الأسنان تحت شارب أشيب، ويبلغ من العمر حوالي خمسين سنة.

كان المرموقون الآخرون بالحي هم الأستاذ باساكاي، الجابي، ذو الأنف الطويلة التي ترتجف بين عارضين أسودين (سواد المشيب، الذي كان يدعوه لتمشيطهما بمشط) من الرصاص، وجاران الشاب، الذي كان في الخمسين؛ ولكنه يدعى هكذا، نظرا لأن أباه على مدى عمره كان يداعبه بهذه الصفة. وكان طويلا جداً، وذا خدين محفورين بتجعيدتين أفقيتين، وشارب خفيف تحت أنف غاطس، لكن عينيه كانتا ثاقبتين، وكانت أسنانه ناصعة. كما كان يوجد أيضا السيد كومبرانو، صانع الجوخ، الذي صار غنياً جداً، لأنه كان يمون جيوش الملك.

كان رجلا طويلا جداً، يضيء عنفوان نضجه العمري لحيته الذهبية، وكان فظاً ، قليل الكلام، وذا صوت قوي مبحوح دائماً ما كان يعارض محدثيه. ولم يكن يحبه أحد إلا في النادر، لأنه لم يكن يعطي اهتماماً للصداقة. ولكنه كان

رجلاً قانعاً وفاضلاً يذهب لسماع القداس الأول كل صباح، تتبعه امرأته، وأولاده الثلاثة وبناته الخمس.

وفي البيت الذي كان يحتل زاوية الميدان، على طرف الحاجز، والذي يشرف على الخلاء، كان يعيش القبطان. وكان يدعى ماريوس فيران، والذي عبر المحيط ثلاثين مرة ليبيع الزنوج في أمريكا. ولأن أصحاب السفينة الذين كان يعمل معهم كانوا يتركون له نصيباً في الفوائد -وكان هو الذي يقوم بالمحاسبة- جمع من رحلاته قدراً من المال ليس بمقدور رجل أمين أن يكسبه. وكان سخيّاً مع بنات الهوى اللاتي كان يقتادهن أحياناً إلى مسكنه (بعد حلول الليل) وكان ينثر أحياناً، على الساحة، حفنة من العملات، ليمتع نفسه برؤية الأطفال يتعاركون... وكان قد فقد، بسبب مرض حمله من أفريقيا، كل شعر رأسه، ولكن كانت تزخرف عُرْي رأسه ندبة طويلة متعرجة تعطي له مظهراً حربياً.

إلى جانب هؤلاء المذكورين، كان يوجد بضع تجار صغار، مثل رومولد الجزار، الأحمر، كما يجب أن يكون الجزار، والذي هو شبه غبي عندما لا تكون في يده السكين ؛ وأرسان، بائع الخردوات بالمفرق، الذي كان قصيراً جداً، وفيليسيان، الخباز الذي كانت فطائره المنفوخة المزينة باللوز المحمص يذيع صيتها حتى الميناء القديم. وعلى الرغم من أعوامه التسعة والثلاثين، كان مازال يغوي النساء، لأنه كان أبيض البشرة جداً -ربما بسبب عمله في الدقيق- وكان صدره مكسواً شعراً ذهبياً. كما كان هناك أيضا بامبيت، السماك ؛ وريبار النجار الأعرج ؛ وكاليكست، الذي كان يعمل في ترسانة السفن الشراعية الحربية، وبعض الآخرين الذين سيأتي ذكرهم فيما بعد.

ومن الطبيعي، أنه كان بالحي نساء، وأطفال، وعواجيز ؛ كانوا جميعهم وهم أكثر من مائة شخص، يعيشون في سلام، بما أنه ليس من الضروري هنا

الإشارة إلى حالات سكر القبطان ولا للخناقات المنزلية التي كانت فضلاً عن ذلك أقل كثرة مما يحدث اليوم .

مع ذلك، ففي الخلاء، الذي كان يحيط بكل المدينة، كان المذكورون يجلسون، ليتحدثوا في السياسة أو التجارة أو الإبحار. ومن وقت لآخر كان المغلوبون في لعبة البولينغ، الذين لم يعد لهم مكان في اللعب، يأتون ليستمعوا لهم، جالسين على الأرض في نصف دائرة، كالمتفرجين على المسرح القديم، فيما كانت النساء تملأن جرارهن من النافورة، على أصوات كرات البولينغ المتصادمة.

كانت لدى الأستاذ بانكراس إجابات دائماً على كل شيء، وهي إجابات طريفة ولكنها مع ذلك معقولة، في كل الموضوعات، فكنت ترى من خلالها أن ذلك الرجل كان يعرف العالم جيداً، وربما يعرف باريس أيضاً.

ذات مساء —وكان ذلك في مطلع شهر يونيو، عام ١٧٢٠، عند طرح أشجار الدلب لأوراقها التي كان حجمها يتوقف دائماً على قوة الشمس، بما يثبت أن الله صديق للاعبي البولينغ رأى القبطان الدكتور عائداً من القرية، في العربة الصغيرة التي يقودها جوبو، فتوجه نحوه، وعرض عليه أن يأتي ليتذوق معه بالخلاء زجاجة من نبيذ العنب المسكي كان على وشك أن يشربها وحده.

— بكل سرور، قال الأستاذ بانكراس. بكل سرور، فأنا بحاجة شديدة لأبعد عن خاطري بعض الأفكار غير المبهجة التي أقلقتني.

— الواقع، قال القبطان، إن السياسة ليست بذات أهمية، وكل ما يقولونه حول الوصي على العرش وحول الحرب المحتملة، أمور أسخر منها ولا أوليها اهتماماً، لأنه إذا كان ...

— إن الأمر لا يتعلق بالإنجليز، ولا بالسياسة، قال الأستاذ بانكراس.

– هل لديك شواغل شخصية؟ .

– شخصية وعامة، قال الأستاذ بانكراس.

ورفع كأسه، ونظر إليه باستشفاف، ثم شربه جرعة واحدة.

أثناء ذلك، تجمع آخرون، ممن رأوا الزجاجة وتقدموا، بكئوسهم في أيديهم. فانفجر القبطان ضاحكاً، وجرى ليحضر زجاجة أخرى، بينما كان القادمون يحيون الدكتور.

– يا أصدقائي، قال عندما عاد وهو يولج فتاحة السدادات، إن علينا أن نشرب ثلاثة أقداح متتالية في صحة الأستاذ بانكراس، لأن صديقنا لديه وساوس تشغله.

– وما هي؟ سأل الجابي.

– إنها بالأحرى وساوس بعض القلق، قال الطبيب، أو ربما الوهم. آمل ذلك على الأقل.

وشرب كأساً أخرى من النبيذ. أثناء ما كان القبطان يملأ الأقداح ثم، عندما رأى أن الجميع ينتظرون منه أن يتحدث. تابع القول:

– يا أصدقائي، لقد قضيت نهاري بعيادات الميناء، بصحبة السيد كروازيه، رئيس الجراحين بمستشفى الشراعيات، والسيد بوزون، وهو جراح آخر مؤهل، قام بعدة رحلات للمشرق، ويعرف جيداً أمراض هذه البلدان، الشديدة الوبائية. كان قضاة البلدية قد دعونا لكي نفحص جثث الحمالين الثلاثة للعيادات خشية أن يكونوا قد ماتوا بالطاعون.

وعند هذه الكلمات، راح الجميع يتبادلون النظر، وبدا قلق شديد على الوجوه.

– ثم ماذا؟ سأل الأستاذ باساكاي.

– حسناً، كان زملائي قاطعين في حكمهم! بأنه ليس طاعوناً، وقالوا ذلك بوضوح في تقريرهم للسادة قضاة البلدية.

– ولكن أنت، كيف ترى الأمر؟ سأل القبطان.

وتردد الأستاذ بانكرامي، ثم قال.

– أنا أمتنع عن الاستنتاج. بالقطع، أنا لا أؤكد أن هؤلاء التعساء ماتوا بالطاعون لكني رأيت بعض الخراريج في أجسادهم جعلتني أتشكك.

ولاحظ أن أصدقاءه يبتعدون بعض الشيء عنه، كأنهم خائفون.

– اطمئنوا، قال لهم. فعند فحص هذه النتانات، خلعنا جميع ملابسنا، وارتدينا قمصاناً مبللة بالخل القوي الذي مازال جلدي يحرقني بسببه. كذلك فقبل رحيلنا، تعقمنا تعقيماً طبياً. فضلاً عن أنني ربما أكون مخطئاً بقلقي هذا، فبعد أن شربت هذين القدحين من النبيذ، بدا لي أن زميليّ كانا على حق.

– إن هناك أمراضاً كثيرة تأتينا عبر البواخر! قال القبطان. أنا أعرف مائة نوع من الحمى. وهي دائماً نفس الشيء. حرارة شديدة في الجلد، وبعض البقع الحمراء، والبقع السوداء، والتقيحات، والقيء، ولا نفهم شيئاً... وعندما يموت الكثيرون، يقولون إن ذلك هو الطاعون، لكي يموت من يظل حياً بفعل الخوف.

– خاصة في مرسيليا! قال المثقف، الذي كان قد وصل. وكان يدعى نوربرت لاكاساني، وكان في الثلاثين، ويعتقد أنه كان من الشمال لأنه كان من فالنسيا. كان يعلم الصولفيج، والتنغيم، والتتابع الموسيقي، وتطابق الألحان، ولم يكن المرسيليون مولعين بالموسيقى، وهو السبب الذي كان يجعل من

To: www.al-mostafa.com

المثقف صاحب أفخاذ هزيلة لكنه كان ذا قلب كبير، وكانت عيناه تلتمعان التماعة جميلة.

– ما الذي لديك لتقوله أيضاً عن مرسيليا؟ قال جاران الشاب.

– ما أريد قوله، قال المثقف، إني جئت هنا من خمس سنوات، ومنذ خمس سنوات كنت أسمع على الأقل ثلاث مرات أسبوعياً أن الطاعون انتشر بالعيادات.

– هذا صحيح تماماً، قال الأستاذ باساكاي. ولكن لابد من القول إننا لدينا أسباب قويّة للخشية منه!

– إن المؤرخين، قال الأستاذ بانكراس، قد ذكروا تسع عشرة حالة وباء بالطاعون في هذه المدينة. ثلاث منها أو أربع استمرت فترات قصيرة. لكن كل مرة من الأخريات اكتسحت المدينة لأكثر من عام، وتركتها شبه صحراء ...

– لم يتبق إلا ذكرى عائلات، قال الجابي ... فلدي مازال في دفاتري عدد كبير من الوصايا التي ذهبت أدراج الرياح، لأن الورثة جميعهم ماتوا في نفس الوقت الذي مات فيه الموصي.

– بالنسبة لي، قال جاران الشاب، كان يمكن أن تختفي عائلتي عن بكرة أبيها عام ١٦٤٩، ولحسن الحظ، بقي واحد من أجدادي، كان صانع سلاح في فيلق من فيالق الملك، لأنه كان بالألزاس عند وقوع الوباء. لقد مات أحد عشر شخصاً من عائلتي، بسبب العدوى، واستمرت العائلة بعد ذلك بسبب الأصل الوحيد الذي تبقى متمثلاً في هذا الجندي الذي كان بالمنفى.

– أنا أفهم، قال المثقف، أن هذه الذكريات مخيفة بعض الشيء. ولكن مع ذلك، نحن لم نعد بعد في حقب الجهل، ولم تعد المراكب تدخل الميناء كما في الماضي بحرية ... فهنا كشف دوري، وشهادات صحيّة صريحة، وحجر

صحي.

– إنه بديهي، قال الأستاذ بانكراس، أننا محصنون أكثر من الماضي، وأن علمنا أحدث تقدماً هائلاً ... ويبدو لي أنه من المتيقن أنه في حالة الوباء ...

في هذه اللحظة علا الصوت المبحوح القوي لتاجر الجوخ، الذي كان قد وصل.

– في حالة الوباء، قال، من المؤكد تماماً أن إرداة الله ستنفذ، كما حدث دائماً، ولن تغير كل محاولات علاجكم شيئاً ... فما يهم، هو أن تكون مستعداً للقاء ربك، كما أفعل أنا، بما أنني جئت تواً من الاعتراف.

وابتسم ابتسامة عريضة راضية .ثم أضاف:

– هل صحيح أنه لدى البعض أسباب للخشية من الـ ... مرض؟

– هناك بعض الشكوك فقط، قال الأستاذ بانكراس.

– إن الله يختبر المؤمنين! قال في احتفالية الأستاذ كومبارنو.

ثم استدار على كعبيه ذاهباً باتجاه بيته.

– الواقع، قال المثقف، أن لدينا رجلاً سعيداً لكونه مؤمنا إيماناً تاماً! وهو لن يبتسم ربما بهذا القدر عندما يجيء دوره ليموت!

– هيا، قال الأستاذ بانكراس، إنني أشعر بالنشاط التام، وأنصحكم إلى أن يحدث غير ذلك، ألاتفكروا في الأمر، طالما أن قلقنا لايغير شيئاً ... إلعبوا إذن مباراتكم في البولينغ ؛ وأنا سأذهب لأغرق في كتبي، أيّا ما كان الموضوع ...

ومضت عدة أيام، إن لم تكن بلا موجة قلق، فعلى الأقل بلا كرب. فقد نسي المرسيليون بسرعة شديدة الهواجس المخيفة. وقد تسللت إلى الساحة من المدينة مع ذلك بعض الشائعات، كانت تقول بأن جراح العيادات –وهو واحد

من اللذين كذّبا الخطر– قد مات بالطاعون، مع أسرته كلها، ولكن لأن هذا الكلام انتقل من فم لأذن بين أناس لم يروا بأنفسهم، لم يصدق أحد هذه الحكاية تصديقاً تاماً على حين أنه في كل مساء، عند عودة الأستاذ بانكراس، كان الطبيب يجيب على أسئلة الذين يهرعون لمعرفة الأنباء:

– لاشيء مؤكد حتى الآن. حافظوا على هدوئكم، فإذا ما أعلن عن الوباء، سأكون أول من ينذركم.

ولكنه كان يبدو دائماً مهموماً، وكف الرجال عن لعب البولينغ .

كان ذلك بعد ظهر العاشر من يوليو، عندما عاد الأستاذ بانكراس مبكراً، مسرعاً بحصانه الصغير وكان القبطان وحيداً، على الحاجز، يدخن متفكراً غليونه القصير.

ـ أيها القبطان، قال الأستاذ بانكراس، اجمع كل الرجال إلى بيتي، بأقصى سرعة ممكنة، عندي نبأ خطير سأقوله لهم. وحاذر أن تتكلم معهم أمام النساء أو الأطفال ثم دخل إلى بيته على عجل.

بعد ساعة من هذا، كان الرجال مجتمعين في غرفة استقبال الطبيب، وكانوا مطرقين متفكرين، فقد عرفوا أي نبأ سيتلقونه، وقد تيقنوا منه أكثر حين قالت لهم الخادمة:

– الأستاذ بانكراس يستحم الآن بالماء والخل، وقد أمرني بأن أحرق كل ملابسه.

– كلها؟ سأل الجابي.

– كل ما كان يرتديه، قالت العجوز آليبت. أجل، قميصه ذا الرباط، وصدرته الدانتل، وسراويله الداخلية من الصوف القبرصي، وردنجوته الأزرق الجميل ونعليه المضفورين بالحرير ... كل هذه أيها السادة الطيبون، صارت الآن

رمادا في فرن المطبخ!

كانت ضخامة هذه التضحية تؤكد فداحة الخطر، وحل الصمت الثقيل ... وانفتح الباب أخيراً بلا ضجة، وظهر الأستاذ بانكراس . كان يرتدي بشكير حمام طويلاً. أضفى عليه مظهر عضو برلمان روماني فنهض الجالسون، وراح هو يستند إلى المدفأة.

– أيها الأصدقاء، قال، أنا أطلب أولاً منكم أن تتمالكوا أنفسكم، فأنتم رجال، وأعتقد أنكم قادرون على تحمل صدمة نبأ خطير. إن واجبي والمصلحة يحتمان عليّ أن أنذركم فقد صار مؤكداً أن المرض الذي يتحدث عنه الجميع، هو الطاعون.

– هذه إذن إرادة الله، قال تاجر الجوخ في خشوع. وظل الآخرون برهة صامتين كالأحجار. ثم سأل الجابي، في صوت بدا خافتاً.

– هل رأيت المصابين بالطاعون؟

– لقد تم الاعتراف الآن، قال الأستاذ بانكراس، بأن الحمّالَيْن اللذين تفحصتهما ذلك اليوم قد ماتا بالطاعون، لأن الثالث، الذي كان يعمل معهما، مات بدوره ... وقد حضر طبيبان كبيران من مونبلييه على عجل لأخذ العينات، ولم تتشكك نتائجهما أي شك في طبيعة المرض.

من ناحية أخرى، فالشائعة التي ثارت حول موت الجراح وكل أسرته، أكدها لي السادة قضاة البلدية، الذين كانوا قد احتفظوا بهذا النبأ الخطير طي الكتمان. ويمكننا أن نخمن أن هؤلاء المساكين قد ماتوا، هم أيضاً، بالعدوى التي التقطها الجراح الذي عالجه.

عندئذ قال المثقف نوربرت، الذي كان قد وصل من المدينة:

– يا أستاذ، أعتقد أن بمقدوري أن أطمئنك، لأنني عائد من لقاء مع واحد

من أصدقائي، هو مساعد طبيب المستشفى، وقد أعلن لي أن العدوى هي في واقع الأمر بالعيادات، وأنها حادث يحدث كثيراً بهذه الأماكن وأن العيادات تعد أماكن مجهزة لمواجهة الطاعون، وأنه من المؤكد جداً أنها لن تخرج خارج العيادات.

– بل مؤكد جداً قال الأستاذ بانكراس، أن العدوى تنتشر هذه المرة خارج العيادات وفتح جاران الشاب عينيه على اتساعهما ثم فغر فاه، ولكنه لم يستطع الكلام.

– الطاعون! صاح القبطان.

– نعم الطاعون، قال المثقف .

– وأين انتشر؟ سأل الأستاذ باساكاي، الذي حافظ على هدوء أعصابه .

– في مكانين أو ثلاثة، قال الطبيب. فبميدان لينش، مات بحار يدعى إيصالين به منذ أكثر من أسبوع. وبنفس اليوم مات حائك يدعى كريبس مع كل أسرته بميدان القصر. وأخيراً، هذا الصباح، رأيت امرأة تدعى مارجريت دويتان تموت على نحو مستفحل، ولكني أعرفكم أن المدينة كلها في خطر.

وراح الأستاذ بانكراس، في الصمت المطبق، يجلس على مقعد، ويشرب بضع جرعات من صحن الحساء الذي جاءت له به العجوز آليت.

– إن أهل المدينة في خطر، قال تاجر الجوخ أخيراً، بسبب أخطائهم وجرائمهم، التي لا تحصى، والتي استمرت منذ وقت طويل. لقد صبر الله حتى الآن عليهم ولكن يبدو لي أن غضبه قد بدأ، وأنه لن يتوقف قريباً.

– إن أستاذنا الطبيب بانكراس، قال المثقف، ربما يعرض علينا الأشياء من جانبها القاتم.

– إني أرى الأمور قاتمة، قال الأستاذ بنكراس، لأن الموت الذي شاهدته كان قاتماً تماماً.

– لو أنه كان الطاعون الأسود، قال القبطان، فلابد وأن تصاب به كل المدينة. لأنه يكفي فقط أن تنظر إلى مصاب بالطاعون، فشعاع النظر كاف لنقل المرض.

– ليس الأمر هكذا، قال الأستاذ بانكراس. لكنه من المؤكد أن الأفكار الثاقبة التي تدعو للمرض ستنشره بسرعة عجيبه على أنسام الرياح.

– ولكن الآن، سأل الأستاذ باساكاي، ما الذي يتوجب علينا فعله؟

– بالنسبة للحظة الحاضرة، فالخطر ليس داهماً. فنحن نتمتع هنا بجو رائع، لأننا في أعلى مكان بالمدينة وهو الذي تطهره كثيراً ريح الشمال. لكن علينا اتخاذ بعض الاحتياطات. على سبيل المثال علينا ألا ندع الأطفال يخرجون من الحديقة التي تجاور التل، حتى لا يتمكن أي غريب من أن ينقل لهم عدوى. وعلينا نحن أنفسنا، وكذلك على نسائنا، ألا ننزل إلى المدينة، إلا في حالة الضرورة، وألا نذهب على الإطلاق للأحياء المحيطة بالميناء.

وعن التموين والغذاء، أنا أنصح بالإتيان به من جهة التلال، وأبعد مكان ممكن، لأن العدوى تنتقل أيضا بالمواد الغذائية. وأخيراً فكل من ستحتم عليهم ظروفهم مغادرة ساحتنا للذهاب إلى أعمالهم عليهم عند عودتهم الاستحمام بالماء والخل، والاغتسال بالصابون من أعلى رؤوسهم حتى أخمص قدميهم بعناية شديدة. هذه هي الاحتياطات الإجبارية، ولكنها تكفي لحمايتنا، على الأقل هذه الأيام، أما إذا استفحل الموقف، فسنراجع كل شيء في وقته.

صباح اليوم التالي، جمع الأستاذ بانكراس بمنزله الجزار والخباز، والبقال. وأعطى كلاً منهم بضع قطع ذهبية وقال لهم:

– يا أصدقائي، لابد من التفكير في المستقبل. سوف تمتطون جيادكم، وتذهبون في رحلة إلى قرى الشمال، التي لابد وأنها مازالت بعد لم تنلها العدوي. أنت ياروмولد، قال للجزار، عليك أن تحضر لنا بضع خراف حية، وخمسة أوستة خنازير مملحة. وأنت أيها الخباز عليك أن تأتينا بقدر من أكياس الدقيق الجيد التي يستطيع كرمك أن يأتي بها. وأنت قال أخيراً للبقال (الذي كان يدعى بتيون، ولكن البعض كانوا يدعونه باميبت)، أحضر لنا البقول الجافة، كالحمص والعدس، و لكن أحضر لنا قبل كل شيء ستة براميل، لا من الخمر، إنما من الخل، ومن أقوى صنف تجده.

– لدي الآن أربعة براميل موضوعة بمخزني، قال باميبت، وأعتقد ...

– أعتقد، قاطعة الأستاذ بانكراس، أنه لو لم يتوقف الوباء، سنندم على أننا لم نأت منه بما يكفي ... ومن ناحية أخرى، أحضر لي بضع حزم من السذّاب والنعناع، وإكليل الجبل والأبسنت ؛ وسوف ننقعها بالخل، لنحصل على شراب يدعى خل اللصوص الأربعة، كان له تأثير عجيب أثناء وباء الطاعون الذي حل بطولون، منذ ستين عاماً. وهو ليس دهاناً للمرض، ولكن هذا الغسول واقٍ ناجع لأنه يقضي على الحشرات غير المرئية التي تنشر العدوى. والآن، اذهبوا، يا أصدقائي ولكن لا ترحلوا معاً، حتى لا تثيروا الانتباه – وأهم شيء، هو أن تهتموا بتغطية عرباتكم بغطاء يداري حمولاتها ... ورحلت العربات الثلاث في التو، ولم تعد إلا مع انقضاء اليوم. وقد قام الرجال الثلاثة بمهمتهم. فقد ذهب الأول إلى جهة الألاووش، حيث توجد طاحونة القمح، والآخر توجه إلى سيميان، والثالث إلى أوبان.

وقد أعلنوا أنهم لاحظوا هدوءاً على طول طرقهم، وأن الفلاحين الذين موّنوهم لم يطرحوا عليهم أية أسئلة. ولكن في نفس هذه اللحظة، أعلن الأستاذ جاران الشاب (الذي كان قد ذهب لشراء البودرة) وهو واقف على بعد (لأنه

لم يكن قد استحم بعد بالخل والماء) أنه رأى الشوارع خالية تقريباً، وأن عدداً كبيراً من المحلات قد أقفلت أبوابها، وأنه التقى ببعض الأشخاص الذين يسيرون مرتدين أردية تغطيهم من أعلى رؤوسهم لأخمص أقدامهم مبللة بالخل ... وكان يمكنه أن يستمر في الحديث طويلا لو أن الطبيب لم يتعجل الذهاب لقضاء حاجة.

وكافأ تقرير المموتين بشكل ما تقرير جاران الشاب، ولم يتخذ المجتمعون بالساحة أية احتياطات أخرى، وذهب الجميع للنوم كما تعودوا، فيما عدا الأستاذ بانكراس الذي راح يذهب ويجيء بغرفته حتى الفجر.

صباح اليوم التالي، حوالي الساعة الثامنة، وعندما خلا كل واحد إلى مشغولياته سمع فجأة صوت الأجراس بكنيسة بالوا، ثم بكنيسة سان شارل، ثم بكنيسة أكول. ولم يندهش أحد، فقد كان معروفاً تماماً أنه كانت تشيّع كل يوم عشر جنازات. لكن النسيم حمل أيضا أصوات أجراس كنيسة فارو، ثم أجراس كنيسة أندوم، ورن القطالونيون أجراس كنيستهم بدورهم.

وخرج الأستاذ بانكراس من بيته، وراح يتنصت. كان جالساً على حافة الحاجز، وكان المشقف والقبطان يتنصتان أيضاً، حين علت أجراس كنيسة الجوليبيت بهذا النواح، ثم سمعت أجراس كنيسة الإستاك، ثم كنيسة سان ـ هنري، ثم كنيسة الروف البعيدة التي حملت النسائم بعض رناتها ضمن هذا الحفل الحزين.

ـ أنا لا أحب هذه الموسيقى، قال الأستاذ بانكراس .

ـ من المؤكد أن ثلاثية السيد لولي الراقصة أرق على الآذان، وأن لها وقعاً ألطف على النفس... ولكن لماذا يحدوني الاعتقاد للآن بأن هذا ليس طاعوناً، لقد قال لي صديقي المساعد بالمستشفى إننا في فصل الحميات الخبيثة، وإن مستنقعات الهوفون تنشر في هذه الآونة سمّا نافذاً هو السبب في هذه العدوى.

كـمـا توجـد في نفس الوقت، عـودة انتشار للزهري بسبب هذين الفـيلقين العسكريين الآتيين من طولون، كما أن صديقي المساعد ...

- صديقك المساعد، قال بغتة الأستاذ بانكراس، ليس إلا مصرانا محشواً، لأنه يعتقد أنه عالم لمجرد أنه يعطي الحقن الشرجية. قلت لك إن الطاعون طليق بالمدينة وإن نصف هؤلاء الناس على الأقل سيهلكون.

- أنا لا أتشكك في علمك، قال المثقف بتواضع، ولكني آمل أن تكون مخطئا للمرة الأولى في حياتك ... وعلى كل حال، بما أنني عليَّ الذهاب للمدينة للحصول على ثمن دروس هذا الشهر، سآتي لك بالأنباء الطازجة قبل الظهر.

- أضرع إلى الله، قال الأستاذ بانكراس، ألا تأتي لنا معك بشيء آخر.

ونهض المثقف، وبغير حتى أن يتمكن من الابتسام، قدم التحية في أدب، ومشى بخطوات سريعة. ونظر له القبطان وهو يبتعد بنوع من القلق، ثم نهض، ووضع يده على فمه في وضع النداء :

- يا نوربرت!

وتوقف المثقف برهة، ثم استدار عائدا .

- إذا أصابك الطاعون، صاح القبطان، لا تعد لتموت هنا!

ورفع المثقف ذراعيه مقوسين لأعلى رأسه، وقفز قفزة خفيفة تشبه قفزة راقص الباليه، ونزل في الوضع راكعاً، وبأطراف أصابعه بعث قبلة باتجاه الساحة. ثم وضع قبضتيه على فخذيه ونزل المنحدر راقصاً.

وقضى الأستاذ بانكراس يومه بمكتبه، يراجع كتب الطب والتاريخ التي لديه. وحوالي الظهر، راحت العجوز آليت، تفرش غطاءً على الطاولة الصغيرة،

أمام النافذة بغير أن تفوه بكلمة، ثم قدمت في التو، على طبق كبير من الفضة، سمكه قاروس كبيرة مشوية وضعت على مهد من الينسون. وأثناء سيرها أمام سيّدها، غمغمت بصوت خفيض:

– ستبرد ...

ورد الأستاذ بانكراس الغارق بأنفه في كتاب ضخم، بصوت مكتوم ولكن بلا حشرجة:

– لتبرد ... ولكن لاتقولي شيئاً آخر.

كانت الأجراس تدق باستمرار من على البعد، وراح الأستاذ بانكراس يقرأ: «خذ غصناً من السُّذاب من شواشي النبات، وفص ثوم، وربع جوزة، وفص ملح في حجم الحمصة . وابلعهم معاً كل صباح. وسوف تأمن وتقي نفسك من الطاعون» .

وهز كتفيه، وقلب الصفحة، فوقع على وصفة مرهم الطبيب الألماني ايستمباخ . الذي كانت وصفته معقدة جداً، وبدت له مبهمة، لكن مؤلف الكتاب أضاف ملحوظة تقول: «إنه تمت تجربة هذا المرهم على أربعة عشر شخصاً ماتوا في التو، وهو ماجعلنا لا نرغب ثانية في أن نعرض مرضى آخرين على هذا الطبيب.

ومع ذلك، فقد استمر يواصل قراءته طيلة اليوم، واضعاً صدغيه على قبضتيه، بغير أن ينظر إلى السمكة البديعة التي تنتظره على مهد الينسون ... وقرأ مائتي وصفة على الأقل ؛ لم تكن تحتوي إلا على الترياق، والنبات العشبي البري (البربح)، وثمار العرعر، وملح النوشادر، والأنتيمون المعرق، والبصل الأبيض والبزاق المصحون ...

وكانت باقي الكتب تتحدث عن الوصفات الطبية، وعن تخفيف الآلام،

وعن بعض حالات الشفاء المدهشة. ومع ذلك فقد لاحظ المؤلفون، في استنتاجاتهم أن المرهم الوحيد الناجع حقاً كان هو الصلاة للقديس روش وبركات القديس فرانسوا. وعند هبوط المساء، أغلق الطبيب البارع كتابه، وقام، وراح يحلم أمام نافذته.

كان بعض الأطفال يلعبون بالساحة لعبة القفز، وبالبلي، ولعبة الحجلة ... وراح ينظر بحزن لهؤلاء الأبرياء، المليئين بالحياة والمرح، والمهددين بالموت المخيف، إلى أن توقف اللعب، ورأى أن الأطفال ينظرون جميعهم لنفس الاتجاه، بفضول قلق، وفجأة ولوا جميعهم أدبارهم إلى منازلهم، التي انغلقت أبوابها خلفهم.

وفتح الأستاذ بانكراس نافذته، وانحنى ليرى سبب خوفهم. وعلى الطريق الآتي من منحدر سان ميشيل، رأى موكباً رهيباً يتقدم نحو المكان. كان رجلان، يرتديان القمصان الرمادية، ويخفيان وجهيهما تحت أغطية واقية، ويضعان بأيديهما قفازات سوداء يسيران بالمقدمة. كانا يحملان مشعلين بأيديهما اليمنى، وبأيديهما اليسرى يحملان أجراساً نحاسية يقرعانها بلا توقف. وخلفهما، كانت تصر محاور العجلات، وترن حوافر الجياد على بلاط الطريق ... وعند اقترابهم، ميز الأستاذ بانكراس مايشبه فرقة ترتيل وتعرّف من فوره على كلمات النواح.

وهرع الناس جميعاً إلى نوافذهم، وراح يمر أمامهم الموكب المخيف الطويل... كانت به أربع عربات، يرافقها المقنعون بالأردية السوداء، وكان كل واحد منهم يحمل شعلة، وينشد بالكلمات الرهيبة النائحة من وراء قناعه المخيف.

كان الموتى مكومين مختلطين، فقد أتوا بهم على هذه العربات، وأحياناً، ومن أعلى النوافذ، كان يشاهد ذراعاً متدلياً، أو أفخاذاً تترجرج على طرف سطح

عربة بلا حافة، أو تشاهد ذقنا مرتفعة صوب السماء ومعها فم مفتوح ... وكان الكثيرون من الموتى عرايا وعلى العربة الأخيرة، التي كانت مائلة للوراء، محملة بكمية من الجثث كانت جثة بكامل ملابسها في ثياب الصيد وحذاء طويل برقبة من جلد أزرق، وصدرة من الدانتيلا البيضاء أسفل ذقن سوداء كالفحم...

وعند مرور راهب من المترنمين أسفل نافذته، استوقفه الأستاذ بانكراس:

– أيها الأخ، إلى أين أنتم ذاهبون؟

– إلى مقبرة الشارتريين، قال الراهب السامل. فلم يعد هناك مكان لا بمقبرة سان – شار ولا بسان ميشيل.

– لكن كيف حدث هذا في مثل ذلك الوقت القصير ...؟

– لقد حدث أن راح الناس يتساقطون كالذباب، ولم يكن لديهم حتى الوقت للاعتراف ...بالنسبة لي، أتصور أن اختباري بالحياة الدنيا قد انتهى تقريبا، لأني مصاب بخراج كبير يندلع تحت ذراعي الأيسر، وأعتقد أنني سأصل إلى المقبرة، ولكني آمل ألا أرجع من هناك ...

وأثناء ما كان يتكلم، سال دم أسود من ركن فمه. فأغلق بانكراس نافذته بعنف وجرى يغسل وجهه بالخل، حين راحت الأناشيد الجنائزية تتباعد ... ولم يجد الطبيب حاجة لأن يستدعي جيرانه، فقد توافدوا عليه متجمهرين، كما لو أنهم يستنجدون بحمايته. وازدحم البهو، ولأنه لم يتسع للجميع، رجاهم الأستاذ بانكراس أن يخرجوا للحديقة ليناقشوا فيها الموقف.

وأثناء ماراح كل هؤلاء الناس يتخذون أماكنهم، شوهد الأستاذ باساكاي يصل، كان الجابي يسير مرتدياً ملاءة مبلولة بالخل، لأنه كان قد عاد من المدينة. وكان شديد الشحوب، ووجهه متقلص بنوع من التكشير، لكن نظرته كانت واضحة ولامعة كالعادة، لأنه كان رجلا شجاعاً .

— يا صديقي العزيز، قال للطبيب، أردت أن أتأكد من الأمر بنفسي فزرت عدة أحياء تحت رداء منقوع في الخل، كي أتجنب، لو كان ذلك ممكنا، العدوى. إن الموكب الذي مر أمامكم أصابكم جميعا بالرعب، حسنا، لكم أن تعرفوا أنني رأيت على الأقل خمسين موكبا كهذا، وعدد منها كان به على الأقل عشر عربات للجثث. فمنذ يومين، انتشرت العدوى كالصاعقة، من حي القطالونيين إلى حي الإستاك، وتطلب الأمر نزع الحديد عن خمسين مسجون محكوم عليهم بالأشغال الشاقة، وُعدوا بالحرية مقابل أن يحملوا جثث الموتى من الطرقات. لقد رأيت صديقي إستل، قاضي البلدية، وكل هؤلاء السادة كانوا في قمة اليأس. فقد مات اثنان وثلاثون جرّاحاً وستة عشر طبيباً في ثلاثة أيام. وقد تم استدعاء الأطباء من مونبلييه وطولون، وإكس وأفينيون. وقد وصل منهم، كما قيل لي ستة عشر هذا الصباح. وفي الساعة الثالثة، مات أحدهم ... ويقوم رجال الدين بالمدينة بحملة، فيها تفان رائع. لقد رأيتهم يركضون إلى جوار الرصيف، ليتلقوا اعترافات الموتى. هذا ما أردت أن أقوله لكم ... أما الآن، وبما أنني لست واثقاً أنني تجنبت العدوى، سأذهب وأغلق على نفسي ثلاثة أيام في كهف منزلي، الذي نقلت إليه بعض الغذاء. ولن أخرج إلا في اليوم الرابع، مع تيقني من أنني لم أصب بالعدوى. أما إذا كانت المصيبة قد أصابتني، فدعوني أموت وحيدا، ولاتعرضوا حياتكم للخطر لكي تنقلوني إلى مدفن، فقط أقيموا بناء على الباب وعلى النافورة.

— إنك تخاطر هكذا، قال تاجر الجوخ، بأن تموت بغير أن تعترف؟

— أنا أخاطر بذلك، قال باساكاي، من أجل هؤلاء الأطفال، وأتصور أن يسوع الطيب، الذي يحبهم بصفة خاصة، سيتكرم بأن يتلقى بنفسه اعتراف العجوز الجابي النصاب الذي هو أنا.

في أعقاب هذا الحديث المدهش، استدار الأستاذ باساكاي على عقبيه،

ومضى مسرعاً إلى كهف بيته، حيث كانت بانتظاره ست زجاجات من الخمر حول أربع دجاجات مشوية.

- هاكم رجلاً عظيماً أميناً، قال الأستاذ بانكراس، وقد ضرب لنا مثلاً عظيماً. الآن، اجلسوا جميعكم على العشب، واسمعوني.

لقد طرحت على نفسي، منذ عدة أيام، سؤالا شديد الخطورة، ألا يجب علي، بما أنني طبيب، أن أذهب إلى المدينة، وأعالج هؤلاء الآلاف من البؤساء؟ إنني هكذا سأخاطر على الأغلب بحياتي، ولكن أليست هذه ميتة مشرفة لطبيب؟

- لا، لا، صاحت عدة أصوات.

- ابق معنا ابق معنا! قالت النساء.

- انتظروا لحظة. قال بانكراس. بما أنني أنا الذي عليّ أن أقرر سلفاً الطريق الذي أنتهجه. أنا أعرف الطاعون، لأنني عالجت الآلاف من التعساء أثناء وباء هامبورج، بألمانيا. ولقد تحدثت كثيراً عن هذه المصيبة، مع زملائي، ودرست كل ما كتب في هذا الموضوع، ليس فقط باللغة الفرنسية، ولكن باللاتينية، والإنجليزية والألمانية. ولقد وطدت عزمي، وأنا أوافق على رأي السيد بوير، الطبيب العظيم ببحرية طولون. فالطاعون، كتب يقول، مرض متوحش لا يشفيه أحد يخالطه، لذا فالوقاية الحقيقية منه هي في النار والهرب.

وكان المؤرخ الإغريقي توسيديد مع هذا الرأي. وتوجد عدة مئات من المراهم، ولكنها أثبتت بالتأكيد أنها لا تفيد بشيء، إن لم تعجل بنهاية المرضى، وهذا، في مجموعه، ليس سراً، ولكنه ليس الهدف الذي نود بلوغه.

- لذا فأنا أعتقد أن رعاية المصابين بالطاعون، هي رعاية للموتى، على حين أن واجبنا، هو الحفاظ على الأحياء ...

وسمعت همهمة طويلة، وبعض تنهدات الارتياح، وحتى بعض الضحكات

– هل من الممكن، تابع بانكراس، أن نحافظ على أنفسنا من الكارثة؟

وانتظر بضع ثوان، ثم قال بقوة:

– نعم.

عند ذلك، سمع صوت الأستاذ باساكاي، طالعاً من نافذة الكهف، قائلاً:

– قال لي إستل إنه لم يكن هناك مريض واحد لدى كهان دير سان فيكتور، الذين اتخذوا احتياطهم وبنوا حوائط على جميع فتحات صوامعهم .

– لقد قلت بالفعل، صاح بانكراس، إنه في كل حالات الوباء. كل الجماعات الدينية المغلقة على نفسها لم تسمع حتى بالحديث عن الكارثة التي أرعدت حول صوامعها. حسناً، فيا أصدقائي، سوف نتبع نحن نفس المثال، الذي لا يشرِّف الرهبان الذين من واجبهم التضحية بكل شيء من أجل المحبة المسيحية، ولكنه مثال محبَّذ تماماً للمواطنين الذين يعولون عائلات. إن علينا أولا أن نقبل، طواعية، انضباطاً صارماً، فيجب ألا يخرج من هنا أحد ابتداء من اليوم.

وتحدث تاجر الجوخ الفظ بخشونة:

– وماذا عن القداس؟ إن علي أن أنزل كل يوم، مع كل عائلتي، إلى كنيسة المادلين– وأنا أنبِّه هؤلاء الذين لايذهبون للقداس إلا في النادر عادة لأن هذه ربما تكون هي اللحظة التي عليهم فيها أن يشهدوا القدّاس كل صباح. وبالأحرى مرتين بدلاً من واحدة!

لم ثبت نظره على الأستاذ بانكراس، الذي لا يمكن لأحد أن يتخذه مثالاً على الورع.

– أنا أعلمك، قال الطبيب، إنه يجب الإقلاع عن الذهاب للقداس بعض الوقت . فالله الرحيم الذي يرانا يعرف جيداً أن هذا لا يحدث لنقص في الحماس، فهو لا يجهل بالفعل، أن الكنيسة، شأنها شأن كل أماكن الاجتماع، تعد مأوى خطراً للوباء، والجميع هنا يعلمون مدى صلابة إيمانك –ولكن إذا عدت من القداس حاملاً الطاعون إلى مجتمعنا الصغير، فهل ستكون على هذا النحو مسيحياً صالحاً؟

– إنني أجد، قال تاجر الجوخ بحماس، أنه لابد للمرء أن يكون كافراً كبيرا لكي يفكر في أنه يمكن له أن يصاب بالطاعون عند حضوره القداس! وأقول إن المسيحيين المؤمنين ليس لديهم مايخشونه من المصيبة! وبالنسبة لي، طالما تقدر ساقاي على حملي، فلن أتخلف يوماً واحداً عن المشاركة بالتضحية المقدسة . فلم يحدث أبداً أن تخلفت منذ أن تناولت أول قربان، ولن أفعل ذلك غداً!

– بهذا الشكل قال الأستاذ بانكراس، هل نعتبر أنك اتخذت قرارا بأن تحضر لنا العدوى والموت؟

– أنا ليست لديّ النية على تقرير شيء. فالله وحده الذي يقرر، وكل جهودك للإفلات من إرادته لن تكون هزلية فحسب، وإنما ملحدة. فإذا كان يطيب له أن يرسل لنا الطاعون أو الموت، فمن الجنون أن تزمع مقاومته، وأنا لا أساندك في هذا المشروع الإجرامي، الذي لن يفضي لشيء. لذا فأنا أعلمك بأنني غداً صباحاً سأذهب للكنيسة مع كل عائلتي، وبعد ذلك، سأذهب إلى سان – برنابا لكي أرى أخي، الذي لم أسمع خبراً عنه من خمسة أيام، وسأعود لبيتي غداً مساء، مهما كان رأيك. وأعقب ذلك، بأن كبس قبعته على رأسه، وخرج.

– هاكم أبلهاً كبيراً، قال الأستاذ بانكراس، قد يكلفنا، ربما، حياتنا.

– ولكن لا! فمن السهل أن نحبس كل عائلته في كهف ...

– إذا عاد غداً مساء، فهذا ما سنفعله، قال الأستاذ بانكراس .

– ولم لا نحبسه فوراً؟ سأل جاران الشاب.

– لأنني، قال الطبيب، آمل في أن يعيده ماسيراه غداً إلى عقله، فقد كان يرتجف، وهو يحدثنا عن الخل المنقذ. لنتحدث الآن عن تنظيمنا، بما أننا سنضطر للحياة داخل الحصار، فهل لدينا تموين يكفي؟

– على كل حال، قال الأستاذ جاران، لن ينقصنا الماء. فالنافورة لم تعط أبدا مثل هذا القدر الذي تعطيه الآن.

– أتصور، قال الطبيب، أنه سيكون من الحكمة ألا نتعاطى ماءها. فهذا الماء يأتي من نبع الشارتريين، الذي يتغذى على مياه الهوفون –ويكفي أن يسقط مصاب واحد بالطاعون في هذا النهر، أو مجرد أن يغسل فيه خراريجه، لكي يصبح هذا الماء مسموما– نحن لن نشرب إلا ماء البئر.

– لدي بئر بعمق أربعة أمتار بمنزلي، قال الأستاذ جاران، يكفي، في تقديري لملء ألف جرة.

– وعندي، قال بنيون البقال، بئر على عمق مترين، ولكن به الآن ما يكفي طوال العام ... فإذا سحبت منه كثيراً من المياه للري، يخف منسوبه قليلاً، ولكنه يعود لمستواه في الليل ...

– إذن، قال الأستاذ بانكراس، لاتوجد خشية بالنسبة للماء ... والآن، الغذاء . وتقدم بنيون البقال.

– بما جلبناه في رحلتنا الأخيرة، فإن مخازني ممونة جيداً، فلدي أولا دستة كاملة من براميل الأنشوجة، التي جلبتها من طولون قبل الكارثة بزمن طويل،

وعشرة صناديق من سمك المورة المملح . ولدي ملء مخزن من البطاطس، وخمسة براميل من زيت الزيتون، وحزم كبيرة من التوابل، وخمسة أوسقة أكياس من الحمص (هاجمها السوس بعض الشيء، ولكن يمكن تنقيتها) ومائتا رطل من العدس. ثم قال ضاحكاً، ولدي ثمار قرع متخشبة!

وكان قد اشترى بالفعل، من قبطان إسباني، شحنة صغيرة من القرع، ليس لها من القرع إلا الاسم، كانت عبارة عن كرات من الخشب، تشبه الكرات الخشبية الكبيرة التي تستعمل في الأفران، وكانت في صلابتها تقريبا. ولكن كانت عندما تشق من منتصفها، تجدها طيبة وبها زبد أبيض، وذات نكهة، وسمينة اللحم. مع ذلك فقد فزع زبائن محل باتريس، من شكل ورنين هذا الخضار الغريب، وامتنعوا عن شراء الجزء الأكبر من الشحنة . وكانوا يعزونه قائلين:

– إن قشرتها سميكة، وهذا يجعلها تظل طازجة أربع سنوات!

لكن ابنه، الذي كان نموذجاً فكهاً، اقترح أن يفتتح بها فابريقة لتصنيع كرات القرن .

– هل ظل لديك منها الكثير؟ سأل الأستاذ بانكراس.

– لدينا مخزنان مليئان حتى السقف! قال الابن.

– لربما تنقذ حياتنا هذه الكمية. قال الطبيب. وأنت، أيها الخباز، ما هي كمية الدقيق التي لديك؟

وفكر الخباز الوسيم بتركيز، لأنه كان بطيء التفكير، ثم قال أخيراً:

ـ لدي اثنا عشر طرداً، تساوي على الأقل اثنا عشر كيساً من مائة رطل.

– وكم رطلاً من الخبز تصنع هذه الكمية؟

– تصنع الضعف قال الخباز. لكن ما ينقصني هو الخشب! فليس لدي منه سوى ما يكفي أسبوعاً.

– لو لزم الأمر قال الأستاذ بانكراس سنوقد بأخشاب أرضيات منازلنا. ولكننا لم نصل لذلك بعد!

– ثم إنه، قال جاران الشاب، لن يكون الشتاء قاسياً، ولدينا من الخشب مؤونة في كل كهوف منازلنا.

وسمع من النافذة ثانية، صوت الجابي يقول:

– لقد تبقت لدي عربتان على الأقل!

– كيف حالك الآن؟ صاح بانكراس.

– محرور بعض الشيء، صاح الجابي، ولكني أعتقد أن ذلك بسبب زجاجتي النبيذ اللتين شربتهما، واللتين أنعشتاني جداً!

– بالتأكيد هو النبيذ الذي رفع حرارتك، صاح بانكراس ثانية. حاول الآن أن تنام!

– لا أستطيع! صاح الجابي، فما تقوله يهمني جداً! استمر! استمر! اسأل الجزار عما لديه!

وتقدم رومولو الضخم، خجلاً بعض الشيء، وقال في عجلة:

– لدي نصف بقرة، وعجل وثلاثة خراف، فلو كنا مائة شخص، سيكفينا هذا خمسة عشر يوماً. وربما ثلاثة أسابيع، إذا حُفظَت اللحم ...

– إن كهفي شديد البرودة، قال الطبيب، وأضعه تحت إمرتك.

– وإذا استمر الوضع أكثر من ثلاثة أسابيع؟ قال الجابي.

– الواقع، قال الطبيب، أنه يوجد باصطبلي بغلي، وبغلك، وحصانا الجزار.

– هل تريد أن تأكل خيولي؟ قال الجزار مرتعباً.

– نحن نريد أن نعيش، قال الطبيب. وأنت أيضاً تريد أن تعيش. فإذا أكلناها، سنشتري لك أجمل منها فيما بعد.

وأخيرا، وفي نفحة كرم، راحت كل امرأة تسرد قائمة تموينها المخزون، وكان من المألوف، في تلك الحقبة، أن تملأ الدواليب، وتشحن، قدر الاستطاعة، بما أن المؤونة –حتى في المدن الكبرى– لم تكن دائماً مؤمّنة كما هو الحال اليوم.

وراحت الجدات تزهون بهذا العدد الهائل من برطمانات المربى الذي لديهن بما جعل جاران الشاب يتشكك في أنهن يبالغن (ولم يكذّبهن) وأعلنت ربّات البيوت عن ثلاثين قامة من السجق الجاف، وعدة دزينات من أفخاذ الخنزير المدخنة، وأكياس من أبي فروة الجاف، ودقيق الأذرة، والحمص، والعدس والفاصوليا، وكل ذلك بكميات كبيرة مما جعل الأستاذ بانكراس يفرك يديه من السعادة، وأعلن:

– أيها الأصدقاء أعتقد أننا ببعض الاقتصاد نستطيع الصمود على الأقل أربعة أشهر. ومن الآن فصاعداً، سينضج الخضار الذي سنزرعه بحدائقنا، وهو ماسيموننا شهراً أو شهرين زيادة، لواقتضى الأمر ذلك، أي أننا نجونا!

عندئذ، بادر القبطان، وقال، بطريقة رجل ذليل:

– وأنا؟ ألن يطلب مني شيء؟

– الرجل الوحيد، قال بانكراس، ليس لديه الكثير من التموين ...

– لأنك نسيت الشيء الأساسي، قال القبطان. فأنا، أستطيع أن أضع تحت

إمرة الجماعة أربعة براميل كبيرة من النبيذ الجيد. أي، حوالي ألف زجاجة، وبرميلين صغيرين من الروم، وبرميلا صغيراً من العرق، وأكثر من مائة زجاجة من الخمور المختلفة، كالماراسكان، والأجارديانت، والاشنابس، والكيرش، والبراندي، التي هي أفضل علاج في العالم!

وهلّلَ له الجميع، بصوت خفيض.

– والآن، قال الأستاذ بانكراس، أوصيكم بأن تذهبوا وتتعشّوا بشهية. ولكن عليكم أن تأتوا بعد ذلك مباشرة لتصطفوا أمامي، وأفحصكم واحداً بعد الآخر، لكي نتأكد من أننا لانحبس الثعلب مع الفراخ ... هيا إلى اللقاء.

وعلى البعد، كانت الأجراس تدوّي باستمرار، لكن الجميع استجمع شجاعته، بسبب خطة الطبيب.

وبينما كان كل منهم يعود إلى بيته، سمع مرة ثانية صوت الأستاذ باساكاي الذي نادى على القبطان، وهرع تاجر العبيد إلى النافذة.

– ماذا حدث؟ هل ساءت حالتك؟

– لا، قال الجابي بصوت قوي. لدي إحساس بأنني مأشفى. ولكن أعتقد أن شفائي سيكون أسرع لو أنك جئت لي بواحدة من تلك الزجاجات التي تحدثت عنها منذ قليل!

– هذه فكرة معقولة، قال القبطان. ومضى سريعا باتجاه كهف بيته.

بعد العشاء، فحص الأستاذ بانكراس الأطفال أولا، ولأنهم لم يغادروا الساحة منذ أسبوعين، لم يستغرق فحصهم طويلا. ثم جاء بعدهم دور الرجال، الذين ذهبوا جميعهم تقريبا للمدينة، وكان فحص الطبيب لهم دقيقاً.

كان يجعلهم يتمددون عارين على المنضدة، وكان يتفحص أولا جلودهم،

ثم يتشمم أنفاسهم، ويتفحص ألسنتهم وحناجرهم، ويجس نبضهم، ويتلمس بطونهم، وآباطهم، و ثنيات أفخاذهم، على ضوء أربعة مشاعل. وكان كل مرة يقول فيها: «هذا سليم» كانت العجوز آليبت تقترب، وتدعك الرجل بخل اللصوص الأربعة، ليقفز بعدها من على المنضدة، منفجراً بالضحك.

وعند حوالي منتصف الليل، جاء دور النساء، ثم الآنسات وجاءت أربعة ثرثارات لتحملن المشاعل. وتلاحظ أن الأستاذ بانكراس كان يبذل عناية شديدة لهذا الفحص، فكان يظل أحياناً أكثر من دقيقة يتحسس جلد آنسة خجولة، ثم يفتش من على مقربة شديدة، ولكي يقال هكذا من طرف الأنف، عن أقل أثر لخدش، أو لحبة مهما صغرت، ذلك لأن الطاعون مرض شديد المكر يبدأ أحياناً بأقل ضجة ممكنة. وأخيراً حوالي الساعة الثالثة صباحاً، انتهى كل شيء، وأعلن الطبيب بكل تأكيد أن الطاعون لم يدخل في مهجعهم، وكان ذلك نبأ سعيداً.

غير أن جاران لاحظ أن الأستاذ كومبارنو وعائلته لم يأتوا للكشف، وأن المثقف لم يعد من المدينة.

— إني حانق من هذا الشاب، قال بانكراس، وغيابه ليست له دلالة طيبة. أما بالنسبة لتاجر الجوخ، فسنرى في الغد.

وذهب الجميع للنوم.

وأثناء ما كان الأستاذ بانكراس يخلع ملابسه، خيل له أنه يستمع لشكوى تأتي من الكهف ... فاقترب لكي يتأكد من أن الأستاذ باساكاي، ربما يحتضر على كومة من الخشب ... وأرهف أذنيه، وكان ذلك بالفعل صوت الجابي، لكنه لم يكن يتشكّى، بل كان ينشد:

«أيها الراعي المتقلب

اكشف لي عن سر قلبك

فأنا أريد أن أجد في طيات صدارك

طريق سعادتي ... !

في حوالي السادسة صباحاً، جاءت العجوز آليت لإيقاظه، ولم يكن ذلك أمراً سهلاً.

- يا أستاذ، قالت، تاجر الجوخ رحل!

وقفز بانكراس من سريره، وجرى إلى النافذة بقميص نومه وفتحها على مصراعيها كان الأستاذ كومبارنو مشغولاً بضبط أطوال أعنة جواده، الذي كان مربوطاً إلى عربة جميلة. على المقعد الأمامي، كانت زوجته قد اتخذت مكانها، وكذلك بناته الخمس. كن قد جلسن في صحن العربة خلفها، على مخدات جميلة زرقاء.

- يا أستاذ كومبارنو، قال بانكراس، ألم يجعلك الليل تعود عن قرارك؟

- على العكس، قال تاجر الجوخ. لقد قوى من موقفي بتجاهل الطاعون، وبالخضوع الذليل لإرادة الله، بألا أغير عاداتي.

- في هذه الحالة، وبما أنك ستذهب لزيارة أخيك في سان -برنابا، أعتقد أنك سوف تحسن صنعاً لو ظللت هناك.

- ولم؟ قال تاجر الجوخ بغلظة.

- لأنه من أجل أمننا، سنكون مرغمين على أن نتخذ منك ومن عائلتك مواقف قد تأسف لها.

- أنا أريد أن أرى هذا، قال تاجر الجوخ، وهو يضحك هازئاً في زهو.

- ستراه، قال الأستاذ بانكراس. وبغير شك على الأرجح هذا المساء.

عقب ذلك، أغلق النافذة، على حين راح تاجر الجوخ يفرقع بسوطه.

طيلة الصباح، أشرف بانكراس على الأعمال الأخيرة. فقد أمر الرجال أولا بعمل الفتحات في الحوائط المتوسطة للحدائق، حتى يمكنهم المرور فيما بينهم. أثناء ذلك، راح يقوم، بعناية فائقة، بجرد محتويات الكهوف، يصحبه في ذلك القبطان، الذي سجل على كتاب غلافه قديم كميات ونوعية الأغذية المتاحة. وأخيراً، أنزل من السقائف بعض الفرش القديم الذي اتسخ بالزبل، ودم الأرانب، وفرده بالطريق كما لو كان قد ألقي به من النوافذ ... وحوالي بعد الظهر، أقفلت مصاريع جميع النوافذ، ووضعت القضبان بالأبواب.

ثم راح بانكراس، وانحنى على نافذة كهف الجابي، الذي نسيه البعض قليلاً. وسمع وهو مرتعب، حشرجة مكتومة .

– المسكين، قال.

ومع ذلك، نادى عليه ...وفي المرة الثالثة من النداء، سكتت الحشرجة، وحلت محلها فجأة تنهيدة منغمة، واستطاع بانكراس أن يميز الجابي، جالساً على فراش القش، يتمطى فاردا ذراعيه. وهو يدعك عينيه، ويقول، بصوت مندهش:

– أين أنا؟

– أنت بكهفك، قال بانكراس. كيف حالك الآن؟

– إن فمي لزج، وشعري متصلب! قال الجابي ... وأتساءل لماذا أحس في أنفي برائحة روم رهيبة.

وراحت الجماعة عن بكرة أبيها تعمل طيلة اليوم كخلية، كان الأطفال يلعبون بالحديقة تحت رعاية الجدات، فكن يحكين لهم الحكايات عن مجيء الذئب الشرير، الذي لا يؤذي أحداً طالما تركوه نائماً، ولكنه كان يجري هاربا عند أقل صرخة.

لذا كان الأطفال يلعبون في صمت، وإذا أفلتت منهم بالصدفة ضحكة عالية، كان كل القطيع يجري، مرتعباً ليختبئ بالاصطبلات ... وعند المساء، تم عقد اجتماع بخصوص عودة تاجر الجوخ.

– لا يجب السماح له بالعودة، قال جاران الشاب. ولقد أغلقت بابه بالقضيب وبما أنه سيموت بالطاعون، فيمكنه أن يموت في أي مكان .

– سوف يقيم الدنيا، قال الطبيب. وسيذهب بالتأكيد ليشتكي إلى السلطات –ومن رأيي أنه من الضروري ألا نجذب انتباه أحد لنا ... فمن الأفضل أن يتصوروا أننا متنا، أو رحلنا ....

– ولكن، قال بنيون، ما الذي سنفعل بهم؟

– إنهم سبعة، قال الجابي. ولن نستطيع قتلهم جميعاً!

– ليس الآن! قال القبطان. ولكن لا تنسوا أن الطاعون الأسود، هو الموت المؤكد للمصاب به، والموت المحتمل لجيرانه. وأنا أجد أن المهدد بالموت له الحق في قتل المؤكد موته.

– يبدو لي ذلك أمراً معقولاً، قال الأستاذ بانكراس. لكن الأستاذ كومبرانو لم يصب بعد بالطاعون، على الأقل في حدود علمي. فإذا عاد هذا المساء، ستحاول أولا أن نعيده لعقله. ولكنه إذا أصر على أن يجلب لنا العدوى، في هذه الحالة نحبسه في كهف جاران، الموجود بالاصطبل. فإذا صرخ، نكمم فمه. فضلاً عن أنني أتوقع منه ألا يقاوم مقاومة شديدة، لأنه سيريحه أن يوضع في مأمن بالقوة، وبغير أن يتخلى بإرادته عن واجباته، وهو ما سيجعله متخلصاً من الخطيئة أمام الله.

– سأعد، قال القبطان، كيسا ثقيلاً أضربه به على رأسه، وحبالاً لتكتيفه.

– وأنا، قال جاران، سوف أخلي كهفي من كل مابه، لأنني متأكد أنه

متعصب ... ولكنه لم يكد يكمل جملته، حتى جاءت العجوز آليت فجأة، وقالت:

— ها هو السيد كومبرانو يصل، لقد رأيته من كوة المطبخ!

وصعد الأستاذ بانكراس جرياً للدور الأول بمنزله، وتبعه الجابي، وجاران، والقبطان، وفتح بانكراس مصراع نافذته يبطء ...

إلى ناحية اليسار، أمام باب بيت تاجر الجوخ، توقفت العربة. لم يكن أحد بالمقعد الأمامي لها . لكن في صندوق العربة، كانت زوجته وبناته الأربعة ترقدن الواحدة على الأخريات ... كانت وجوهن سوداء وحمراء، ومنتفخة على نحو رهيب، وكانت الأم تضم الصغيرة بين ذراعيها، التي بدت كأنها دمية مقطرنة... وعلى الدرجات الثلاث أمام الباب، كان الأستاذ كومبرانو مثنيا نصفين ... يزفر زفرات شديدة، ثم سقط فجأة على ركبتيه، وراحت قبعته المصنوعة من اللباد الأزرق تتدحرج على الرصيف ... وجاهد ثانية، لكي يرفع المفتاح اللامع لبيته باتجاه القفل الضخم، لكن يده سقطت، كالميتة، تاركة المفتاح الذي رنّ على حجارة السلم ... ولهث:

— النجدة! النجدة! افتحوا لي!

— ياأستاذ كومبرانو، قال بانكراس بصوت مرتجف بعض الشيء، أنت لا تستطيع الدخول الآن ...

— من أجل خاطر الرب، قال الرجل المسكين، افتحوا لي وعالجوني!

— من أجل خاطر البشر، قال الأستاذ بانكراس، لاتحاول العودة لهنا، فهنا لايوجد إلا الرجال الأصحاء، والنساء والأطفال ... ولقد أصبت بهذا الشر بسبب خطئك، فلا تأتي لتعدي الآخرين.

وزفر تاجر الجوخ زفرة شديدة وتنهد:

– لقد تخلّى الرب عني ...

– لاتفكر هكذا، قال القبطان، لأنه في هذه اللحظة بالذات، الرب . يدعوك للقائه.

– لقد ماتت زوجتي وأطفالي ...

– لأنهن لم تردن مفارقتك! قال الجابي.

– أعطونى شراباً على الأقل، قال تاجر الجوخ في صياح متقطع.

– سوف أنزل لك شراباً، قال بانكراس، ولكن لا أخفي عليك أنه ليس لدينا شيء آخر نفعله من أجلك.

– أعرف، غمغم تاجر الجوخ ... ولكنه أمر رهيب أن يحتضر إنسان في مثل وضعي بالشارع ...

– ربما كان ذلك أفضل من أن تموت ببيتك، قال القبطان، فلن يحول بين رأسك والسماء سقف، وترتفع روحك بلا عائق!

في تلك اللحظة ؛ وبطرف حبل، أنزل به جارات الشاب كوزا من النبيذ الأبيض البارد ...وبجهد جهيد، جر المحتضر نفسه ليرفع الكوز على شفتيه . ولكنه تقيأ الجرعة الأولى في حالة بشعة من الفواق، وأتبعها بسيل من الدم الأسود ...

– يا أستاذ كومبرانو، قال بانكراس، لقد تبقت لك بضع لحظات ... فتحامل على نفسك، وحاول أن تجلس على درجات سلمي، وتسند ظهرك إلى باب بيتي ...

– لماذا؟ لهث المحتضر.

– سيكون هذا، قال بانكراس، عملا طيباً، آخر عمل طيب بحياتك، لأن

جئتك بهذ الشكل ستخيف قطاع الطرق، الذين ربما جاؤوا للهجوم علينا، ولأنك على هذا النحو ستنقذ حياة ثلاثين طفلاً صغيراً تعرفهم ...

وراح تاجر الجوخ السمين المحشو الذي يهتز بفعل نزعات احتضاره، ويتقيأ في كل هزة كتلة من الدم، يصعد درجات السلم ... وجلس عليها لحظة بلا حركة، وقال القبطان:

– لقد انتهى، فقد مات.

لكنه استجمع، برغم عذاب جسده المنتن، جماع قوته. وفجأة، وبجهد بالغ، تمكن من أن يستدير، وفي أربع تشنجات مخيفة، قام بركن ظهره إلى الباب، وعقد يديه على صدره، للمرة الأخيرة .

وصاحت آليت التي كانت تطل برأسها من تحت ذراع سيدها، فجأة:

– هل ترون الملاك؟ انظروا الملاك!

ولم ير بانكراس ولا القبطان شيئاً، لكنهما راحا ينظران مندهشين، للوجه المسكين الأسود، والمتورِّم بابتسامة كبيرة مضيئة سعيدة.

عند حلول الليل، تم إعداد جاران الشاب والجزار طويلاً بمعرفة الأستاذ بانكراس، فقد جعل كلا منهما يرتدي ثلاثة قمصان، ثم سترة تتدلى إلى القدمين، مضافا إليها القفازات القماشية والأقنعة التي تصل حتى صدورهم، وأخيرا، تمَّ إغراقهم بخل اللصُّوص الأربعة. وأخذا بعد ذلك خُطَّافَيْ حطَّاب، من النوع الذي يستخدم في جر جذوع الأشجار، وخرجا.

كان الحصان مازال مربوطا إلى العربة المحملة بالجثث وهو يستند إلى جذع شجرة دلب، وقد نام واقفا بغير حراك.

وقاداه أمام باب بانكراس، وباستخدام خطاطيفهما أوقعا الجثث الخمس

التي انتظمت على نحو تشكيلي حول تاجر الجوخ الميت، الذي كانت ذقنه ساقطة، بشكل فظيع، على صدرته الدانتلا المدماة.

وانتظمت حياة المعزولين في انضباط شبه عسكري فكانت أجراس الجنازات التي حلّت محل صلوات الصباح، توقظهم مع أول خيوط الشمس، ويبدأ يومهم بفحص كل أعضاء الجالية، الذين يتقاطرون أمام الطبيب، الجالس تحت شجرة التين الكبيرة أمام بيت الجابي.

وكان أقل ارتفاع في درجة حرارة واحد منهم سببا للاشتباه، وكان أقل جرح يبدو في نظره مشروعاً لخراج فكان يعزل في التو المريض بكهف أعيد طلاؤه، ويجري غسله بالخل كالخيار المخلل، ثم كان يفرج عنه بعد ثلاثة أيام.

وبعد الفحص كانت النساء تقمن بالأعمال المنزلية، بلا أدنى ضجة.

كانت الفتيات تقمن على رعاية الأطفال الذين يلعبون بالحدائق، وكان الجابي، يجلس تحت التينة، يعطي الدروس للكبار بصوت خفيض، ثم كان القبطان يحل محله في هذه الدروس، لكي يعلمهم الجغرافيا. وخلال هذا الوقت. كان جاران الشاب، لكي يشغل وقته، يصمم بندقية من نوع جديد، وكان الجزار ينقع اللحم في الملح (لكي يحفظها)، والبقال ينشر قرعه الخشبي، والخباز يعجن العجين. ولم يكن يشعل فرنه إلا بعد منتصف الليل، كل ثلاثة أو أربعة أيام، لأنه كان ينتظر حتى تهب الريح، لكي تمحو أثر الدخان الذي كان من شأنه أن يشي بهم.

– أما الذين لم يكن لهم عمل فكانوا يعملون بالحدائق –ولكن كان من الضروري سحب الماء من الآبار مباشرة، أقصد بدون رفعها بالبكرات، التي تحدث صريراً، كعادة بكرات الرفع فوق الآبار. وسرعان ما نما الحمص، ثم العدس، ثم الفاصوليا، وراح الأستاذ بانكراس يفرك يديه من السعادة.

عند الظهر، كان الجميع يأكلون معاً في اسطبل الطبيب الكبير، الذي تحول لصالة اجتماعات. وبعد راحة القيلولة – التي تستمرحتى الخامسة مساء – كانت النسوة تطبخن، وتقمن بأشغال الإبرة، وكان الرجال يلعبون الورق، والضّامّة البولندية، والشطرنج وكانت الخادمات العجائز تحكين القصص للأطفال.

مع ذلك، ففي سقيفة منزل بانكراس، التي كانت أعلى سقيفة –كان يوجد دائما رجل يراقب من كوة مستديرة، لكي يتابع ما يجري بالميناء والمدينة. وكان هذا العمل يتناوبه الرجال كل ساعتين، وكل واحد كان يقدم تقريره للطبيب.

في البداية، كان المراقب يشاهد قوافل العربات، ويشاهد هلع المارة واصطفافهم، في صفوف مجهزة، أدرك القبطان، لطول نظره، أنها صفوف المحكوم عليهم، الذي فكّوا قيودهم. وكانوا جميعهم يضعون على أكتافهم عصياً طويلة في أطرافها خطاطيف.

ولم يعد هناك أي قارب يدخل للميناء، ولكن شوهدت أعداد كبيرة منها ترحل. ثم، صارت مواكب الجنازات نادرة، وبدت الشوارع مقفرة. فلم يعد أحد يمر على الميدان الصغير، ورغم ذلك، سمع صوت الإنذار مرتين أو ثلاثة... وشوهد الطوافون الجائعون، المسلحون بالمدى، وأحيانا بالمسدسات في أيديهم، وهم يسيرون بخطوات بطيئة، يبحثون عن الغذاء أو عن شيء ينهبونه ... وقد وصلوا حتى الواجهة العريضة للساحة، ثم توقفوا فجأة، فزعين، وبعد ذلك ولّوا الأدبار، فقد كان تاجر الجوخ الطيب، أسود كزنجي، وقد غزا وجهه الدود، وأحاطت به عائلته المحنطة، وهو يولي وجهه بإخلاص ناحية المساكن.

واستمرت هذه الحياة حوالي الشهر –ولكن، وعلى الرغم من كونهم كانوا في مأمن، راح طابع المعزل يصير أكثر قتامة يوما بعد يوم، فقد كان صوت

الأجراس الحدادي، الذي لايتوقف إلا عند غروب الشمس، والحذر، والاضطرار للحديث بصوت خفيض قد أضفى عليهم شعورا بالذنب. وتم منع الأطفال من القيام بأية ضجة، ففقدوا شهيتهم، وراحت الأمهات تندبن. وبدأ العواجيز، الذي كانوا يخشون الموت أكثر من أي أحد، يقومون بالأفعال المجنونة.

فقد اختفت السيدة الجدة بيجون، التي بلغت الثمانين، ذات يوم، وعثر عليها مختفية تحت سرير، ورفضت الخروج من هذا المخبأ . وعندما حاول البعض إخراجها، راحت تصرخ صرخات رهيبة مما جعلهم يتركونها وشأنها، وتطلب الأمر من ابنتها أن تحمل اليها مرتين في اليوم طعامها في هذا المخبأ الهزلي، الذي ظلت فيه منبطحة على وجهها غارقة في برازها.

أما والد رومولد العجوز، والذي كان يتمتع بالكثير من سلامة الحس دائماً، فقد راح ذات يوم يسير على أربع، وهو ينبح من وقت لآخر؛ وقد فسر الأمر للأستاذ بانكراس بأن الطاعون لا يهاجم الحيوانات أبداً، وأنه ليس على جميع الناس إلا أن يفعلوا مثله وصدق بانكراس، الذي شخص حالته بأنها لا علاج لها، على كلامه بصوت عال، ولكنه استسمحه فقط أن ينبح بصوت أقل ارتفاعاً، وهو الأمر الذي قبله راضيا.

من ناحية أخرى، بدأ الملل والخوف يزعزعان أخلاق هؤلاء الناس الطيبين، وصار بينهم عدد كبير من الزناة وهو الأمر الذي لم يبدُ أنه شغل كثيراً بال أحد، فيما عدا الجزار رومولد، الذي اغتاظ من أن يكون قواداً، لكن لأن بانكراس واساه للأسباب الفلسفية بواحدة أكثر جمالاً من زوجته، فقد ترك الجزار امرأته هدية للخباز، واستبدلها بالخادمة الصغيرة للبقال. وقد أراحها ذلك جداً، لأنها كانت تخشى من اللحظة التي بدأ فيها الوباء أن تموت عذراء... وأحزنت هذه الأخلاق الجابي الفاضل، وبصفة خاصة أحزنته حالة الوحشية التي اصطبغت بها والتي كان هو نفسه ضحية لها، فقد باغتوه ذات مساء في

وضع الزنا مع امرأة السمـاك، التي لم تكن صـغيرة أوجـميلة، وإنما كـانت سكرانة ومتهورة. وواساه الأستاذ بانكراس، وهو يشرح له أن خشية الموت تعظم دائماً من شأن غريزة التناسل، وذلك لأن الكائن يعتقد هكذا بأنه يبذل قصارى جهده لكي يعيد إنتاج شخصه، ولكي ينتصر على الموت.

مساء اليوم الأربعين، وأثناء ماكان الجميع يتنسمون الهواء في الحدائق قبل العشاء، سمع فجأة صوت تدحرج سريع على السلم، وظهر المراقب على الباب، بوجه مضيء. وكان ابن بنيون.

– انتصرنا! صاح، لقد انتهى الطاعون!

ونهض الجميع دفعة واحدة.

كيف عرفت؟ قال الأستاذ بانكراس.

– لقد أشعلوا النار من الفرح! قال بنيون الابن ... وأكبر الحرائق أشعلت بالميناء، وتبدو حولها ظلال الناس وهي ترقص.

– هدوء! قال بانكراس – وانتظروا قليلاً قبل أن تهنئوا أنفسكم. لابد أولاً من رؤية ذلك! واندفع باتجاه السلم، الذي سبقه إليه القبطان.

ولأنه لم يصعد من قبل إلى السقيفة، ولأن نافذة السقف كانت مفتوحة بأعلى السلم، راح يتسلق السلم برشاقة، إلى أن عبرت رأسه من السقف، وصارت إلى جوار حذاء القبطان.

ورأى، بالبقعة السوداء الكبيرة للمدينة، نقاطاً احمرت بالليل كالجمر، وعلى مقربة، من الميناء القديم، كانت حزمة من النار تتراقص.

وفرد القبطان نظارته، التي راح يضبطها عدة مرات ... وشده الأستاذ بانكراس من حذائه!

— ماذا ترى؟

— أرى ناراً كبيرة مشتعلة، قال القبطان. وأمام هذه النار، أرى ظلالاً، تلقي بظلال أخرى في الحريق!

— لقد كنت على يقين من هذا، قال بانكراس، إنها المحرقة ... إنهم يحرقون الجثث لأنه لايوجد وقت لدفنها ...

ونزلا السلم، مكتئبين، حيث كان كل الرجال بانتظارهما على الدرج.

في اليوم التالي، عند بزوغ النهار، سُمعت طرقات على بيت السيدة نيكول، خفيفة في البداية، ثم صارت وحشية ... وقفز الكثيرون من أسرتهم وهرعوا إلى النوافذ المغلقة، بغير أن يتجرأوا رغم ذلك على فتحها، محاولين النظر من شقوقها. أثناء ذلك، صاح صوت:

— افتحوا لي! إنه أنا، نوربرت!

وتعرفوا على صوت المثقف، وكان قد تصوروا أنه مات.

ولم يجب عليه إلا الصمت المطبق. عندئذ راح يزعق:

— أنا أعرف أنكم تختفون وراء المصابيح! افتحوا لي وإلا كسرت الباب!

ووارب الأستاذ بانكراس نافذته، فوق رأس هذا الغضوب مباشرة.

— بحق الرب، قال له، لا تصبح هكذا ولا تصنع هذه الضجة!

— بحق الرب قال المثقف، دعوني آخذ حاجياتي أو اقذفوها لي من النافذة! لأني سأغادر المدينة، وأنصحكم بأن تفعلوا مثلي، لأنهم خلال ثلاثة أيام سوف يأتون لحرق كل الحي!

— من الذي قال لك؟ صاح بانكراس، الذي صار شاحباً كاللفت .

- إفتح لي وسأقول لك كل شيء، أجاب المثقف -وربما أنقذ حياتك ...

- أنت جئت بنية طيبة، قال بانكراس، ولكنك بالتأكيد تحمل لنا الطاعون!

- لقد أصبت به، وبرئت منه بمعجزة. وأنت تعرف جيداً أننا لن نمرض بالطاعون مرتين!

- لو أن الأمر هكذا، فأنت لن تُصاب به ثانية، ولكن ملابسك بلا شك محملة بالحشرات شديدة الصغر، التي تحمل سموم كل أصدقائك .

- هذا صحيح بالقطع، قال المثقف، لأنني منذ شهرين، وبحجة أنني لن يصيبني شيء أجبروني على أن أجمع مئات الجثث التي تعفنت على الأرصفة. والآن ما الذي يجب علي عمله؟

- أولا، قال الطبيب، سوف تخلع عارياً وتلقي بكل أسمالك وراء الحاجز بعد ذلك، سوف أمرر لك الصابون، وسوف تغتسل من أعلى إلى أسفل وخاصة شعر رأسك. وبعد ذلك، سوف أنزل لك قارورة خل كبيرة، وسوف تدعك بها جسمك لمدة ساعة، وتنظف بها أظافر يديك ورجليك ... وأخيراً، سألقي لك بصرة أسمال نظيفة، ويمكنك بعد ذلك أن تدخل إلى هنا بغير خطر.

- إتفقنا، قال المثقف.

وبدأ في خلع ملابسه.

أثناء هذه العملية، التي استمرت حوالي ساعة، كان هناك كثير من السيدات والآنسات وراء المصاريع المقفلة، بما أنه كان غلاماً وسيماً جدا وقد أكد الطاعون على رشاقته، عندما تسبب في نحوله، وبالميدان المقفر، إلى جوار النافورة، راح ينظف كل جسده باهتمام شديد. وعندما صار جاهزاً، فتح بانكراس له باباً وهو يكبس له في أنفه سدادة من قماش مبلول بالخل، ثم اقتاده إلى مكتبه.

واستمرت محادثاتهما أكثر من ساعة. وكان الرجال ينتظرون بالحدائق، بغير أن ينطقوا بكلمة . كانوا يروحون ويجيئون، خافضي الرؤوس، واضعين أياديهم في جيوبهم. وكانت النساء تتحدثن همساً، في مجموعات صغيرة، بالأركان. وكانت أنحريات مصطفات حول العجوز آلبيت، التي حاولت أن تتنصّت على باب الطبيب. ولم تستمع شيئا مفهوماً -لكنها عندما فتح بانكراس الباب، وقعت تحت رجليه. وعندما صاح: الطاعون للمتطفلة، هربت خائفة، مقطوعة الأنفاس. وفي صمت، ذهب الرجلان حتى منتصف الحديقة الكبيرة، وصعد المثقف على غطاء البئر. وجاء الجميع واصطفوا في نصف دائرة حوله، على حين جلس بانكراس والجابي على حجر البئر ثم تحدث المثقف:

- يا أصدقائي، قال، يحزنني أن أقول لكم إن الأستاذ بانكراس كان على حق وإن هذه المدينة هلكت. وبفضل نظارة القبطان المكبرة، أعرف أنكم كونتم فكرة عما يدور. لكن هذه الفكرة شيء قليل جداً وتكاد تكون أمراً طريفاً بجانب الحقيقة . فالواقع، أنهم يلقون بالجثث من النوافذ، وأن هذه الجثث قد تكومت على الأرصفة، إن كل الناس القادرين على العمل ماتوا على الأرصفة بأرباض المدينة، ولكن مازالت هناك كمية كبيرة من الناس، تقل كل يوم بمعدل واحد على عشرين، ولم نعد ندفن الموتى، برغم مساعدة مائة محكوم عليهم، يتجددون باستمرار كل أسبوع تقريباً، لأن عقوباتهم لم تقهم شر هذا الوباء المرعب. هنا، ربما تكونون في مأمن، ولكنكم لن تظلوا هكذا طويلاً .

- لماذا؟ سأل الجابي بغلظة.

- لأن المسؤولين قرروا حرق منازل المصابين بالطاعون وحتى الأحياء بكاملها. فأول أمس أحرقوا حي توريت، وأمس أحرقوا أكثر من ثلاثين منزلاً بميدان لينش، وسمعت أنهم اليوم سيحرقون سهل سان -ميشيل، الذي حدث أن فتك به الوباء فتكاً ذريعا!

— إنه علي بعد خطوتين من هنا! قال القبطان.

— أي نعم، قال المثقف. والأكثر من ذلك، أنني سمعتهم يتحدثون عن ساحتنا. فبناء على تقرير للبوليس، اعتقدوا أنكم جميعاً موتى، وأتصور أنكم خلال يومين أو ثلاثة أيام، ستشهدون قدوم الحطب والمشاعل.

— عندئذ، قال الجابي، سنظهر لهم، ولن يحرقوا شيئاً.

— تماماً، قال المثقف إنهم ليسوا متوحشين لدرجة أن يحرقوا بشراً أصحاء. لكنهم أولا سيسرقون كل تموينكم لأن الجدب جعل الجميع على شفا المجاعة، والسلطات تصادر كل المخزون. بعد ذلك، سيجبرون الرجال على العمل مع المحكوم عليهم، في دفن آلاف الجثث المتعفنة. وسيأخذ كل واحد منكم خطافا، ورداء بقناع. وقفازات ولكي يسعدوكم، سيطلقون عليكم تسمية الغربان وبالطبع بعد مضي ثمانية أيام، لن تحملوا بعد هماً، لأنكم ستذوبون أنتم أيضاً في الدمامل والخراريج، وستعارك الكلاب على ما يتبقى من أجسادكم، إن هذا هو ما ينتظركم إذا كنتم من الحماقة بحيث تظلون هناك.

وما كاد ينتهي حديثه حتى انخرطت النسوة في البكاء، وضممن الأطفال بين أذرعهن، وظل الرجال بلا حراك، عاجزين كالأحجار، وراح العواجيز يتبادلون النظر ببلاهة. وكان القبطان أول من تحدث :

— هذا الشاب على حق، قال، فليس أمامنا إلا المغادرة.

— هذا ما كان يجب علينا أن نفعله من أول يوم، قال الجابي ... كان بمقدروي أن أذهب إلى بيتي الصغير في إكس ...

— لقد أصابها الطاعون هي الأخرى، قال المثقف، فقد أغلقت بها المدارس، والمحاكم، والكنائس.

— إذن، فليست هناك سوى وسيلة واحدة وهي أن نعثر على مركب ونرحل.

إلى كورسيكا.

– يا عزيزي القبطان، قال بانكراس، إنها الوسيلة المثلى، ولكن أين يمكنك أن تجد قارباً؟

وأشار القبطان بيده، علامة الحيرة، وهز رأسه وسكت.

وراح جاران الشاب، والخباز، والجزار يعرضون، كل بدوره، اقتراحات خرقاء، كما يحدث في حالة الناس اليائسين ... وفكر الأستاذ بانكراس، الذي لايفقد هدوءه أبداً:

– إن الأبسط من هذا جميعه، هو الذهاب للتلال. سوف نذهب أولاً إلى قرية الألاورش، حيث فيها أحد أقربائي ... فإذا كان الوباء قد وصل إلى هناك، نوغل لأبعد منها ... وإني أخشى، في الحقيقة، أن تكون القرى قد أصيبت بالعدوى... ولذا تظل لنا التلال. وربما نجد هناك مأوى في بعض الكهوف، في جنبات خور بعيد، لا يأتي للبحث عنا فيه أحد.

– ولكن ماذا سنأكل؟ قال المثقف.

– مازال لدينا بعد مخزون كبير. كما أننا مازال عندنا أربع جياد وبغلان...

– هذه الحيوانات هزيلة جداً، قال الجزار.

– نحن لسنا بصدد أكلها الآن، بل سنربطها إلى عرباتنا لكي ننقل عليها تموينتا. وسوف نطعمها كل العلف الذي تبقّى لدينا، وآخر كيس من الشعير عندنا. وسنعد بالنهار حمولتنا، وفي منتصف الليل سنرحل .

– وعندما ترحلون! قال المثقف. تعتقدون أن بإمكانكم الذهاب هكذا؟

فكّروا، فقبل كل شيء، ومع ظهور عرباتكم المحملة، سوف تُهاجمون من العصابات المسلحة التي تجوب المدينة بحثاً عن أي أغذية. والتي تنهب كهوف

المنازل الموبوءة.

– وهل سيروننا في منتصف الليل؟ قال الجابي.

– نحن لدينا ثلاث وعشرون بندقية، قال الأستاذ جاران ؛ وثلاثون مسدساً، وأكثرمن مائة رطل من البارود.

– عند أول طلقة بندقية، ستأتي عصابات النهّابين الأخرى لمعاونتهم. ومن جهة أخرى يوجد حراس بكل مخرج من مخارج المدينة، لكي يمنعوا انتشار الوباء في البلاد.

– ولكن، ما العمل؟ صاح البقال، الذي أرعبه الخوف.

– أن نخرج على دفعات، قال المثقف، حاملين بعض الطعام الذي نخفيه تحت ملابسنا جيداً–وأن ننجو كل واحد بنفسه.

– وماذا عن النساء؟ قال بانكراس.

– والأطفال؟ قال بعنف الأستاذ باساكاي. هل تريدون ترك الأطفال؟

وغمغمت النّسوة.

وفتح المثقف ذراعيه، وأقفل عينيه، وهز كتفيه، ولكنه لم يقل شيئا آخر، وحل صمت طويل جداً، قطعه الأستاذ بانكراس ليقول:

– تعالوا إلى مكتبي.

واقتاد الجابي، والمثقف، وصانع السلاح، و القبطان.

وما إن مضوا، حتى شرعت النسوة في القول بأن هذا المثقف كان دائماً يرغب في أن يجعل من نفسه شيئا هاماً، وأنه لم يصب بالطاعون، لأنه بلاشك قضى شهرين لدى عشيقة عجوز له انتهت بأن طردته. واتهمته بأنه كان شخصاً هازلاً دوماً، وبأن طويته سيئة. وبالحصلة، أعلن العديد منهن بأنه لا يوجد سبب

للهروب، وأن أحكم المواقف هو الانتظار، كما فعلنا حتى الآن. وكاد الرجال يتبنون رأي النسوة، حين ظهر على الباب، بامبيت السماك، الذي كان في نوبة مراقبة فوق السطح.

— هناك حريق كبير، قال، في حي سهل سان –ميشيل ...

وارتعد الجميع، لأن المثقف كان قد أنبأهم بذلك. وشرعت النساء في البكاء وتقدم الرجال جهة باب الأستاذ بانكراس، عندما ظهر هو على الدرج. وقدم له بامبيت تقريره.

— لقد أخبرنا بذلك صديقنا، قال بانكراس –والأمر الذي حذّرنا منه لم يعد موضع شك، ولكن الفرصة لم تفت بعد. اسمعوني جيداً، وأطيعوني بلا نقاش، وبكل ثقة ... سوف نبدأ فوراً بتحميل عرباتنا، ونفرش الأغطية على تموينا. وعلى هذه الأغطية، سيتمدد الرجال، والنساء والأطفال، نصف عارين، لكي يمثلوا أنهم جثث مصابين بالطاعون، وسوف أتولى مسألة إضفاء مظهر كريه عليهم. والآخرون، سيرتدون الأردية ذات القناع، ويحملون المشاعل، وينشدون المزامير النائحة، وهم يقرعون أجراس الموت. وأنا على يقين من أن موكبنا بدلاً من أن يجذب اللصوص النهابين، سيجعلهم يهربون، وبخصوص الجنود الذين يحرسون الحواجز، فلست أخشاهم، وأعدكم بأننا سنمر بلا أية صعوبة، إذا لعب كل واحد الدور الذي أحدده له.

«أعدّوا فوراً حمولات العربات –وأرجو ألا تزحمنا النساء بالأثاثات العائلية أو بألعاب الأطفال، أو بالتفاهات غير النافعة التي تشغلهم طول الوقت تقريباً، عما هو نافع، وسوف أمر أنا لأتأكد من الحمولات ولن أقبل إلا الضروريات. هيا! .

واستمرت استعدادات الرحيل طيلة النهار، فتم تشحيم العجلات، ورعاية الحيوانات، و تكويم أكياس الغذاء على العربات؛ وكذا براميل الخمر، والبنادق،

والبارود والرصاص والقماش. ثم اقتحم الأستاذ بانكراس كهف تاجر الجوخ المسكين.

— إنه والحال هكذا، قال، لم يعد بحاجة لبضائعه، على حين أن هذه البضائع نحن في مسيس الحاجة لها.

وأقام في التو في قاعة الطعام بمنزله، ورشة خياطه كبيرة، من خمس عشرة امرأة اختيرت من بين أكثرهن مهارة، وبدأن بإعداد عشرين قناعاً، ثم بإعداد السترات الطويلة، ثم القفازات، التي لا يبدو منها إلا الإبهام. وأخيراً، عكفن على رسم أعطاه لهن الأستاذ بانكراس، وشرعن تحت إشراف الجابي، في إنجاز أربع حلل عسكرية، أو بالأحرى أربع حلل تشبه الحلل العسكرية، على مقاس جاران الشاب، وبنيون، وباميت، والخباز وجبّة كاهن للمثقف.

أثناء ذلك، عاد بانكراس، الذي كان قد اختفى، بعد ساعة، لكن دخوله إلى الورشة جعل النسوة تصرخن، وأصاب بالدهشة الأستاذ باساكاي.

وبالفعل، فالشخصية التي، ظهرت كانت ترتدي زياً عسكرياً لضابط برتبة عالية، مكون من سترة زرقاء، وسروال من جلد أبيض، وحذاء من جلد أحمر بمهاميز فضية، وسيف بجراب ذهبي منقوش، وكان المعطف الأبيض المكمل للزي مبطناً ببطانة ذهبية ومزيناً بفراء السنجاب بما يجعله رداء شديد الفخامة حتى أن الحائكات اللاتي كن واقفات، لم تجرؤن على الجلوس ثانية.

— أهو أنت؟ قال الجابي.

— للأسف لا، قال الأستاذ بانكراس، لكنها مع ذلك كانت الشخصية التي قمت بها.

— هذا زي نقيب بالحرس الملكي!

— نعم، قال الأستاذ بانكراس، لكن هناك اختلافاً صغيراً، فياقة سترتي من

قطيفة صفراء، وهو مايدل على أنني كنت رئيس جراحين في هذه الفرقة اللامعة، برتبة النقيب.

وسرت همهمة إعجاب، وأضاف الطبيب، همساً:

– لقد كان من حسن حظي، أثناء حملة هولندا (وخلع قبعته ذات الريشة) أن عالجت المهيب المقدس جلالة الملك.

وتلألأت دمعة صغيرة بزاوية عينه، وخلع الجابي قبّعته بدوره.

– فجلالته، قال الطبيب بتأثر، كان ينزعج من الرياح المستديمة التي أخاف عنفها حصانه، ونجحت أنا في السيطرة عليها، ومنذ ذلك اليوم، ظللت ملازماً لشخصه المهيب حتى يوم وفاته الحزين. وبعد صمت، غير بانكراس من نبرة صوته، وقال بفظاظة:

– استعيدوا أدواتكم، أرجوكم، واهتموا بسترة النقيب، التي يجب أن ترصّع بجالونين من الأزرار الفضية ...

وبعد غذاء سريع، تمت مواصلة العمل في عجلة شديدة، فقد شوهدت بالسماء على مسافة ليست بعيدة، حلقات ضخمة من الدخان وبدأ الرماد الخفيف في التساقط وتبييض عشب الحدائق. ولم يكن هناك بعد أي خطر حقيقي، لكن رائحة الحرائق أكدت ضرورة تعجل الهروب.

أثناء ذلك، انسحب بانكراس والأستاذ باساكاي إلى مكتب الجابي. الذ يلعبان به في العادة مباراتهما في الشطرنج. لكنهما لم يلمسا ذلك اليوم رقعة الشطرنج العاجية التي كانت موضوعة وعليها فيلان صغيران، وشرع الأستاذ باساكاي بتهذيب ريشتي أوزّ بعناية شديدة؛ ثم أضاف حفنة من السناج إلى محبرته. وأخيراً نزع من سجل حساباته ورقة، وراح ينسخ، بخطه الجميل المحكم، بضعة أسطر كان بانكراس قد كتب صيغتها، وكانت عبارة عن تصريح

مرور محكم الصنع موجه إلى قائد حاجز منطقة «الروز». وجفف حبر الكتابة برشّة من البودرة الذهبية، التي راح يمررها على الورقة من طرف لآخر.

وأخيراً، أخرج من ملفاته صك بيع كان السيد موسثييه مفوض البلدية قد وقعه عنده بمكتبه، ونقل التوقيع بسهولة شديدة جداً وتقليد محكم جعل الأستاذ بانكراس يصيح:

– ما أروع ذلك! إنه يحمل على الاعتقاد بأنك كنت تفعل ذلك كل أيام حياتك.

– لا، قال الجابي، ليس كل الأيام، ولكن لكل عمل ضروراته ...

وكان يجيد أعماله تماماً، لأنه أخرج بعد ذلك خاتماً من الرصاص، عليه شعارات مدينة مرسيليا، وطبعه بشكل واضح أسفل الصفحة، على قرص أحمر من الشمع الساخن برز منه شريط أزرق.

ثم راح يحدق في عمله، وفرك يديه، ثم قال:

– لقد أحكم عمله تماماً، والسيد موسثييه مفوض الدولة نفسه لن يجرؤ على أن يقسم بأنه مزور ... وطوى الورقة الثمينة، وربطها بشريط أزرق أعرض من الأول، وأعطاها لبانكراس،

– الآن، قال بانكراس، سنسعد بتزوير المصابين بالطاعون.

ونزلا إلى مكتبه، وكان المثقف والبقال قد أعدا فيه، بناء على أمره، كل أنواع المركبات اللازمة في دزينة من الأطباق. كان فيها حطب محترق، وصمغ، ومربى، وعسل نحل، وشمع، وبودرة الزعفران، والحصى، والسناج، والكتان، وكل أنواع العجائن الملونة.

وبهذه المركبات، نسّق الأستاذ بانكراس بشكل فني أربعين وجهاً وجسداً

وأثبت أنه يجيد شفاء الخراريج وأنه يجيد صناعتها بشكل بارع. وقد نجح عمله إلى درجة أن هؤلاء البؤساء خافوا من بعضهم البعض، وعندما ظهر اثنان منهم بالحديقة، سقط عدد من النساء مغمي عليهن، وراح بابيت، الذي كان طيلة الوقت مائراً على أريع. ينبح نائحاً.

وعندما جرى إعداد المصابين بالطاعون، جاء الدور على المتوّبين، فتم إلباسهم السترة، والقناع، والقفازات، ثم وُزّعت عليهم الأجراس الصغيرة، التي انتزعت من على أبواب المنازل. وأخيرا أشعلت لمدة دقائق المشاعل الصمغية، التي صنعت من أشجار صنوبر الحدائق.

وحلّت الليلة، حمراء، بجهة سهل سان -ميشيل، وتناول الهاربون آخر وجباتهم في صمت، بالاصطبل الكبير المغلق، بسبب شراسة الدخان الذي راح يهبط،بشكل أكثر كثافة، على الحدائق.

ولم يكن المصابون المزورون بالطاعون يشعرون بالراحة، لأن الطلاء الذي جف كان يشد جلد وجوههم -وبسبب حركة الفك كانت دماملهم المصطنعة تسقط في الحساء.

كانت الوجبة سريعة جدا. وبكت نساء كثيرات لفكرة تركهن لمنازلهن وعفشهن، فقد كن يردن أن يحملن معهن كل شيء، لكن الطبيب، عند مراجعته لحمولات العربات، رفض ركوب قطة، وصورتين كبيرتين لعواجيز وخمس دمىً لعجوز مترمتة لم تنجب أطفالا. وعندما راحت تنوح بصوت عالٍ، تمكنت بضع كلمات صداقية وربتة على الوجه من مواساة النائحة.

بعد العشاء، سمعت طقطقة الحريق، على الرغم من المسافة. وراح الأستاذ بانكراس، بهدوء كامل، يضفي اللمسات الأخيرة على العرض.

وسُحبت العربات، واتخذ المصابون بالطاعون أماكنهم على الأغطية. وشجع

الأستاذ بانكراس المحتشمين، على أن يتعرى البعض منهم تماماً؛ ثم أسقط من حواف العربات بعض الأفخاذ، وكانت سوداء بشكل يتلاءم والموقف، وذراعين أو ثلاثة مدمّاة بالمربّى الحمراء المجبجبة التي راحت تتساقط من حواف العربات، ثم شوّه بعض الوجوه، بتوريمها بوضع قطع من الخبز بين الخدّ واللثة ؛ ورسم نقطة صغيرة حمراء محاطة بالأسود على كل ورم. وأخيراً، وضع في بعض فتحات الأنوف بعض لباب الزيتون الأسود، بدت كأنها تسيل منها.

وتم بل الأقنعة بالخل، وإشعال المشاعل وفتحت مصاريع الباب في هدوء.

ثم صعد بانكراس، بزيّه الرسمي الجميل، على عربته الصغيرة، التي أمسك جوير العجوز بأعنّة جوادها -وتقدم على رأس الموكب، الذي سار بلا ضجة. وعلى بعد خطوتين خلفه، علق القبطان نظارته المعظمة على صدره. ثم سار الجنود الأربعة ببنادقهم الطويلة على أكتافهم. وسار وراءهم راهب - لم يكن سوى المثقف - وهو يحمل كتاباً مفتوحاً، ويتقدم العربات، التي راحت تسير في هدوء بين صفين من المتوّبين الذين يحملون المشاعل الموقدة.

ولأنهم لم يقابلوا أحداً، تقدم الموكب في بداية الأمر في صمت، ونزل حتى الشارع الكبير الذي هو طريق الحرية -ولكن في اللحظة التي دلفوا فيها إلى الشارع. التفت الأستاذ بانكراس ورفع ذراعه. وبدأت الأجراس ترن بشكل حنادي، وراحت المزامير تتعالى صارخة من وراء الأقنعة ...

لم يكن المثقف قد كذب. فقد بدت المدينة مهجورة، ولم تكن المصابيح الخماسية التي تضيء المدينة في العادة مشتعلة . ولكنهم على ضوء مشاعلهم، تمكنوا على الفور من تمييز بضع جثث ممددة على الرصيف، في المجرى أو متقلصة على نفسها تحت السقائف، في أوضاع غريبة ... كما شاهدوا قطاع الطرق، لكنهم عند مرور الموكب اختفت ظلالهم التي بدت بسرعة في الليل.

وقد ساروا على هذا النحو حوالي الساعة، بالطريق الطويل الذي تحيطه

أشجار الدلب، الذي راحت العربات تقفز على بلاطه غير المستوي.

ومع هروب الجميع أمامهم، ومع وضوح منظر المدينة المقفر، تحول قلقهم إلى شعور بالاطمئنان، وبدأ الذين يلعبون دور المصابين بالطاعون يتبادلون النكات فيما بينهم همساً، ويقرصون الصغار منهم، الذين لم يستطيعوا تحمل مشقة كتم ضحكاتهم العالية الظريفة. وعند وصولهم إلى قصر - جومبير، الذي خمن بانكراس أنهم سيلتقون فيه بنقطة الحراسة، بعث القيطان إليهم ليعيد النظام للقافلة. ويسكت الموتى وحسناً فعل، لأنه رأى، عند انعطاف الطريق أربعة مصابيح موقدة على حين التمعت كوة في مبنى صغير أبيض. وتقدم جنديان، ببنادقهما في أيديهما.

- قفوا!

وتوقف بانكراس، واستدار للقافلة، وصاح بدوره:

-قفوا!

ثم تقدم صوب الجند، وسألهم بغلظة:

- أين ضابطكم؟

- إنه نائم، قال الجندي. ولسنا بحاجة إليه لنمنع مروركم. فممنوع مرور أي شخص، ومن يمر يقتل.

- نائم! صاح بانكراس باستنكار شديد. أينام والمدينة بأكملها تحتضر! وتهدد العدوى فرنسا كلها؟

ولم يجرؤ الجنود المذهولون على الرد، لكن أحدهم، رفع مصباحه، وتقدم خطوتين باتجاه الطبيب. لذا تمكن من اكتشاف التفاصيل التي التمعت بزي بانكراس الرسمي، التي تلألأت في الليل، فاستدار جهة الاثنين الآخرين،

وصاح:

- انتباه!

وهو مافعلوه في التو.

- لو أنه نائم، صاح بانكراس لابد من إيقاظه! اذهبوا بي إليه.

ولكن لم تكن بهم حاجة للذهاب إلى الكشك، لأن النائم، الذي أستيقظ على صوت الأوامر، جاء صوبهم، وهو يرتدي على عجل ملابسه، وكان واحد آخر من حملة المصابيح يصحبه.

وما إن رأى بانكراس، حتى جمد في مكانه بحسب القواعد. ولأنه لم يكن يضع على كتفيه سوى شريطة واحدة. تحدث إليه الطبيب بصوت عال.

- أيها الملازم، قال، لقد أغضبني أن أرى رجلاً في موضع مسئولية كبيرة كهذه، نائماً!

- سيدي الضابط، أجاب الآخر، الذي كان محرجا للغاية، إنني هنا في المناوبة منذ أربعة أيام، واحتمال الإنسان له حدود. ومن ناحية أخرى، لو أنني على سبيل الصدفة أغمضت عيني. فإن هذا الملازم يحل محلي.

وأشار بأصبعه على شبح تقدم في الظلام.

- أيها الملازم، قال بانكراس في غلظة، أين كنت؟

- سيدي الضابط، أجاب الملازم، إن الطبيعة ليس لها حدود فحسب، وإنما لها حاجات أيضاً.

وافتر ثغر بانكراس عن ابتسامة، وقال: إجابة معقولة.

ثم، وبنبرة صافية، قال:

– أيها السادة، تعالوا معي، بما أنه ليس من الضروري أن يستمع رجالكم لما سأقول لكم.

أثناء ذلك، توجه بخطوة واثقة باتجاه الكشك الذي أغلق بابه بعناية. وكان بداخله شمعدان يتوهج على طاولة من الخشب الأبيض، بالقرب من سرير صغير.

– أيها السادة، قال، إن المهمة التي كُلِّفت بها لابد أن تظل سرية، لكي لا يجن جنون الشعب. فالطاعون الذي يحاصر مرسيليا مازال من النوع الأقل خطرا حتى الآن، لكن الجراحين تيقنوا أخيراً من ظهور بعض حالات الطاعون الأسود. ولو أن هذا النوع من الوباء انتشر، فسوف يقضي على مدينتنا، وربما على فرنسا كلها، إنني مكلَّف، مع هؤلاء المحكوم عليهم الذين يرتدون الأقنعة، والذين يصحبونني بالذهاب ودفن هذه الجثث الرهيبة بإلقائها بمنجم الفحم القديم القريب من الألاووش.

– ولماذا لاتُحرق هنا؟ سأل الملازم:

– لأن البخار الصادر عنها، كما قال الجراحون، قبل أن تتحول إلى رماد، كاف لأن يعدي كل المدينة.

ثم أخرج في التو من سترته لفافة الورق التي فردها بعناية على الطاولة.

– هذه هي الأوامر، قال، سأتركها لكم، بما أنها مرسلة لكم من القومندان، صاحب السلطة، والذي هو صديقي المقرب.

وأضاء الشمعدان على الأختام، والتوقيعات، وخط الأستاذ باساكاي البديع. وأثناء ماراح الضابطان ينظران باحترام لتصريح المرور، أضاف الأستاذ بانكراس:

– أنا لست أخشى سوى على شيء واحد، وهو أن عزيزنا أندرو لاغرو قاضي المدينة، الذي يرعى المستشفيات بنفسه، قد يموت بالعدوى. وذلك

سيكون خسارة كبيرة لمدينتا وللمملكة ثم خرج، وهرع الملازم بسرعة شديدة ليفتح له الحاجز. ثم صاح برجاله:

– ابتعدوا عن هذه العربات، إذا كنتم حريصين على حياتكم.

وواصل الموكب طريقه، تحت رعاية الضابطين.

– إنني في غاية الأسف، قال الملازم، لأن ضابطاً كبيراً كسيادتك يعرّض نفسه لخطر كهذا.

– هذا لطيف منك، قال بانكراس. ولكن في ظروف كهذه، فالخطر واحد بالنسبة للجميع.

وأهداهما قبضة من الطباق، وراح يصعد لعربته، أثناء ماكان ستة جنود يؤدون التحية، ورفع الضباط سيوفهم تشريفاً له. وركب العربة، وحيّا الضابطين بعظمة، وعاود الموكب السير بالليل، على حين جرى حراس الحاجز، هلعين من الطاعون الأسود، إلى براميل الخل.

وما إن صاروا بعيدين عن أعين الجند، أسكت بانكراس الأجراس والمزامير، ثم أمر بإخفاء المشاعل، وكان التماع النجوم يضيء لهم بشكل كاف، على الطرق المقفرة ثم أعطى أوامره أخيرا بالتعجيل في السير خوفاً من التعقب، في حالة ما إذا تسلل الشك إلى نفوس الضابطين في حقيقة تصريح المرور.

وساروا على هذا النحو لمدة ساعتين، ثم طلع الفجر أخيراً على نجاح الرحلة.

كانت تمتد إلى يمين الطريق غابة صنوبر كبيرة مختلطة بأشجار البلوط، وعندما ظهر طريق من طرق الحطابين، دخل بانكراس فيه بحصانه، وتبعه كل الموكب تحت الأشجار. ثم بلغوا فرجة مضاءة بالغابة، وقد نما عليها عشب كثيف، وكانت مزهرة كلها بالخشخاش المنثور. وأوقف بانكراس حصانه، ونزل

إلى الأرض، وصاح:

قفوا!

عندئذ، خلع المحكوم عليهم قفازاتهم وأقنعتهم، على حين قفز الذين يمثلون دور المصابين بالطاعون إلى الطريق، ورفعت النسوة الأغطية. وراح الجميع يضحكون في سعادة، كالأطفال، وراحوا ينزعون عن أنفسهم خراريجهم، كما راحت الخيول ترعى بالعليج على الرغم من تقييدها لأعنتها.

وسمع فجأة صوت، هو صوت الخردواتي القصير، الذي كان قد توغل بالغابة ؛ فقد وجد بركة ماء، وجرى الجميع ليغتسلوا.

وجلس الأستاذ بانكراس على حجر، ومد حذاءه لجوبو، الذي خلعه له، وراح يفرك له أصابعه المرضوضة. وأثناء ذلك، أعدت آليت العجوز لسيدها ملابسه المعتادة. وعلى مقربة منه، جلس الجابي وجاران الشاب على العشب.

– يا أصدقائي، قال بانكراس، لقد نجحنا في النصف الأول من مهمتنا. ومع ذلك فهناك خطر أن يتدارك الضابطان المهذبان ما فعلاه عند مرور أول مفتش يمر بهما، وهو السبب الذي جعلني أخلع هذه البدلة التي يمكن التعرف عليها بسهولة شديدة. غيروا فوراً ملابس الجند، وأخفوا هذه الملابس التي قد تمكن من التعرف علينا في حزمة واحدة. نحن الآن على بعد نصف فرسخ من الألاووش ؛ انظروا من خلال الأعشاب لهذه المجموعة من طواحين الهواء التي تعلو التلال ... إن وجودها يثبت لكم أن ريح الشمال تهب بشدة. وهي تتسبب بهذا الشكل في إخصاب هذه البلدة. كما تتسبب أحياناً في مصائب. وأتوقع ألا يكون الوباء قد وصل إلى هنا، وأنه لن يأتي أبداً. لذا فسوف نذهب ونطلب اللجوء من هؤلاء السكان.

– إني أخشى تماماً، قال الجابي، أن يرفضوا استقبالنا.

– إذا نحن عرضنا عليهم أن نقيم حجراً صحياً بالغابة، قال القبطان، فقد يقبلون، وبهذا الشكل لن يكون لديهم سبب للخشية.

– فضلا عن أنني، قال بانكراس، لي هناك صديق عزيز، يعمل بالمنجم. وهو يدعى ليونار جوندرا، وهو أخي في الرضاعة. ومن المفروض أنه رجل شديد الأهمية في قريته، وأنا على يقين من أنه سيتحدث في شأننا.

وعاد المصابون بالطاعون من البركة، شافين معافين، وطالبوا بشيء يأكلونه. كانت شهيتهم مفتوحة. وراح الخردواتي القصير يعزف المزمار، ولكي ينشطوا أقدامهم المتخدرة، راح المصابون يأكلون وهم يرقصون بين أزهار الخشخاش.

وسلقت النساء البطاطس وفتحن برميلاً صغيراً من الأنشوجة، وقصديرية زيت، وبرطمانين كبيرين من المربى، حشوا بها البسكويت وراحوا يأكلون بشهية كبيرة، حين أزاحت الشمس في رقّة السحب التي كانت تحيط بالأفق. وعندما بزغت، نهض الجميع عن بكرة أبيهم . وراح الجابي، الذي وقف على حجر كبير، يشكرالله بصوت عال، ثم عاودوا السير، وهم يثرثرون كالمتنزهين أيام الأحد.

أثناء تلك الرحلة الخلوية، قال بانكراس لنفسه إنه على الرغم من هذا الوقت المبكر فإن علينا أن نجد بعض الفلاحين وهم يعملون، وعلينا أن ننتهز الفرصة ونستفسر منهم ولكنهم لم يروا أحداً، وراح الطبيب يتوجس في أن يكون الطاعون قد وصل إلى هذه الأماكن.

وكان مخطئاً، فلم يكن الطاعون هو الذي منع الفلاحين من الظهور. وإنما كان الخوف. وساروا حوالي ساعة، ورأوا أخيراً، على قمة تل مجموعة من طواحين الهواء.

– ها هي الألاووش! قال الطبيب. لربما نجونا. هيا سيروا في نظام،

وابتسموا. وبعد عدة دقائق، ميّزوا جمعاً من الرجال، كان ينظر إلى مقدمهم من أعلى ربوة وضبط القبطان نظارته، ونظر إليهم لحظة، وقال:

– إنهم مسلحون بالبنادق.

– في الواقع، لقد توجسست في ذلك، قال الطبيب. ولكن علينا أن نطمئنهم. ولو أننا تقدمنا ونحن نغني فلن يخافوا منا.

وعلا صوته في التو بأغنية من أُغاني عيد الميلاد الريفية، وتعالى صوت الجميع معه، في الوقت الذي راح فيه المثقف، الذي كان يجرر أقدامه متراجعاً يضبط النغم.

ولم يتحرك جمع الرجال الذي يراقبهم – ولكن فجأة دوّى صوت عال.

–قفوا!

وبرز رجل، على مبعدة عشرين خطوة من المغنين، من وراء حاجز. وتوقف الموكب وتقدم الطبيب صوبه.

– قف على بعد عشرة خطوات، قال الرجل. إلى أين أنتم ذاهبون؟

– نحن ذاهبون إلى الألاووش، قال بانكراس.

– ومن أين أتيتم؟

– لقد جئنا من ضواحي مرسيليا، قال الطبيب.

– إذن، قال الرجل، فأنتم تحملون وباء الطاعون. ولن تستطيع استقبالكم.

ـ نحن لسنا مصابين بالعدوى، قال بانكراس، فنحن كنا نعيش بالحي الذي ظل سليماً . وأنا طبيب، وأقول لكم هذا عن معرفة ...

– كل ما يمكنك قوله لايعني لي شيئاً. فكل ما يأتي من مرسيليا فاسد.

نحن لن نستطيع استقبالكم. ولا تحاولوا التقدم. ولو حاولتم تخطي شجرة الزيتون الكبيرة هذه، سنطلق عليكم الرصاص.

وتقدم السيد جاران خطوة للأمام، وقال:

—نحن أيضا لدينا بنادق.

— هذا ما أراه بوضوح، قال الرجل. ولكن لو أن مراقبنا قرع الجرس، فسوف ترون مقدم خمسمائة رجل. وسوف يقتلونكم حتى آخر شخص. فلا فائدة. وربما كان هذا فعلاً وحشياً، ولكن الطاعون هو المتوحش ؛ ونحن لدينا ألف امرأة وطفل.

— أنا أفهمكم، قال الطبيب. لكن يمكننا أن نعسكر في أحد هذه الحقول. تحت مراقبتكم، وإذا أعطى أي واحد منا خلال أسبوع إشارة تدل على مرضه...

— هذا غير ممكن، قال الرجل، فلو أننا تركناكم تعسكرون، سيأتينا المئات، لأنهم يجيئون في كل لحظة ... وليس أمامكم إلا العودة.

— لك ماشئت، قال الطبيب، ولكن قبل الرحيل أود لو أتحدث إلى أخي في الرضاعة. الذي يدعى ليونار جوندار فهل هذا ممكن؟

— آه؟ هل أنت أخو جوندار في الرضاعة، الذي هو صاحب الطواحين؟

— نعم، قال الطبيب. قل له، لو سمحت، إن ماركيز مالوسين بحاجة إليه، ورفع الحارس طاقيته، وقال:

— سأذهب فوراً، ياسيدي الماركيز.

وابتعد بخطوة سريعة. وفوجئ الجميع بأن الطبيب كان من النبلاء، ومن عائلة من أعرق عائلات الريف.

— كيف! أتكون أنت الماركيز مالوسين ؛ قال الجابي، الذي، عمل طويلاً

كطبيب للملك؟

– نعم، قال بانكراس. كان لي الشرف الكبير لأن أسهر على صحة قداسة المهيب جلالة مليكنا الحبيب لويس السادس عشر، وقد أحزنني حزنا عميقاً أن أشهد مرضه الأخير. وقد أثر بي موته بشدة حتى أنني تركت البلاط عقب جنازته، لكي أكرس حياتي للأنشطة العلمية.

وتحلق المصابون المزيفون بالطاعون حوله، مزهوين لكونهم عولجوا بواسطة طبيب الملك العظيم، وشعروا بالثقة التامة في مستقبلهم.

بعد مرور حوالي الساعة، شوهد من بعيد وصول بغلين محملين بالبرادع، يقودهما رجلان، كان المراقب يقتاد جوندرا، الذي راح يجري ما إن رأى الماركيز. وكان عجوزاً في الخمسين، أبيض الشعر. لكنه كان مازال يحتفظ بمعظم أسنانه، ويبدو محافظاً على كل قوة شبابه.

حكايات لانيو العاطفية

كان لانيو* في السادسة عشرة من العمر، وكان عليه أن يتحلى بهدوء المتدينين بسبب اسمه وكان سميناً، مستديراً، بوجنات شاحبة متهدلة وأنف صغير متمنم للغاية، وأعين سوداء، وشعر أسود مجعد. وهذه التفاصيل لاغنى عنها لفهم العاطفة العتيفة التي كان يحس بها لطفلة ظريفة، تدعى إنيدوس. كنا في عيد الفصح وكان لانيو يستعد لامتحان البكالوريا الرهيب. وكان يجلس إلى جواري بقاعة المذاكرة، وفيما بين محادثتين أو بعد دور من أدوار لعب الورق، التي كنا نلعبها على الدكة، كان يمكف على المسائل المخيفة ويتدرب على أن يقوم بأعمال متعددة. وكان يخشى على نفسه أحياناً من ألا يفهم ويقول لي همساً بأنه كان دعيًا حين غضب من أن أباه وضعه في مجموعة المذاكرة وأنه نادم للغاية على الوقت الذي ضاع، ولكن هذا لم يمنعه مع ذلك من أن يضيع الوقت ثانية. ففي كل مساء، من السابعة إلى الثامنة، كان يذهب للتنزه بالسهل، الذي هو، كما يعرف الجميع، أجمل ميادين مرسيليا، وهو الذي يعج بأشجار الدلب الرائعة.

ذات صباح، جاء إلى المدرسة، مرتدياً بزهو بذلة بيضاء ؛ وعلى رأسه قبعة ذات ريشة وإطار عريض، كان يدفع بها إلى مؤخر رأسه، كأنها هالة تحيط بها. وأعلمني همساً بأنه لكي يثبت أنه جدير بسخاء أبيه يرغب في النجاح بالبكالوريا، وأنه لكي يبدأ هذا المشروع اتخذ القرار القاطع بأن يعكف على العمل ابتداء من الأسبوع المقبل. ولفتُّ انتباهه إلى أنه سيكون من الحكمة أن

× بالصفحة الأولى من هذه المخطوطة التي يعود تاريخها إلى عامي ١٩١٩ - ١٩٢٠ كان اسم «لانيو Lagneau» مكتوباً هكذا «L'agneau» أي «الخروف». ولقد قمنا بضبط هجاء كتابة الفصول التي تقدمت من أجل التسهيل على القارئ.

يبدأ البرنامج في التو، ولكنه أشار لي بأن ذلك أمراً مستحيلاً، لسبب قاطع، وهو أنه بدأ بالفعل في تحضير جدول عمله.

وكان جدول العمل هذا يبدأ في ٢٦ مايو، مقسَّماً سلفاً على كل أسبوع جزءاً من برنامج الامتحان. وعلى هذا النحو يتمكن من مطالعة كل المواد قبل ٢٠ يونيو. ليتبقى له عشرة أيام على أول يوليو يقوم فيها بالمراجعة العامة.

— وليكن في علمك، قال لي، أن كل شيء محسوب حسابه ومبرمج بشكل دقيق. فإذا بدأت اليوم كما تقترح علي! فإن ذلك سيخرب جدولي! وسيكون الفشل مؤكداً حينئذ! أما عن البدء بالمراجعة العامة فوراً، فإن ذلك مستحيل ؛ لأننا لانراجع إلا ما نطالعه ؛ وأنا لم أطالع شيئاً.

وكان حازماً في رأيه، وأيدته في ذلك.

وبما أنه كان قد تبقى له أربعة أيام قبل أن يقلع عن كل المتع، قرر من فوره أن عليه أن يستمتع قدر طاقته. وأمسك بريشته الجميلة، وكتب، بخط مرتجف، رسالة صغيرة على ورقة مقواة جميلة كان قد أعدها لذلك. هذه الرسالة تعلم السيد المراقب العام بأن والدة لانيو، المريضة مرضاً شديداً، بحاجة قاطعة، هذا المساء، لأن يخدمها ابنها ؛ وبالتالي، فهي ترجو الإدارة أن تصرح لابنها بمغادرة المدرسة في الساعة الرابعة.

وما إن وضع لانيو هذه الورقة في شنطته، حتى شرع معي في لعب دور ورق لم نقطعه إلا بسبب فسحة الساعة العاشرة، ثم واصلناه، بقاعة المذاكرة حتى الظهر.

كان السيد المراقب العام يستقبل الطلاب بمكتبه ابتداء من الساعة الواحدة، لذا تركني لانيو حوالي الواحدة إلا خمس دقائق، وراح يقدم، بيد ترتجف، الورقة التي كتبها. ولو لا سمح الله خمن الرجل هذه الخدعة ! لترك لانيو

ولكنكم سوف ترون ماحدث.

في الساعة الرابعة، خرج لانيو بعد أن لمّع حذاءه بذيل سترة أحد الغائبين. ومشط شعره بعناية، وأعاد قبعته إلى مؤخر رأسه وذهب مسرعاً. وكان اليوم التالي، يوم أربعاء وحكى لانيو لي مغامرته الرائعة. فقد كان يسير متنزهاً على السهل و هو يدخن بتلذذ السجائر الإنجليزية.

آه ياعزيزي لقد فكرت فيك. كنت على وشك أن أقول لنفسي إنك كان يمكنك جداً أن تجيء. وفجأة، شعرت بنظرة تنصب عليّ؛ ورفعت رأسي، لأرى، بالدور الأول لمنزل فخم، وجه فتاة شابّة تنظر لي في خجل.

ثم أُسدلت الستارة في التو. ولم يستمر هذا أكثر من ثانية. لكنني ظللت واقفاً في مكاني، مفتوناً بجمالها. تصوّرا عينين واسعتين، سوداوين، ناعمتين، محاطتين بأهداب طويلة سمراء، بالقرب من يد دقيقة بيضاء كانت ترفع الستارة.

أنت تدرك بالطبع أنني لم أشأ أن أمضي من المكان بغير أن أراها ثانية. وواصلت نزهتي، فمررت تحت نافذتها عشر مرات بغير أن أرى شيئاً. ولكني شعرت، عند اهتزاز الستارة، بأن العيون الجميلة كانت خلفها، ترى من تكون الشابة الجميلة ؟

فكرت طويلاً بغير أن أحيل بصري عن النافذة. ولم أصل إلى شيء بالمرة... لكن يداً ربّتت على كتفي. فاستدرت، ورأيت بيلوك، طالب الرياضيات. كان يدخن غليونه الكبير الذي يطقطق والذي له أنبوب طويل معوج يصل حتى فتحة صدريّته، ووجّه لي بعض المجاملات على اناقتي ثم سألني عما أبحث.

– بيلوك، قلت له، سوف تخدمني خدمة كبيرة.

فكشر، ووضع يده على أذنيه وقال لي: اطلب.

– من يسكن هنا، بهذا المنزل؟

– حبيبتي، قال بيلوك بصوت واثق.

– حبيبتك؟ رددت، في ذهول ... أنت ...؟

– بالضبط. فمنذ ثلاثة أشهر وأنا أغازلها، وأقابلها كل مساء. أهي حلوة، مارأيك؟

– نعم، قلت. رائعة. فما أجمل شعرها الأسود!

– أسود؟ أنت لم ترها جيداً، بالطبع، إنها شقراء.

– شقراء، كيف؟

– نعم، شقراء بعينين زرقاوين، إنها نورماندية جميلة في العشرين من عمرها وهي مجنونة بي.

– هناك خطأ ما، قلت. فقد رأيت تواً بهذه النافذة فتاة جميلة في حوالي السادسة عشرة من العمر، سمراء ذات أعين سوداء وغائرة

– إنها الصغيرة، قال بلوك، ابنه صاحب المنزل. لقد كنت أحدثك عن الخادمة.

– وما اسمها؟ وماذا تفعل؟

– هل أنت مغرم؟ قال بيلوك. أنت تخطئ هكذا. فمع الفتيات الصغيرات على هذا النحو لا يوجد أبدا حب. وأنصحك من الآن أن تبحث لك عن خادمة شابة.

– ماذا تدعى ؟ سألت ثانية.

– لوسيين، قال بيلوك. أبوها مهندس. طوله متر وتسعون وأعتقد أنه مفترس

وهي تذهب إلى المدرسة الثانوية، وكل صباح تصحبها الخادمة. وأنا أتبعهما من بعيد، ثم أصحب الخادمة في العودة. وبالطبع لهذا السبب أذهب كل يوم للمدرسة في الساعة الثانية وأعاقب بالاحتجاز كل خميس.

وسحب نفساً من غليونه، وبصق بعيداً جداً، ثم قال لي وهو يضع إبهاميه في جيبي صدريته:

— ماذا تريد! إنه الحب ...

— هل أنت متأكد ؟

— بالتأكيد.

— ولكن كيف نظرت إليك؟ فطريقة النظر هي الموضوع، قال بيلوك. فأنا أنظر لك، ولكني لست مغرماً بك، لذا لابد من التأكد.

— لاشيء أسهل من ذلك. لنفترق وراقب النافذة أثناء سيري عندما أوليها ظهري.

وبعد عشر دقائق من رواحي ومجيئي، أشار لي بيلوك بأن أنزل إلى شارع بيرجير؛ وجاء ولحق بي وقال لي:

— أجل. إنه الحب. هل تعرف ما الواجب عمله؟ سوف تعد خطاباً. مكتوباً فهمت؟ وستعطيه لي ؛ وسوف أرسله لها مع الخادمة.

— وهكذا، خلص لانيو وهو ينهي حكايته إلى أنه سيكتب الخطاب. ثم أخرج من شنطته ورقة بنفسجية بديعة، معطرة عطراً جميلاً.

— حسناً قلت له، أكتبه. فلديك وقت من الآن وحتى المساء.

— ولكني، تابع لانيو، غير قادر. فلست قوياً في الفرنسية ...

وبالفعل، لم يكن قوياً بالفرنسية، ولا في باقي المواد، كذلك.

– عليك أن تساعدني، وأن تجهز لي أنشودة صغيرة. فأنت تجيد ذلك.

وكان في ذلك إطراء لي، فوافقت –بشرط ألا يقول لي لانيو كلمة أثناء هذه العملية وأن يشغل نفسه بشيء آخر. لذا فقد فتح كتاباً في الجبر وبذل جهداً عبثياً للاستغراق فيه.

أما أنا، فقد تفرغت لربات الشعر وشرعت في العمل. وما كدت أنتهي من بيتين فقط حتى راح لانيو يقذفني بالنظرات المستعجلة. وعند انتهاء الرباعية الأولى راح ينظر إليها خلسة من أعلى كتفي فانتشي. وقرأها مرتين ثم قال، بصوت جذل:

– إنها موزونة!

وبعد نصف ساعة، انتهيت من كتابة الرائعة التالية:

سرت، على مهل، تحت أشجار الدلب البادرة

فالسهل، بعد مرور الشتاء، يبدو مزهراً

وكنت أحلم بالحب، للأسف، بغير أن أعرفه

وكان دمي، الذي يتجدد كل ربيع، يتدفق بشراييني

ولقد شعرت فجأة بسعادة خفية

وبدفق من الحب يغمر كل كياني

فرفعت رأسي، صوب النافذة العالية

ولمحت وجهاً مقدساً يبتسم ويختفي

ياللعيون الجميلة الأصفى من أصفى الينابيع

المطلة في ذلك الجمال المطرق، الذي تباعد ما إن ظهر

وجعلني أظل صامتاً بمكاني، متجمداً، زائغاً
ومضيت متأخراً، في الظلمة القاتمة
لكن هذه النظرة السحرية التي لاتوصف
مازلت أشعر بعبقها في نفسي إلى الآن.

كانت موزونة، ولم أتشكك في وزنها لحظة. وراح لانيو، بمتابعتي، يكتب النثر الذي سيرافق القصيدة.

كان لانيو يرى في بادئ الأمر أن يقدم نفسه بصورة المليونير الشاب المصاب بالسل ؛ وقد أثنيته عن ذلك ؛ وبناء على نصيحتي، قدم نفسه على أنه رياضي بارع، وشاعر جديد ؛ وراح يرجو ربّة إلهامه الصغيرة أن تطل من نافذتها كل مساء حوالي الساعة الخامسة، لكي يتمكن من النظر إليها من بعيد.

وعندما وجدته يفعل ذلك. ثُرت وشرحت له أن هذا لم يكن أمراً معمولاً حسابه في جدوله. وأجابني بأنه سوف يصلح ذلك ؛ وراح يخرج كل يوم في الرابعة. بما جعله يخسر بهذا الشكل كل يوم ساعتين من العمل ؛ لكن هاتين الساعتين كان يعوضهما في المساء من العاشرة حتى منتصف الليل. وكان أمراً سهلاً بالنسبة له، بما جعلني أعجبت به.

وتم إرسال الخطاب عبر بيلوك والخادمة ؛ ووصلت الإجابة بعد يومين.

وكانت مكتوبة بهذا الشكل:

أيها السّيد،

لقد أسعدتني وفاجأتني رسالتك الساحرة، ولقد لاحظتك بالفعل، عندما جئت ذلك المساء إلى السهل، ولا أخفيك أنني سعدت باهتمامك. إنني أبلغ من العمر السادسة عشرة وأذهب إلى المدرسة الثانوية وأدرس بالصف الرابع. ولا

يسمح لي أبي بالخروج إلا في النادر لأننا لدينا حديقة بالبيت أتنزه فيها ؛ وسأكون بانتظارك بالنافذة، كما طلبت، كل مساء في الخامسة. فضلاً عن أن ذلك بالنسبة لي عادة تعودت عليها من زمن طويل. وإلى اللقاء هذا المساء.

حبيبتك

ولم توقّع الرسالة. وهو ما لم يمنع لانيو من أن يهذي من السعادة. فقد فتح كتاباً، في قاعة الدراسة، وتظاهر بالاستغراق الشديد. لكنه ضحك بصوت عال فجأة، وراح يفرك يديه ويهز الدرج. وفي نهاية هذه التصرفات التي راح يكررها عدة مرات، انحنى باتجاهي وأسر لي: إنها مغرمة بي! وأجبت عليه بابتسامة، ثم أشحت عنه بصري.

وقد جلبت، عليه هذه التصرفات عدداً من عقوبات الاحتجاز، ولم يمنعه ذلك من الضحك، ومن أن يجد أن الحياة جميلة. في الساعة الواحدة، ذهب إلى المراقب العام برسالة جديدة، مزوّرا فيها مرة أخرى توقيع والدته، مؤكداً فيها أن هذه السيدة القوية، أثقلها المرض، وأنها بحاجة إلى ابنها كل مساء، في الرابعة ولمدة غير محدودة. وحصل على التصريح.

وللأسف! جرّني معه إلى الهاوية، فلرغبته في أن يكون معه شاهد على سعادته حرّضني على أن أحصل، باسم أبي، على تصريح ليوم ؛ وفعلت ذلك.

وقد اضطربت يدي عندما مددت للمراقب العام، رسالة أبي المزيفة ؛ لكن هذا الرجل لم ينتبه لذلك بالمرة، وفي الساعة الرابعة، بعد أن تزينت بعناية، خرجنا. وكان لانيو طائراً من السعادة ؛ وكان يعيد على مسامعي بلا توقف: سوف تراها ! سوف تراها! كم هي جميلة! بالسحر عينيها! بالظرفها! بالجمال شعرها! إلخ. ورحنا نجلس على دكة، في مواجهة النافذة الشهيرة.

كان يجلس إلى جوارنا رجل عجوز، يكح ويبصق بلا مبالاة، تحاشينا النظر

إليه تماماً ؛ ثم، انفتحت النافذة، في الساعة الخامسة.

وصار لون لانيو قرمزياً، ثم نظر إلى جميلته وقال لي همساً: إن الجو خانق بعض الشيء ولم يكمل ؛ ولكني رأيت بوضوح أنه كانت لديه رغبة شديدة في الهرب.

بالنسبة لي، وبغير أن أخشى أي اختناق، نظرت إليها ؛ ورأيت فتاة جميلة في السادسة عشرة. نحيفة بعض الشيء ذات شعر معقوص أسود يؤطر وجهها الشاحب المحمر. كان لها فم صغير جداً، وأنف صغير مستقيم، وفوق ذلك، كانت لها أعين ساحرة، واسعة ذات التماعة رقيقة تطفر من لؤلؤتين سوداوين.

وتظاهرت في بادئ الأمر بأنها لاتنظر إلينا. ثم تجرأت. أخيراً، وحدقت بعينيها في لانيو، الذي هدأت من روعه بعض الشيء، الشتائم التي رحت أكيلها له، فرفع رأسه وراح يمعن النظر إليها.

وما إن شرع ثانية في الشعور بالخجل، حتى رحت أعنفه بصوت خفيض بهذه الألفاظ.

— ارفع رأسك، أيها الغبي، وانظر إليها! أيها الفظ، لا يجب أن تظهر بهذا الجبن ... لكن لانيو كان قد هرب، ولم أجد أمامي إلا أن أتبعه وأنا ألعنه.

وابتداء من اليوم التالي، لم يبد عليه، رغم ذلك، أنه ارتدع من هذه الهزيمة، وطلب مني أن أعد له قصيدة جديدة. وكتبت له أنشودة ثانية، جعلتني مقاطعها الأخيرة، ولابد أن أعترف بذلك، أبكي بكاءً حاراً .

في السماء الصافية، تنشر الليلة ذات الأعين الفضية

أشرعتها الطويلة وهي مسترخية، وتشعل نجومها

وأنا أرى وجها عابثاً يرتسم عليها

أجل أعرفها جيداً، هذه الأعين الواسعة، إنها هي

وهذا الصوت البعيد، الرقيق الذي يناديني

إنه صوت حبيبي الخفي الذي يرقص في قلبي.

وسعد لانيو مرة أخرى. وقد رأيت خطابه الذي كان حاراً جداً، ولم يحدث أبداً أنه كتب واجباً في الفرنسية بأسلوب يعادل هذا. فقد ناسبه الموضوع، كما يقال. وكان مقداماً، إذ راح وريشته في يده، يتحدث برقة عن قبلة مستحيلة.

وتم إرسال الخطاب، وقضى لانيو بقية اليوم نائماً على الدرج، لكي يعوض، كما قال لي، الليلة المتعبة التي قضاها.

في اليوم التالي، أتى منتعشاً وسعيداً، وحكى لي عن العمل الكثير الذي قام به، فقد انتهى من جزأين من برنامجه ؛ ولقد استوعبهما جيداً. ويمكنك أن تقسم بالتأكيد أنه قد نام اثنتي عشرة ساعة ولم يفعل شيئاً.

وقص علي بكافة التفاصيل مقابلة الأمس. فقد ابتسمت له ثلاث مرات، وألقت له بوردتين وراحت تنظر له برقة، ثم بوله. وفي التو، كتبت له خطاباً جديداً، رداً على خطاب وصله في الصباح، وهو الخطاب الذي التهم منه ساعة العمل من العاشرة إلى الحادية عشرة، وهي الوحيدة التي كانت قد تبقت له من اليوم، والتي انضمت إلى الساعات الأخرى ليجري تعويضها من الواحدة إلى الثانية صباحاً.

وما إن اتخذ هذا القرار، حتى شرع في خطابه الجديد، وهكذا استمر حاله شهراً. ولم يشعر لانيو إطلاقاً بالعناء الكبير الليلي، وقد أحدث بعض التقدم بالفرنسية بسبب الخطابات التي كان يكتبها كل يوم. وكنت أضع له قصيدة كل يوم تقريباً.

وتعاظم إيقاع التراسل شيئاً فشيئاً. فبعد الحديث عن القبلة المستحيلة، سألها

لانيو لو أن بمقدوره مع ذلك تحقيقها ؛ فقد أراد أن يثبت ربما، ثانية أن كلمة مستحيل ليست فرنسية.

وبعد أن تخلت الفتاة عن بعض خجلها، انتهت بأن حكت له أنها رأته في أحلامها، وأنها حلمت بقبلات حارة طويلة ؛ ورد لانيو عليها بأنها هي حياته، ومعشوقته وكنزه الغالي ؛ وبلغ به الأمر أن قال أنه في الحلم رآها على حافة نبع، عارية تماماً، بعنق من المرمر، وفخذين فاتنتين متناسقتين، وتحدثت هي عن النوم على صدره ؛ ورفع الكلفة معها تماماً. وردت كاشفة له بأنها لها حسنة على كتفها الأيمن، وأخرى، جميلة جداً، تحت نهدها الأيسر. وراح لانيو يأكل صمغ أظرف الخطابات الذي لمسته بشفتيها. ويمضغ الزهور التي قبلتها ؛ وراح كل من هذين الشخصين البريئين يبني صروحاً خيالية بطريقة تدعو للقلق.

ورغم كل جهودهما حالت يقظة أبيها دون حدوث لقاء بينهما. وأحياناً، بالطريق، كان الحظ يسعدهما بأن يمر أحدهما بالآخر عن قرب. في تلك الأيام، كان لانيو يتغير تماماً فكان يضحك مجلجلاً بالفعل، ويسير على يديه بالممر.

أما بيلوك. الذي كان يقوم بدور ساعي البريد. فقد كان يقول معظم الوقت أنهما يكتبان كثيراً، وأنه، نظراً لهذا الحجم من الرسائل، فإن أباها ستقع في يده ذات يوم إحداها.

أيضاً، كان لانيو ما إن يرى من بعيد، بالشارع، مرور بعض المارة من علية القوم، حتى يفر هارباً بغير أن يشعر بالخجل.

ذات صباح، وجدت لانيو مشغولاً بإعداد جدول عمل جديد لنفسه .

— ماذا تفعل؟ قلت.

— وجدتها، أجاب، لقد لاحظت أنهم بالبكالوريا، لا يسألون إلا في بعض الموضوعات المحددة، التي تكاد تكون نفسها كل مرة. وفي الفرنسية على سبيل المثال، يسألون في راسين وكورني وفي الفيزياء حول قانون الكهربية، وماكينة جرام، إلخ، وبالتالي يكون من الغباء أن يذاكر المرء باقي ما في المناهج . وأنا مقتنع بذلك. لذا فقد حذفت، تابع، كل الموضوعات التي لن يسألونا فيها ؛ بعضها لأنهم لا يسألوا فيها أبداً، والبعض الآخر لأنهم سألوا فيها العام الماضي.

ولفتت انتباهه إلى أنه بهذا الشكل لن يبق إلا موضوعات قليلة.

— تقريباً لن يبق شيء، قال لي فخوراً. تقريباً لاشيء.

— وماذا لو بالصدفة، سألوك في واحد من الموضوعات التي حذفتها؟

ونظر لي لانيو باحتقار:

— إذن سيخطئون. ويثبتون أنهم بلهاء كما أنني أستبعد مثل هذا الاحتمال.

وأحبطت إجابته سؤالي تماماً، وأعلن لانيو أنه سيبدأ في العمل بنفس المساء من أجل المذاكرة حسب الجدول الجديد.

ومر أسبوعان. كل مساء، كان يذهب ويجلس على الدكة الشهيرة، وينتظر، حتى يرتفع الستار، كما يقال، وكنت أرافقه في بعض المرات، أيام الخميس. وكان الحبيبان، المتجمدان على وضع الإعجاب الصامت، يحدقان كل في الآخر. كان يبدو عليهما كليهما أنهما غارقان في النيرفانا الهندوكية. وصار إيقاع التراسل في أوجه، وطفحت بالرسائل خزانة لانيو وكان بيلوك، الساعي، يقول لي أحياناً: إنهم يكتبون كثيراً. وهذا بالقطع ليس الحب الحقيقي ولن تسير الأمور على مايرام ...

وجاء يوم الباكالوريا. وتجمعنا من الصباح، في فناء المدرسة حيث بدأ أول

الامتحانات.

كان بيلوك موجوداً وهو يدخن غليونه الخالد. وبوليب المخترع ؛ وبابي، من الصف الأول أ، الذي ارتدى قبعة منفوخة وراح يدخن سيجاراً إيطاليا ذا رائحة نفاذة ؛ كما كان موجوداً أوى، المبتسم، ذو الأذنين البارزتين عن رأسه حتى تبدوا كأنهما معلقتان بخيوط في حافة قبعته، ومعه محبرة لم تستخدم في يده وهو يدخن سجائر ثري كاستيلز ؛ لم آفت، الذي راح يتنقل من جمع لجمع، مرتعشاً وقلقاً، يسأل كل واحد: ترى بماذا سيسألوننا، في رأيك؟

هل تعرف قوانين الكهربية؟ هل راجعت البصريات؟ ثم يهز بيللوش، الضخم أكتافه ويقول بابتسامة عريضة: لايهمني، لايهمني ... ليسألوا ما شاؤوا، أنا لا أعرف شيئاً ... والأمر عندي سيان ...

ومن وقت لآخر، كان يصل واحد فيحييه الآخرون في جلبة: ها هو بيدروكا! تعال هنا، ياحليوة! هذا ميرلو. تعال يا بطيخة ...

وأثناء هذه الجلبة رأيت لانيو آتياً.

– حسناً، قلت له، هل الأمور على ما يرام؟ هل أنت مستعد؟

– هذا يتوقف عليهم، قال وهو مكتئب.

– كيف يتوقف عليهم؟

في هذه اللحظة سأله بيلوك.

– أنت يا، أيها العاشق! أبلغت بك الوقاحة حد أن تتقدم للامتحان! ألا تستحي! ما أجرأك!

وراح يتعجب.

– ماذا؟ ماذا تقول؟ قال لانيو. ألست أغبى من واحد غيري!

– أنا لم أقل هذا، قال بيلوك وهو يقترب. لقد قلت فقط أننا عندما نقضي ثلاثة أشهر نحدق في نافذة، فنحن لا نكون مستعدين للنجاح في امتحان. فما رأيك يابانيول؟

– أنا أقول، أجبت، إنه يبدو أن عندك حقاً. ولكنك تجهل بالطبع أنه كان يعمل كثيراً في الليل.

– أهو الذي قال لك هذا؟ تابع بيلوك. وهل كانت لديه أي طاقة للعمل ليلاً؟ لا، لا تقل لي هذا!

ووضع، غليونه في فمه، وقال بعد لحظة صمت:

– قل لي إذن، يالانيو، بغير هزل، ما هي الأجزاء التي لم تذاكرها بالمنهج؛ فبالطبع توجد أجزاء لم تذاكرها، أضاف بنبرة متعاطفة.

– الواقع، قال لانيو متحيراً بعض الشيء، أنا أفضل أن أقول لك ماهي الأجزاء التي ذاكرتها، فأنا ذاكرت جيداً ماكينة جرام، وكورنيّ، وتنوع الوظائف وبالإنجليزية أستطيع كتابة موضوع عن غروب الشمس. هذا ما أعرفه.

وذعرت بعض الشيء وقهقه بيلوك.

– هكذا! وتجيء لامتحان البكالوريا بهذا الشكل! تعرف سؤالاً واحداً في كل مادة! واحداً فقط!

وردّ لانيو بهدوء، رداً جديراً بأن تتحفّظ عليه. فقد نظر إلى بيلوك ببرود، وقال:

– إنهم لايسألونك سوى سؤال واحد في كل مادة.

في هذه اللحظة، انفتح الباب الكبير. وبدأ الحاجب ينادي على الجميع، من قائمة طويلة، وأسرعنا بالإجابة. ثم، أدخلنا، واحداً واحداً. وأرشدنا أساتذة

مسنون إلى أماكننا على مناضد طويلة. جلس فيها كل متقدم منا للامتحان على بعد مترين من جاره، ولتحاشي أي غش، جلس كل طالب بتخصص الأدبي بين اثنين من طلاب تخصص العلمي.

كانت القاعة كبيرة جداً، وذات سقف مقوس، على ارتفاع خمسة عشر متراً من رؤوسنا وكانت الشمس تغمر المكان، من نوافذ مفتوحة. وعندما اتخذ الجميع أماكنهم، ذهب واحد من هؤلاء السادة المسنين الأجلاء إلى المنبر المرتفع في آخر القاعة، حاملاً كيساً أصفر، أراه لنا برفعه بطول ذراعه، وهو يفتح فمه بعدة طرائق مختلفة ومتتابعة ولم أسمع شيئاً، لكنه كان يتكلم على مايبدو... وفهمت مع ذلك، نظرا للظروف، أنه يرجونا التأكد من أن ختم الشمع الأحمر على مظروف النصوص سليماً. ولم يكن هذا يعنيني في شيء وترقبت توزيع المظاريف.

كان امتحان اللاتينية سهلاً، وانتهيت منه سريعاً. وعندما رفعت رأسي، رأيت، على بعد ثلاث مناضد، وجه لانيو المتحسر. فهم لم يسألوه بالطبع في السؤال الوحيد الذي استعد له ملخصاً فيه كل المنهج. واستعلمت من جاري أثناء انشغال المراقبين للحظة بالتحدث مع بعضهم.

— إنه نفس موضوع امتحان العام الماضي، قال لي.

وهكذا، أثبت واضعو الامتحان في نظر لانيو أنهم حمقى، وأعطوه سؤالاً لم يكن قد ذاكره بالمرة ...

بعد الظهر، بامتحان الانجليزية، أجاب بما يعرفه في سؤال أعطوه لنا حول ماكبث. وعندما خرجنا شرح لي كيف أنه نجح في أن يدس الموضوع الذي يجيده حول غروب الشمس.

— انتبه لهذه الحركة، قال لي. لقد بدأت هكذا: يتحدثون كثيراً عن

ماكبث، ولكن الطريقة المثلى لقراءة هذا العمل الشهير، تتمثل في أن نذهب للجلوس تحت شجرة صندل، ونضع الكتاب مفتوحاً على ركبنا، ساعة غروب الشمس ...

– وماذا عن ماكبث؟ ما الذى كتبته عنه؟

– لقد لخصت الحكاية، بشكل تقريبي، كما تعرف...

– إذن فأنت تعرف القصة؟

– بشكل عام. إن الناس جميعها تعرف القصة بشكل عام، فهي قصة المغربي الذي خنق زوجته. وبقعة الدم التي لم تختف أبداً. وعبارات: سوف تصير ملكاً ... وأكون أولا أكون ...

ووجدت من العبث أن أجادله.

– لقد أجبت بشكل جيد جداً، قال لي. ويمكنني أن أتوقع أن أحصل على خمس وعشرين درجة.

وكان يبدو واثقاً، بشكل يثير العجب.

في اليوم التالي، خرج متألقاً من امتحان الرياضيات. فقد جاءه السؤال الوحيد الذي يعرف إجابته. وبنفس الشكل، في الفرنسية، اختار شرحاً لنص لكورني وراح يفرك يديه بسعادة. وانتظرناه بالخارج مع بيلوك.

– لقد انتهى الامتحان، قال لنا، أنامتأكد أنني نجحت. في الفيزياء لم أعرف الإجابة. ولنقل إنهم سيعطونني بها خمس درجات من أربعين. لكني في الإنجليزية، سأحصل على خمس وعشرين درجة. ليكون المجموع ثلاثين درجة. وفي الفرنسية، مع مافعلت، لن أضع أكثر من خمس وعشرين. وهكذا أحصل على خمس وثمانين درجة. لذا فقد نجحت بزيادة خمس درجات عن المطلوب.

وكانت تلك آمال عريضة.

عندئذ أخرج بيلوك من جيبه خطابين من معشوقته الحبيبة.

- فيهما خطاب من الأمس، قال. لم أعطك إياه لكي يكون عقلك متفرغاً للامتحان، وفتحهما لانيو بسرعة ثم أعطاهما لي في التو لأقرأهما. وراح في نفس الوقت يقفز قفزات عالية، ويلقي بقبعته في الهواء، ويتلقفها وهي طائرة، ثم وضعها على مؤخرة رأسه، وراح يصيح:

سأكلمها! سآخذها بين ذراعي! هورا! برافو! أخيراً! ياه! وكل الصيحات الغريبة.

وفهمت السبب عندما قرأت الرسالة الثانية، التي أعلمته فيها لوسيين المتقدة أنها ستذهب، في الثامن من يوليو، إلى سوق خيرية أقامها عدد من جهات البر، مدعو لها كل طلاب الثانوي؛ وأن أباها لن يستطيع الحضور وأن خالة عجوز طيبة ستصحبها. وأنهما يوسعهما أخيراً أن يلتقيا، وربما يختليان في غيضة من غياض الحديقة! فياللفرحة!

وفي الأيام الثلاثة التالية، واصلنا التردد على المدرسة، على الرغم من عدم وجود عمل بفصول الصف الأول. لذا صرنا على حريتنا المطلقة، مع بعض الحذر. فكنا نأوي من الثامنة صباحاً للظهر بفصل غير مشغول، ونتحلق لندخن السجائر، أنا وأوى وبيلوك. ولأن الجو كان حاراً جداً كنا نخلع القمصان والفانلات، ونظل بصدورنا عارية تحت السترات.

في الظهر، كنا نذهب للغذاء بالمطعم. ومن الثانية عشرة والنصف، حتى الثانية كنا نثرثر بالفناء. ومن الثانية للرابعة، نتحلق ثانية للتدخين. وفي الرابعة كنا نخرج جميعاً، لأن طلاب البكالوريا لم تكن لديهم حصص ابتداء من أول يوليو.

كان لانيو يذهب ويرابط على الدكة أمام النافذة. أما أنا، فكنت أصحب بيلوك، الذي علمني، بقهوة البلياردو، أسرار الألعاب المركبة والضربات المتتابعة.

وجاء اليوم الموعود وكان يوم خميس. وجاء لانيو ليصطحبني من بيتي، حيث كنت أراجع، أو بالأحرى أطالع مناهج التاريخ والجغرافيا، وأنا أتأهب للرحيل، بقبعتي على رأسي. وما كاد يناديني حتى نزلت، وسرنا تحت شمس يوليو الجميلة، بسترات خفيفة وقبعات من القش.

كان متألقاً، في بنطلون واسع من الفانلة البيضاء، وسترة طويلة رمادية، وصدرية مفتوحة على آخرها. ورباط عنق فخم، وحذاء أصفر فاقع. بقرنفلة في عروة سترته، وقفازات فاتحة ومنديل صغير حريري أزرق يطل بشكل خفيف من جيب سترته.

ومضينا جنبا إلى جنب، على طول الطريق المشجر بأشجار الدلب الكثيفة ؛ وهو يعرض خطته، التي أعدها:

- كان عليَّ في هذه الخطة أن ألعب دورا قليل الأهمية. أولا، التعرف على الحديقة. فقد كان يجب التفتيش مقدما عن ركن أو ركنين سريين يمكن للمتقابلين أن يختليا فيه، حسب الظروف. بعد ذلك، نبحث عن الجميلة الصغيرة، ثم نتحين لحظة مناسبة، تشير لها فيها إشارة تلغرافية سريعة إلى المكان المختار. ثم، عندما يجتمع الاثنان، عليَّ أن ألعب، بلا فخر، وبلا رضا دور الخفير المراقب.

وعلى الباب قدمت تذكرتي دخولنا ثم مضينا في التو نحو الحديقة.

كان بها قصر بديع، في وسط غابة حقيقية من الصنوبر والسنديان. وحول القصر كان يوجد عدد من الأكشاك التي كانت مقامة، بواحد منها أحصنة صغيرة، وبآخر سوق لبيع المنتجات الخيرية، وثالث للعبة النيشان، ورابع للعبة

اليانصيب. وفي ركن بالحديقة، بالممرات المنحدرة، مسرح في الهواء الطلق. ولم يكن شاغلنا قط هذا المكان واتجهنا باتجاه الجزء المشجر الذي تفرعت عدة طرق صغيرة من ممره الرئيسي.

وكانت هذه المنحدرات تفي بالغرض المطلوب واكتشفنا مغارة صناعية، مختبئة وسط التجيل بشكل بديع. كان يؤدي لها ممر صغير. ولفت لانيو انتباهي إلى أنه إذا فاجأهما أحد آخر هنا يقبلان بعضهما فلن يكون بوسعهما الهرب ؛ ورفعت المغارة عند هذه الخشبية، فقد كان لها ثلاث مخارج، وفي حالة المفاجأة، كان بوسع كل واحد من المحبين الهرب من الجهة القريبة منه، بلا أي خطر. وتفقدها لانيو بعناية، ورفع دكة قديمة وجدها ونفض الغبار عنها. ثم عيّن لي المكان الذي أقف فيه للحراسة ؛ وتدربت على أن أسعل سعلة خاصة، تكون هي إشارة الإنذار.

وبعد إعداد كل شيء، توجهنا إلى المكان المزدحم.

كان المدعوون يتدفقون. الفتيات الصغيرات الضعيفات، ترتدين الأحمر الخفيف، تتبعهن أمهاتهن الضخمات متزينات بزينة الفتيات الصغيرات. بالورود، على صداراتهن ؛ والرجال الوقورون المتلولون، المتقفزون بقفازات سمنية اللون والمرتدون قبعات ملونة.

كان من بينهم الأساتذة ذوو النظارات، والسيدات العجائز الممسكات بحقائب اليد. ومديرات المدارس الثانوية والمدارس العليا، اللاتي صففن شعورهن بطريقة جعلتهن لا تجرؤن على الحركة. والمعلمون محنو الظهور، وأخيرا تلاميذ الثانوي، بأعداد كبيرة. كان من بينهم بيللوش ذو الكرش الضخم، وبابي، المبتسم دائما، وآفيت الذي كان يسير وهو يحفظ في سره التواريخ الهامة للوزير بولينياك المقررة بدرس التاريخ، وأخيرا بيلوك، الذي كان يصعب التعرف عليه، بحذائه اللامع، ورباط عنقه الشبيه بالسلّة وقبعته القش ذات الحواف

العريضة. كان يضع يده في جيبه، وهو يقلب بها غليونه، الذي لم يجرؤ قط على إخراجه، لأنه كما أسرّ لي، سيكون أمرا لايليق!

ومع ذلك، كانت لديه رغبة عارمة في إشعاله مرة ... وكانت الأكشاك الصغيرة حولها زحام وكل طالب بالثانوي، قد حدد جميلة من الجميلات بحسب ذوقه، وراح يلقي شباكه حولها، مسلحاً بطعوم البنبون الطري والزهور.

كان لانيو يرتجف من نفاذ الصبر، وأسر لي همساً بأنه سيعرض عليها أن يخطفها، لأنه لن يستطيع الحياة بدونها ... وجاء آفيت إلينا وسألنا ما إذا كنا راضين عن إجاباتنا بالامتحان؛ وراح يحدثنا، عن درجاته بالدرجة ونصف الدرجة؛ ولأننا لم نستمع إليه، انقض على بوليب الذي وصل لتوه، وأجلسه وراح يسمعه. فجأة، صاح لانيو هاهي! ... وكانت هي، بالفعل، مرتدية رداء أبيض بياقة بيضاء تضفي عليها مظهر فتاة صغيرة لطيفة. وكانت اثنتان من بنات عمها، تصحبانها، وخلفهما، سارت سيدة سمينة جداً ترتدي ملابس حريرية لامعة بدا عليها أنها تتشكّى في كل خطوة، ثم اتجه الجمع الصغير، من وسط الجمهور، باتجاه المشرب الذي كان منصوباً في العراء. وتهاوت السيدة السمينة بثقلها على مقعد من مقاعد الحديقة، بعد أن طلبوا لها عصير الليمون. ثم راحت توزع النقود على الفتيات، اللاتي اتجهن لتوهن نحو الأكشاك. ولحقنا بهن خفية؛ واصطحبنا بيلوك. سوف أقوم بالمهمة، قال لنا همساً. أين المكان؟ وأشار لانيو له بيده على المكان الذي به المغارة:

— في المغارة، قال لانيو.

— اذهب فوراً، أجاب بيلوك. سوف تلحق بك.

وذهب لانيو الذي كان يجهد لكي يبدو طبيعياً، بخطوة بطيئة، وهو يتلفت حوله بطريقة تدعو للاعتقاد بأنه يدعو جميع الناس للحاق به.

وراحت الفتيات تلعبن لعبة النيشان المفرقع بالأنبوب، وسط جمهرة تضج بالشباب، والعطور النفاذة، وهن تأكلن مع كل انتصار قرصين من حلوى اللوز. ثم تركن مكانهن لأخريات ولكنهن ظللن بمكانهن وسط الجمهور لتشجيع اللاتي حللن محلهن، واتخذ بيلوك، بناء على الإشارة، طريقة حتى لوسيين، ثم قال لها، في غمغمة جذبت انتباه الجميع: بالمغارة هناك، بالقرب من باقة الصنوبر. ثم تظاهر بالبراءة بعد ذلك، متصنعاً الاهتمام بالنيشان.

وخرجت العاشقة من الزحام تتبعها بنات عمها الإثنتين، وتشاورن فيما بينهن، ثم اتجهت لوسين مع إحداهن بخطوات بطيئة إلى الموعد. ولاحظت أنها كانت شديدة الاحمرار وهي تضحك في تصنُّع. وانسحبت كجاسوس، فوجدت لانيو جالساً على دكة ؛ وكان يعطس بشدة، لأن المغارة كانت باردة وبدا متوتراً. وما إن رآني، حتى قام وقال لي بصوت مختنق:

- هل ستأتي؟

- إنها قادمة، قلت له.

وراح ينظر بلهفة للممر وهو عارق. من السعادة بالقطع.

وعدت إلى موقع المراقبة ورأيت الجميلتين تقتربان ؛ وكان يسير خلفهما بيلوك، يدخن سيجارة.

كنت، منفعلا بعض الشيء ما الذي سيحدث؟ كنت أسأل نفسي. فالوضع الذي كانا فيه يتحدثان بالرسائل، ليس كافياً للتعبير عن مشاعرهما. والآن سيتعانقان ويرجّان المغارة بقبلاتهما. وربما يتطور الأمر بعد ذلك ... وعاهدت نفسي ألا أنظر قط وأن أقوم بدوري بإنكار للذات.

ولكن لماذا بحق الشيطان أنت مع ابنة عمها ؟ لقد كدّرني ذلك. لكن بدا ملائماً بعض الشيء لبيلوك، فقد اصطحبهما إلى مسافة قريبة من المغارة،

وسمعته يعرض على ابنة العم (الجذابة، في الواقع) أن يريها الحديقة.بما يدفع للاعتقاد حقاً بأنه مالك الحديقة بلا منازع، فقد عرض عليها عرضه بطريقة جعلتها تقبله، واتجه الاثنان جهة السنديان، على حين تقدمت لوسيين إلى المغارة، وأنبأت لانيو الملهوف، من مخبئي.

ودخلت.

ولم أسمع شيئاً ... وانتابتني رغبة في النظر إليهما ولكنني قاومتها، ثم ارتفع صوت لانيو :

— إذن ... إذن .. لقد جئت ... إلى هذه السوق الخيرية ؟

— نعم.

— آه ... آه! هذا عظيم ... هذا عظيم.

ولم أستطع المقاومة أكثر من ذلك، فنظرت.

كان لانيو، المتباعد، واقفاً أمام لوسيين، على باب المغارة . يدير قبعته في يديه بارتباك وينظر بتحديق إلى حذائه الأيسر . وكان خداً الفتاة الشابة متّقدين من الاحمرار ... وهي تقبض بتوتر على زهرة في يدها.

— يوجد ناس كثيرون هنا، قال لانيو.

ولم ترد.

— هذا عمل طيب. أردف. ثم، وبنبرة اقتناع: وهو شيء حسن للفقراء...

كنت مذهولاً. فهذا لم يكن الحب الحقيقي، وكان بيلوك قد قال هذا. وصار وجه لانيو محبباً من شدة الاحمرار. وكان يريد مواصلة الكلام.

فأشار إلى المغارة.

– إنها مغارة، قال، وبها دكة،

ولم تجب بشيء.

عندئذ، دفست رأسي في الخضرة، وثبتت نظري على لانيو . ولاحظني هو ورآني أشجّعه. فتهور على معشوقته، واعتصرها بعنف إلى صدره وهو يصيح:

– أحبك ... تعالي، تعالي، أنا أعشقك ...

وأراد أن يقتادها إلى داخل المغارة. لكنها غرقت في الدموع، وراحت تمزق منديلها. وتراجع لانيو خطوة للوراء وراح يحدق فيها. وبمنديله الجميل الحريري، راح يجفف جبهته من العرق، ثم لم يدر ماذا يصنع، ففرّ هاربا.

كنت مندهشاً. وبكت الفتاة لحظة أخرى، بصرخات غير مفهومة، وهي تخبط قدمها في الأرض، ثم، أخرجت لا أعرف من أين علبة بودرة صغيرة كان بداخل غطائها مرآة صغيرة. وأصلحت من الفوضى التي علقت بوجهها، وهدأت من روع نفسها ببعض التفكير، ثم مضت.

ورحت أفتش عن الحبيب، وفمي مليء بالسباب واللعنات. وتمكنت في الوقت المناسب من منعه من الهرب، ووصفته بالبلاهة وباستغلال الحب.

– ولكن لماذا رحت تراقبني؟ قال لي.

– لا! صحت ... لا تتهمني بأنني السبب في هذه الكارثة؟ لماذا هربت أنت؟ أيها الأبله المتوحش! لقد كان ذلك بسبب أنك خدشتها! إنك ظاهرة غريبة؟ أيها الدون جوان!

– هل تعتقد أن كل شيء ضاع؟ سألني.

– يبدو لي هذا أجبته. لابد من طلب النصح من بيلوك. ولكنك تعرف أنه سوف يكيل لك السباب عندما يعرف الطريقة البارعة التي أطبقت بها عليها.

وجررته إلى وسط الجمهرة. وكان يمشي معي مضطرباً. وحين مررنا أمام المشرب، وجدت العمة الطيبة، جالسة بين لوسيين وإحدى بنات العم. وكن ثلاثتهن تشربن عصير الليمون. واحمرت العشيقة المحبوبة خجلاً حين رأتنا نمر. أما لانيو، فقد أحدث له هذا العرض ارتباكاً حتى أنه حيا جمعهم كما لو أنه يعرفهم معرفة قديمة . وردت عليه السيدة العجوز تحيته بحركة من يدها. ثم انحنت على ابنة أخيها، لتسألها بالطبع، من هو هذا الشاب؟

وبعد تدافع تمكنا من الخروج من بين الجمهور، الذي صار متلاحماً، واتجهنا نحو الغابات. ولم تكن خالية هي الأخرى فقد كنا نلتقي فيها هنا وهناك بالعشاق الخجولين الذين يتمشون في الممرات، بنفوس شاعرية وأزهار في أيديهم.

ورحنا نفتش طويلاً، وكدنا نتخلى عن البحث حين سمعت صوتاً يشبه بشدة صوت بيلوك خارجاً من دغل، وأشرت للانيو بأن يقترب!

ورأينا بيلوك من خلال الأغصان، وسط بقعة صغيرة مشمسة، كان جالساً إلى جوار ابنة العم الجميلة، على جذع شجرة. وكانت تستند هي على كتفه، تدخن سيجارة وكان يحيط خصرها بذراع، وبالأخرى يمسك سيجارة ؛ وبين كل نفثة وأخرى، كانا يتبادلان القبلات.

– إنه يعرف كيف يتصرف، هذا الحيوان! غمغمت أنا.

وعلا صوت بيلوك

– ترى ماذا يفعلان الآن؟

يا إلهي! قالت ابنة العم بضحكة صغيرة مرتاعة ... لقد كانت خطاباتهما... ملتهبة. وبدت على بيلوك المعرفة النفسية العميقة:

– آه! قال. هذا لايعني شيئاً، لربما لم يفعلا ما فعلنا .

وتبادلا قبلة.

- أراهنك بمائة فرنك، استطرد بيلوك وهو يقبلها وينفخ الدخان في نفس الوقت، أراهنك بمائة فرنك أنه حتى لم يحتضنها!

وقبلها ثانية

- أتعتقد هذا؟ قالت ابنة العم.

- أنا متأكد. أردف بيلوك. فأنا أعرف لانيو، إنه مغفل.

وأمسك العاشق المخذول بذراعي بشدة. يالِلألم! وجررته وأنا أتلعثم وأحس بالخيبة! باتجاه زحام الاحتفال وكانت ضجة القبلات والضحكات الصافية تتصاعد من بين الأوراق...

بعد يومين من ذلك، ذهبنا إلى المدرسة، لنعرف نتيجة الامتحان التحريري. وفي فناء الداخلية كان عدد كبير من المتقدمين للامتحان يسيرون محدثين جلبة. وكنت مع لانيو نتحدث عن مغامرته العاطفية.

- لقد أرسلت لها خطاباً مطبوعاً، قال لي. وآمل أن ينصلح الحال ؛ ولن أضيع الفرصة مرة أخرى. نعم! قالها بتصميم كأنه مقتنع بما يقول.

واقترب منا أوي :

- آه آه! لانيو! الذي حصل على مراده بالأمس، قال بشغف كانت صاحبته هناك ؛ لقد رأيتها تذهب باتجاه الدغل وكان الدون جوان بانتظارها بالطبع ... أتخجل من ذلك، يالانيو! لقد كان تخميني في محله إذن! خمنت ذلك ! إنه شقي! هذا مايجب قوله، يالها من نقلة! لابد أنك قبلتها، أليس كذلك؟

وحار لانيو أين يهرب، في الوقت الذي كان أوى فيها جاداً ويعتقد تماماً

بوقوع بعض القبلات.

ووصل بيلوك. كان حاملاً خطاباً. قرأه لانيو، وأثناء ذلك أعلمت بيلوك بما حدث في السوق الخيرية. فرفع ذراعيه نحو السماء وصاح صياحات متتابعة: يااللمغفل! يااللمغفل! يااللمغفل! وبعد ذلك تأتي لتعتذر علينا!

لكن العاشق كان في حالة مثقلة لم تسمح له بمواصلة الحديث بهذا الشكل.

— ماذا حدث؟ سألته.

ومد لنا الخطاب وقرأته همساً. وكان محتواه كالآتي:

أيها السيد

لا أدري كيف أبدأ هذا الخطاب وأنا تقريباً مثقلة مما حدث لنا كلينا أول أمس أنا أعتقد أن حبنا لن يستطيع أن يستمر بعد هذا الموعد، الذي أكد لي كثيراً من الأشياء التي كنت أتوجس منها بالفعل. أنا لا أعتقد أنك تحبني بالفعل، لأنني لم تكن لدي الرغبة مطلقاً في أن تقبلني. أعترف لك بذلك. وأتصور أنك أعجبتني بسبب أنني وحيدة وأن هذا الحب كان بعض الشيء شبيهاً بقصص الحب المكتوبة. وإن كان ذلك يؤذي مشاعرك فأرجوك أن تسامحني. إنني لن أنساك أبداً وسوف أحس دائماً بالتأثر كلما فكرت في حبنا الذي بدأ وانتهى في الخطابات.

المخلصة

ملحوظة: سأكون شاكرة لو أنك أحرقت رسائلي أو أرسلتها لي. أما تلك التي كتبتها لي فستجدها مرفقة لك مع هذه الرسالة.

— نعم نعم، قال بيلوك. كانت توجد لفة مع الرسالة، ولكنها كانت كبيرة

جداً فتركتها في بيتي. ولابد أنها لاتحتوي إلا على الرسائل. إنها تزن خمسة كيلوات لقد كتبت لها كل يوم لمدة ثلاثة أشهر، رسائل في صفحة.

- ياسوء الحظ! قال بيلوك ببلاغة.

في هذه اللحظة حدث هرج باتجاه ركن الفناء، وكان أستاذان يعلقان قوائم بأسماء الناجحين.

وتدافعنا.

وفي لمح البصر، اتخذ الفناء مظهراً غريباً، البعض كان هادئاً، والبعض مغموماً ؛ والبعض يسبون ويقسمون ... ويتوعدون ... بضرب رئيس اللجنة ؛ وآخرون بدوا في حالة من الحبور والحيوية ؛ وراح آفيث يضحك ضحكات حادة وهستيرية...

بالنسبة لي أنا، فقد نجحت. وبحثت عن اسم لانيو، فلم أجده ... وكان قد عرف، وراح يستند وحيداً، إلى شجرة دلب، وكان في حالة شديدة من الأسى. وأمسك بي بيلوك، الذي نجح، من ذراعي، ورحنا نواسيه معاً. وقابلنا بحركة ثائرة.

- ما هذا، صاح. لاحب، ولا بكالوريا؟ هذا كثير! حقاً! لا! هؤلاء المحكمين أوغاد !

وعلى القارئ أن يعرف، إنه إذا كانت نتيجة الامتحان الرسوب بجميع المواد، فإن ذلك بالتأكيد خطأ المحكمين.

كان يجب أن تسير الأمور على الأقل في شيء! لكن لاشئ بالمرة إلا شيء ومشى حزيناً، حاني الظهر، ويداه في جيوب البنطلون الأبيض الجميل، مضيفاً تفصيلاً ضرورياً، وهو أن القبعة كانت منكفئة على عينيه.

وأشعل بيلوك غليونه الفخم:

– كل ذلك نتيجة خطئه، لخّص الأمر. فطريقته في الحب هذه، طفولية، وليست جادة، كان من المفروض أن يتعرف على خادمة، لو أنه سمع كلامي.

مارسيل بانيول وذكريات طفولة

بقلم : برنـــار دي فـــالوا

Bernard de Fallois

الصفحات التي مرّت من هذا الكتاب كتبها مارسيل بانيول فيما بين ١٩٥٩ – ١٩٦٢ . وقد خصّصها للجزء الرابع والأخير من «ذكريات طفولة» التي ذاع صيتها، وقد وضع لها عنواناً هو «زمن الحب» . ورغم أن كاتبها عاش حتى عام ١٩٧٤ فلم تجر طباعتها من قبل.

لهذا الكتاب إذن، شأن كل الكتب، قصة، كما أن له حكاية غير تلك التي يرويها، وهي في هذه الحالة حكاية أكثر خصوصية، بما أنها حكاية كتاب كان مهملاً.

وإنه لمن الخسارة أن مارسيل بانيول لم يقص بنفسه هذه الحكاية. بما أنه كان يحب الكتابة، ويحب أيضاً حكي حكايات الكتابة. ولو أنه فعل ذلك، وتحدث عن العمل الذي عرفه الجمهور على أنه عمله الرئيسي، لكان له أن يعرض لنا موضوعات شتى، حول فن النثر، والذاكرة، والطفولة، ومهنة الكاتب التي احترفها، وهي موضوعات ذات أهمية كبرى.

يضاف إلى ذلك، أنه كان له أن يفيد، كما أفاد مع «تجار المجد» و «توباز» أو «ماريو» ويصف لنا الظروف التي صاحبت هذه «الذكريات» والحياة التي عاشها فيها، والأصدقاء الذين عرفهم، ومدينة باريس التي كانت في تلك الحقبة، والتي كان يقرنها بمدينة مرسيليا في طفولته. وهذا الجانب الثاني الأكثر أهمية من الأول، أعطى المقدمات الطويلة التي كتبها لمسرحياته الأولى طابع الروايات الصغيرة ؛ فهي تقرأ بمتعة شديدة، لانها بالأحرى تشكل الإضافة الطبيعية لـ«ذكريات طفولة» والتي تتضمن اللوذعية، الرقة، والسخرية. وفي الفترة التي كتب فيها بانيول هذه المقدمات، كانت الذكريات مازالت بعد طازجة، في حين كانت فترة الثلاثينيات قد تباعدت بالفعل. وهو عندما كتبها كان يقص علينا ذكريات شبابه. وإنه لمن المستحب للمرء أكثر أن يتذكر عامه الخامس والعشرين، عن أن يعبّر عن عامه الستين. وهذا بالطبع هو ماجعل

مارسيل بانيول يكتفي بأن يحل في مقدمة رواية مجد أبي صفحتين أو ثلاث قارن فيها بين موقف الكاتب الذي يتهيأ لنشر كتاب وموقف المؤلف المسرحي الذي يتهيأ لعرض مسرحية – وهي صفحات رائعة، بالتأكيد، ولكنها لا تشبع نهمنا.

كذلك، يبدو لي من الضروري أن أعرض باختصار لمن هو مارسيل بانويل الذي كان في هذه السنوات. وكيف جاءته فكرة كتابه «ذكريات طفولة»، ولماذا لم يكملها.

كان مارسيل بانيول قد بلغ الستين من عمره، ولكنه كان يبدو في الأربعين، بالكاد، وكان متوسط القامة، قوياً، ممتلئاً بالصحة، الحقيقية، التي لا تدين بشيء للرياضة وكان يحدث أن يخرج مرتدياً زيه الأخضر، وطاقيته في أيام الخميس، ولكنه لم يكن يرتدي في أغلب الأحيان رباط عنق، وكان يضع كوفية بحار أو لاعب كرات. وما كان يجعله مؤثراً في الكثيرين ليس صوته الرائع، الذي كان من السهل تقليده، وإنما نظرته، تلك النظرة التي تحمل تعبيراً مزدوجاً، فإحدى عينيه كانت تلتمع بالدهاء، والعين الأخرى كان تعبيرها أقرب للحزن، وكانت عينه التي تلتمع هي عينه الخجولة، على حين كانت عينه الحزينة ذات نظرة ثاقبة، وكان إنساناً كريماً. ولم يكن له أبداً مظهر الباريسي.

وكان يمكن اعتباره سيناتورا رومانيا قدّر له أن يقرأ ديكنز.

لم يكن به شيء من طالب الثانوي الصغير النحيف، والمغامر الجسور، الذي أسّس في مرسيليا، منذ أكثر من أربعين عاماً، مجلة فورتنيو . ولا من المؤلف الصغير الذي كان ينهشه القلق، بعد خمسة عشر عاماً من ذلك، والذي غامر بكل ما لديه من أجل مسرحية كان يعتقد بأنها جيدة، وكان اسمها الجميلة والوحش، ولكنه عمدها باسم توباز، اقتداء بالمسرحيات العظيمة لموليير التي تحمل أسماء أبطالها الأساسيين.

ولم يكن في حاجة، فضلاً عن ذلك، لمرجع ولا لمرشد سواء كان هذا المرجع والمرشد دي موسيه أو موليير. فقد كان يحمل اسماً، عرف اليوم، بفضل السينما، لعدد كبير من هؤلاء الناس، الذين لم يكن لهم من قبل أبداً كاتب من مسقط رأسه، وهو مارسيل بانيول.

وحينما أوشكت أعوام الخمسينات على الانتهاء، لم تترك ذكرى كبرى. فقد كانت سنوات ما بعد حرب، جرت للمرة الثانية، ولم تأت بتغيير، ولا بكشوفات، ولا بتحديات، ولم يكن لها شيء من الأوهام المرحة التي كانت لما سبقها من أعوام، ولم تشهد الأعوام العشرة التي سبقتها ميلاد الكثير من الأمجاد الجديدة. وكان نجوم فترة ما بين الحربين يحتلون مازالوا بعد الساحة، ولم يبد على الشباب أنهم متعجلون إزاحتهم . فهل هي سنوات الجنون؟. لا، فقد كانت بالأحرى سنوات الحكمة، التي كانت حكمة ثملة بعض الشيء.

ما الذي آل إليه حال مارسيل بانيول مع نهاية ١٩٥٥ ؟ لقد كان رجلاً مليئاً بالحيوية. فما الذي بقي له ليسعى إليه في تلك الفترة؟ لقد كان من قبل يريد كل شيء وحصل بالفعل على كل شيء.

حصل على المجد أولاً، ولقد عرفه للمرة الأولى، في العمر الذي كان الآخرون فيه يكتفون بالحلم به، وحصل عليه هو مع «توباز». ثم حصل عليه للمرة الثانية، بشكل أقل خطورة، في عام ١٩٤٥ ، عندما دخل الأكاديمية الفرنسية، ساعة وضع صديقه هنري جانسو على مكتبه خطاب ترشيحه، بينما كان يفتح زجاجة شمبانيا ليحتفل بانتصار الحلفاء. وقد ضحكا معاً، ولكن هذا لم يؤسفه، فهو، ككل الفوضويين، في قرارتهم يعشقون المؤسسات.

ولم يكن بانيول يرغب في أن يمنعه المجد من المتعة، لذا، راح يستمتع، بجنون بلعبة جديدة ظهرت وصارت أجمل لعبة بالعصر، وهي السينما. وكان أول من استشعر بمغامرتها، ضد كل الآخرين، عندما بدأت تنطق، وراحت

تنطوي مع انتشارها الجديد صفحة من تاريخ العرض الفني القديم. ولقد أعطته لعبة السينما هذه عشر سنوات من النجاح، وأصبحت لديه استوديوهات للتقنية الجديدة والمتجددة، للصوت، والصورة والأفلام، والحوارات التي تصاغ في ليلة، والممثلين الذين صادقهم واختلطت بذهنه أذهانهم، وأحبهم وأحبوه، وتنازعوا، وعثروا على أنفسهم، وصار لهم ألف مخامرة، وكانوا يشكلون فيلقا بكامله، ذهب معه الى تلال الريف، وسعد بموهبته كقائد له.

ولم تمنعه المتعة عن كسب المال، وقد كسبه، بوفرة. كان في البداية يحسب حسابه بنوع من المتعة والسعادة، التي كان يقيسها. كان يقول: إذا نجحت مسرحيتي في العرض شهرا، سأجني من وراء ذلك ما يساوي راتبي كمعلم لمدة ثلاثة شهور وإذا استمرت حتى الصيف، سأجني راتب عامين. ولقد قدر له اليوم أن يجني راتب قرن أو قرنين كمعلم، ولم يعد يعرف حدود مكسبه، ولم يعد يحسب ثانية فقد صار غنياً.

ثم حقق أمنيته الأخيرة الأكثر تعبيرا عنه، ربما، فلم تتمكن النقود، ولا المتعة بالمغامرة، ولا المجد من منعه من أن يحب، أي أن يكون محبوبا. وقد تزوج، غداة الحرب، بعد شباب عاصف بعض الشيء، من ممثلة شابة لطيفة، أعجبته لأنها كانت تشبه شبهاً شديداً كل بطلات أعماله، وأعجبته أيضا «لذاتها». وكانت تدعى جاكلين، أنجبت له طفلين، أحبهما.

مأساة واحدة حدثت في هذه الحياة التي كانت بمأوى من المآسي، وهي وفاة ابنته الصغيرة، إستل. لكن هذا الرجل الحيي لم يتحدث في هذه المسألة، حتى إلى المقربين منه، لكنه بسبب ذلك انتقل، تاركا منزله بموناكو، الذي كان يحب قضاء عدة شهور بالعام به. ولأن شقته الباريسية بشارع جان جوجو كانت صغيرة جداً، استقر في منزل خاص، بالقرب من غابة بولونيا.

وقد عمل في منزله هذا، كعادته، أي كثيراً.

كان الصحفيون ينعتونه، بغير معرفة، بأنه كسول للغاية، وكان هو يدعهم يقولون، لكن هذه السمعة كانت أمرا مغالى فيه بالكامل. فلو أن أحدا قدر له أن يدخل إلى المكتب الصغير بالدور الثاني بمنزله، والذي كان يحب أن يأوي إليه ويغلق على نفسه عدة مرات باليوم، فما الذي كان سيراه على المكتب، وبالملفات التي تراكمت فيه؟

كان سيرى مسرحية الملاك الصغير، التي كتبها قبل ذلك بوقت طويل، وقرر إعادة كتابتها. كذلك ترجماته للقصائد الرعوية، وهي حلم قديم له، كان يذكره بدروس السيد ليبرات في اللاتينية. وسيجد دراسة طيبة حول وظائف الجهاز التنفسي قد أنجزها. وملفاً كبيراً للأعمال الرياضية يحتوي على كل أبحاثه حول الأرقام الفردية ومحاولته -التي كان يعتقد أنه سينجح فيها تماماً- لشرح النظرية الأخيرة لفرما. وهذا الأمر لا يعرف به سوى قلة من الناس ويكاد يكون سراً. وعلى كل حال، كان هو أكثر من مهتم بهذا، فقد كان شغوفاً بالموضوع. وكان يبتسم أحياناً عندما يفكر أنه في سن الثلاثين، وقبل حتى أن يعرض «توباز» و «ماريوس»، قرر أن يقطع علاقته بعنف مع الأدب ليكرس كل جهده للعلوم. وقد كتب بالفعل مقدمة يعلن فيها هذه القطيعة مع المسرح، قدر لها أن تنشر مع عمله هذا بعنوان «عناصر جديدة بالدناميكا الحرارية (١)».

ماذا كان بمكتبه أيضا من مشروعات العمل؟ كان به «مانون الينابيع "Manon des Sources"» التي أخرجها عام ١٩٥٣، والتي أراد أن يحولها لرواية. وهي مانون أخرى، مثل مانون ليسكو، كانت به رغبة لأن يصف بها ذكرياته في شكل رد على الأب بريفوست فمن رأي مارسيل، أن الأب الغالي لم يفهم ما الذي حدث بين مانون وبين الفارس الجميل. ثم كان لديه مشروع لغز آخر، وهو قناع الحديد، الذي راح يعد له بشكل منهجي عدداً كبيراً من البطاقات والملاحظات، لكي يكتب كتاباً في التاريخ.

وكما هو واضح، كانت المشاريع كثيرة. ولم يحدث قبل ذلك أن اهتم مارسيل، الذي لا يشك أحد في تطلعه للحياة، بالعمل في مثل هذا القدر من الأعمال في وقت واحد. فقد كان سعيداً بالعمل بأكثر مما هو سعيد بالحياة.

ومع ذلك. وفي ظل هذا التنوع الكثيف. كانت الحقيقة أقل من ذلك. أي أنه لم يكن ينجز فيها كما يجب. فهل كان السن قد تمكن من تقليص قدراته الإبداعية. ومن أن يحرم هذه المشروعات من حماسته وإرادته للاكتشاف، ومن منعه هو من استلهام نوع من الانتصار المجيد؟ عموماً، لم يكن هناك شيء مما كتبه مارسيل بانيول منذ وضعت الحرب أوزارها قد صادف النجاح الصاعق لمسرحياته الأولى، وأفلامه الأولى، حتى تلك الفترة.

وقد ظل مارسيل مخلصاً للسينما. وأخرج (مانون الينابيع)، بمقره بالريف، وقد صرف اهتماماً كبيراً لهذه القصيدة العظيمة لأنها كانت تمثل اللقاء بين الحب والقرية. ثم عاد للمسرح فقدم مسرحية كان يحلم بها دائماً، هي يهوذا. وهما عملان طموحان، في مسارين مختلفين، لكنهما تركا لديه بعض مشاعر عدم الرضا، فقد كانت يهوذا مسرحية جيدة جداً، وسقطت سقوطاً ذريعاً، كما أن (مانون) برغم استقبالها من الجمهور والنقاد استقبالاً رائعاً، لم يحقق له نجاحها رضاءً تاماً.

وفي واقع الأمر أن السينما، كانت في ذلك الوقت قد أصبحت ترهقه بعض الشيء. فلم تعد لدى مارسيل بعد استوديوهاته، ولا حلقة توزيعه. وصارت الإستثمارات المادية في أي فيلم تساوي مبلغاً هائلاً. كما أن ممثله المفضل، الممثل العظيم رايمو، صديقه، قد مات، واختفى معه عدد كبير من الآخرين، وتبعثر الفيلق السعيد.

أما عن المسرح، فقد صارت الصيحات الرائجة شيئاً يبدو جلفا ومدعياً. عموما، وفي سن الستين، ومع تدهور المجد والتشريف، كان مازال أمام مارسيل

بانيول وضعه، كأكاديمي بالأكاديمية الفرنسية، وهو وضع يجعله في المكانة الرفيعة. لكن شعلة أمجاد الشباب كانت قد بدأت في الأفول. وفي هذه اللحظة التي بدأ مجده يتراجع فيها، جاءت المعجزة، فقد عادت رياح الإبداع تنفخ فيه كما فعلت في الماضي. وترك مارسيل كل أعماله الأخرى، وشرع، بالمصادفة تقريباً، في العمل بشيء مختلف. وفي كتابة بسيطة جداً ومتواضعة لم يتخيل في البداية أنها سينتج عنها كتاب، ولا أن هذا الكتاب سيكون له أثر في مجده أكثر من كل أعماله الماضية. وأنه سيصدر واحداً من هذه الكتب التي هي لجميع البشر ولكل العصور، ككتاب كلاسيكي بالفعل.

هذه اللحظة التي لم يتوجس فيها بشيء، وبما أنه يعرف أن السذاجة سر الفنانين العظام، أمسك بملف جديد كتب على غلافه عنواناً لم يجرؤ أحد كتابة مثله من قبل، لأنه كان بسيطاً جداً: «ذكريات طفولة».

ولدت فكرة «ذكريات طفولة» أثناء غداء دعي إليه لدى هيلين وبيير لازاريف في ربيع ١٩٥٦.

سرعان ماينسى الناس كل شيء، ولا يوجد أحد اليوم على معرفة بماذا فعل بالماضي هذان الشخصان المدهشان. فقد كانت الصحافة قد تتوجت على عرش المعلومات، وتتوج بيير وهيلين على الصحافة، الأول بإدارته لواحدة من أهم الجرائد اليومية القومية، والثانية بإدارتها لأول مجلة نسائية. لكن أهميتهما لم تكن ترجع لسلطاتهما بقدر ما كانت تعود لعطائهما. فقد كان لديهما فضول لمعرفة كل شيء، ولم يكنّا تقديراً سوى للموهبة وكانا غير مكترثين، بل معاديين لكل ظواهر عدم التسامح، وهما اللذان عملا على إغلاق الباب بإحكام بين الجيل اللامع لما بين الحربين، والذي كان جيلهما، وبين الأجيال التي أعقبته.

ومنذ شبابه المبكر، حافظ بيير في شخصه على ميزتين تميز بهما: حبه

الشغوف للمسرح، وشعوره الشديد بالصداقة. وكان مارسيل بانيول واحداً من ضيوفه المفضلين، لأن بداية كل منهما كانت في نفس الوقت، وظل مارسيل بالنسبة له شاهداً على هذه الحقبة المجيدة.

– ولكن، كان يقول لنا وهو يتحدث عن زوجته، إن هيلين هي صاحبة العبقرية وكانت هي تشير إليه.

وأثناء الغذاء، وكما لو كان ذلك كثير الحدوث، قص مارسيل حكاية. وكانت الحكاية التي حكاها ذلك اليوم من نوع آخر، فلم تكن من تلك الحكايات التي لا تنتهي لمسلسل الطرائف المرتبطة بالمسرح أو السينما. لكنها كانت مأساة طفولية صغيرة وهي حكاية أربع قصور كان يمر أمامهم مع أبويه، عندما كان صغيراً، لكي يختصروا الطريق المؤدي لقرية الكرمة، والإنفعال الرهيب الذي أصابه في اليوم الذي فاجأهم فيه أحد الحراس، وهو اليوم الذي رأى فيه للمرة الأولى أباه في حالة من الخذلان.

وكان من تقاليد مجلة (هي) أن تنشر قصة، مرة بالعام، في عددها الخاص بأعياد الميلاد، وماكاد مارسيل ينهي حديثه مع هيلين لازاريف حتى طلبت منه أن يكتب هذه الحكاية التي أسمعهم إياها لقارئات مجلتها.

ووعدها مارسيل. وعدها عن طيب خاطر.

ومرت الأسابيع، ونسي مارسيل الأمر، ولم يكن لأحد أن يعرف بحكاية القصور الأربعة، لو لم يتدخل عامل القدر في هذا الشأن.

ولأن فضل طلب «ذكريات طفولة» يعود لهيلين لازاريف، التي راحت ترغم مارسيل على كتابتها،جاء الإلحاح عليه من معاون، من الصف الثاني، يعمل معها بالجريدة، وهو موظف كان يذرع بدراجته شارع ريوميير جيئة وذهاباً.

وفاعل الخير هذا، أي حامل الرسائل، لم يعرف أحد فضله أبدا، ونحن لانستطيع أن نعبر له عن عرفاننا، لكن حيلته التي اتبعها أمرجدير بالتسجيل. فقد دق ذات صباح، في الحادية عشرة، جرس باب مارسيل، لكي يأخذ منه المقال الذي وعد به. واستقبله سيد المنزل باهتمام شديد.

– ياصديقي، قال له، أنا أعرف أن السيدة لازاريف تنتظر هذا المقال بنفاذ صبر، وصدقني أن لا شيء يسعدني قدر إدخال السرور على نفسها. ورغم ذلك فأنا لم أتم العمل بعد (ولم يكن قد بدأه)، ومازالت أمامي عدة أسطر أكتبها فيه، ولا أريد لك أن تنتظر. لذا عليك أن تعود للجريدة، وتقول للسيدة لازاريف إنني سأحمل لها بنفسي هذه الرسالة صباح الغد.

– يا أستاذ، أجابه راكب الدراجة، إنني أعول زوجة وطفلين. ولابد لك أن تدرك أهمية مقالك،لأن الإدارة أعلمتني، بأنني إذا عدت للجريدة بدونه، سأفصل في نفس اليوم. اسمح لي إذن بأن أنتظر في حديقتك حتى تكتب هذه الأسطر الأخيرة. ولا تشغل نفسك بي، فلدي ما أفعله في درّاجتي، لذا فلن أعدم شيئاً يشغل وقتي، فضلا عن أنني ليس ورائي ما يشغلني.

وعقب قوله هذا، قلب دراجته وشرع في فك إحدى عجلاتها.

بهذا الشكل وقع مارسيل بالفخ، ولعله كان سعيدا بلقائه برجل نافذ البصر على هذ النحو، ولم يجد أمامه إلا أن يصعد لمكتبه وأن يمسك بقلمه، فقد كان لا يجرؤ على استخدام هذه الآلة الحديثة بشكل عدواني، بل أمسك بأفضل ريشة لديه، ريشة ماركة الصول.

هكذا، وبعد عدة أسابيع، في الثالث من ديسمبر بالتحديد –بما أن عيد الميلاد في هذه المجلة النسائية لم يكن يجيء في الخامس والعشرين من ديسمبر كما في كل التقويم، وإنما أبكر كثيرا، للأسباب التي تخفى على الجميع، فيما عدا رئيس قسم الإعلانات– تمكنت قارئات مجلة هي من أن تقر أن

بجريدتهن هذه الأسطر المدهشة التي احتفى بها ذات يوم ملايين القراء. وبما أن هذه الأسطر قد اختفت من الطبعة النهائية، فلن نتردد في تسجيلها هنا:

هذا ماحدث في حوالي ١٩٠٥، وبمقتضى حساباتي في هذا الوقت، كانت العائلة تبلغ سن الثالثة والسبعين: ستتان للأخت الصغيرة، وخمسة لأخي بول، وتسعة لي، وسنة وعشرين لأمي وثلاثين لأبي، بطريركنا. وكان يعمل في ذلك الحين معلما بمدرسة بمرسيليا، وكنا نقدره لعزيمته، ووسامته، وصواب تسديده في لعب الكرات، وموهبته كعازف صفارة وقبل كل شيء لطريقته المرحة في سن موسى حلاقته على راحة يده اليسرى ...

وتم نشر قصة الفصول الأربعة، مقسمة على أربعة حلقات، بالجريدة، من ٣ ديسمبر ١٩٥٦ حتى ٧ يناير ١٩٥٧.

وجاء رد الفعل سريعا، واشتدت حرارة الابتهاج، وجاءت خطابات القارئات، اللاتي كررن الطلب بأعداد كبيرة بألا يتوقف مارسيل عن كتابة هذه الذكريات. وسعد مارسيل كثيرا بهذه الحكاية، التي راحت ريشته تجري فيها من نفسها بسهولة. وقرر أن يصيغ منها كتابا، راح يعمل فيه طيلة العام، ثم وجده أطول من أن يصدر في جزء واحد، فقسمه قسمين، ابتدع لكل منهما عنوانا، فأصبحا عنوانين خالدين هما: مجد أبي، وقصر أمي.

كانت تلك هي الخطوات الثلاث التي عملت على ميلاد الذكريات، والتي كان مارسيل كثيرا ما يحكيها لأصدقائه. فهل استمرت الأمور على هذا النحو؟ ... على العكس، فقد وجد الكثيرون أن القصة أكثر جمالا من أن تكون واقعية، وهذا ما بدا لي ممكنا بالفعل، لكن مارسيل فخّم فيها من الأسلوب، ولم يكذب. بنفس الشكل الذي كان فيه رد فعله الغاضب، متقمصا، وليس متصنعا، وبنفس الشكل الذي كانت فيه علاقته بالحدث مخرجة على نحو بديع، وليست مخترعه.

لقد استخدم في مجموع عمله ما يمكن أن نطلق عليه: الكذب الريفي، ذلك الذي يرتكز، على بعد مسافة يسيرة من الواقعية، مقدماً الحقيقة الشاعرية للأشياء أو الناس، والتي هي مختلفة عن الابتذال أو الكذب الفظ بسخاء مختلف عن الإسراف، أو الإيهام المكرّس للنفاق الشائع.

ومهما يكن من أمر ماحدث، فقد تمت طباعة مجد أبي، وقصر أمي، بعد ذلك بعام، يفصلهما عن بعضهما بضع شهور، في نوفمبر ١٩٥٧ و أبريل ١٩٥٨.

لكن مارسيل أدرك أنه لم ينته بعد من ذكرياته.

وعندما كتب الصفحة الأخيرة من قصر أمي، تلاحظ له بالفعل أنه لم يستدع إلا جزءا من طفولته، هو الجزء الأول، الذي أوصله إلى عشية ذهابه للمدرسة الثانوية.

وكانت أعوام الثانوي، التعسة، البائسة، والفارغة بالنسبة للبعض، على العكس أعواماً جميلة بالنسبة له، وغنية، وبراقة، خرج منها قدر من أعماله، ولم يستطع إلا أن يدخلها في كتابه. لذا فقد كان عليه أن يكرس لها جزءا ثالثا. ومرة أخرى، وكما جاءت فاني متفرعة من ماريو، وتفرعت عنها قيصر وجد مارسيل نفسه يكمل الثلاثية.

وبينما كان مستغرقا في إكمال كتابه، تكشفت له شيئا فشيئاً ظاهرة لم يكن يعرفها. وهي أنه، بالإبتعاد عن زمن المروي، تتحول الموجودات الحقيقية إلى شخصيات.

وفي الحكاية التي تقص مشاهد حقيقية، فإن كاتب السيرة يسعد كثيراً، مثله مثل الروائي الذى يترك العنان لخياله، ويجد نفسه حرا كذلك بطريقة ما. وقد أشار بانيول لذلك بنفسه في مشروع مقدمة لم تنشر:

في الصفحات التالية، كتب يقول، لم أتحدث عن نفسي بشر، ولا بخير فلست أتحدث عن نفسي، ولكن عن ذلك الطفل الذي لم يعد موجودا. إنها شخصية طفل صغير عرفته، وقد تلاشى مع الزمن، بمثل ما تختفي الطيور بغير أن تخلف وراءها هيكلا عظمياً. يضاف لذلك، أنه ليس موضوع هذا الكتاب، وإنما هو الشاهد على أحداث دقيقة الصغر.

إنني آمل إذن ألا يعثر القارئ في هذه الحكاية على أي أثر للتصنع ...

هكذا بدأ إذن كتابة الجزء الثالث، الذي صار له عنوان —ربما مقتديا بتشارلز ديكنز الذي كان يقدره— وهو: الحب الكبير ، ذلك العنوان الذي قام بتحويره قليلا بعد بعض الوقت لكي يصبح: حكايات الحب الجميلة.

وفي البداية، كما تشهد إحدى مذكراته بذلك، فكر مارسيل في أنه ليس لديه الكثير مما يحكيه.

«لقد انتهت رواية قصر أمي عشية دخول الصف السادس، في سن العاشرة.

«ما الذي حدث بالصف السادس، والصف الخامس؟

«لا شيء، أو لم يحدث شيء هام».

«نفس الإجازة مع ليلي.»

ثم، وبقدر ما حدده إطار العمل، صاغ خطة بسيطة، فحواها: «خطة عامة»:

«الإجازة بعد حادث القصر»

«مغامرة إيزابيل، ودخول المدرسة الثانوية».

«حكاية لانيو (وقد استبعدت)»

«اللقاء مع إيف».

ثم، شيئا، فشيئا، بدأت الظاهرة التي عبرت عن نفسها في الجزء الأول، تتكرر فقد جاءت الشخصيات، واتخذت الحلقات أهمية، وتتابعت الفصول. وبدلا من أن يأتي هذا الجزء صغيراً جداً، كما خشي، صارت الحكاية أطول من أن تكون جزءاً واحداً. وعندما أراد مارسيل نشرها، لاحظ أن الملاحظات الأولى لخطته، في تطورها، كونت بالفعل كتابا أكثر أهمية من سابقيه. وتوجبت قسمة حكايات الحب الجميل لجزأين. وصارت الثلاثية رباعية، لذا راح يبحث مرة أخرى عن عنوانين يعبران عن الجزأين الجديدين. ولأنه كانت لديه موهبة صياغة العناوين، لم يفتش طويلا. وجاء عنوان الأول: زمن الأسرار، وطبع في يونيو ١٩٦٠. وأعلن بصفحته الأخيرة عن الجزء الرابع في متابعة لبقية ذكرياته، الذي صار اسمه: زمن الحب.

وخصص بانيول زمن الحب لكل الذكريات المتعلقة بالسنوات التي قضاها بثانوية تيير بمرسيليا.

لقد دخلها مارسيل عام ١٩٠٥، في سن العاشرة، بالصف السادس. ودرس بها، معيداً صفه الرابع حتى البكالوريا. وعندما اندلعت الحرب، كان قد أتم التحضير لعامه الأول بمدرسة المعلمين العليا.

وصار الكثيرون من زملاء الدراسة أصدقاء له، وظلوا هكذا طيلة حياته. وسوف نجد في هذا العمل بعضا منهم. فقد صار اثنان منهم أطباء، هما فيرنان أفيرينو، الذي ظل يعمل بمرسيليا. والذي رسمت شخصيته في الفصل الأول باسم الطالب الخارجي ميرينو، وإيف بورد الذى كتب مارسيل عنه بطريقة مؤثرة عند لقائه به في الفصل السابع، تحت اسم إيف بونيه، الذي أسس معه مجلة «فورتنيو» في ١٩١٢. والاثنان تمت الإشارة لهما في «عناصر ديناميكا حرارية جديدة». أما الثالث، الذي ظهر باسمه الحقيقي بالفصل السادس، فليس سوى الكاتب الكبير ألبير كوهين.

وقد تم تحرير زمن الحب على مرحلتين.

في المرحلة الأولى، شرع مارسيل بحكايتها، كعادته بالعمل، بالتجريب في بعض الصفحات، التي ينميها فيما بعد بشكل مطول، لكي تصبح هي الحلقات البارزة لهذه الحياة المدرسية.

لذا صاغ خطة، ينتظم من خلالها العمل، وهي خطة اتبعت تطورا تاريخياً.

«١- الدمية المتحركة (لعبة المشنوقين)

«٢- الكرة المنتنة».

«٣- حكاية لانيو العاطفية».

«٤- اللقاء مع إيف»

«٥- الأجازة -اللقاء مع المجنون»

«٦- الصدرية -السيدة لوتان».

وهذا الجزء الأخير، الذي حدثنا عنه، لم نعثر عليه، وهو بالطبع لم يكتبه. أما بقية الأجزاء، وكذلك فصل أخير لم يشر إليه بهذه الخطة وظهر في الملاحظات الأخرى هي ما سنقرأه في هذه الطبعة.

وقد عهد مارسيل فيما مضى، بست فصول منها (فيما بينها الفصول ٢، ٣، ٥، ٧، ٨) لبعض الصحف التي نشرتها معا وفي أجزاء.

أما الفصول الأربعة الأخرى فتتطلب، لأسباب مختلفة، بعض كلمات الشرح.

فحكاية الجماعة السرية تعود لعام الصف السادس، وهي أيضا تكون المشهد الأول الذي حرره مارسيل، مباشرة بعد وصف دخوله المدرسة الثانوية. وكان عليه بذلك أن يجد مكانا له في «زمن الأسرار».

وكان للجزء الذي يحتوي مباراة جوزيف في لعب الكرات أن يبرز في فصل الإجازة، فلم يقرر الناشر بوضوح ما إذا كان يجب وضعه مع نهاية الصف السادس أونهاية الصف الخامس. ومن الممكن أن تكون لدى مارسيل أفكار أخرى في موضوع هذا الفصل الذي وجدنا عنوانه في قائمة القصص والحكايات التي أراد أن يكتبها — والتي لم يقم، للأسف، بتحريرها.

وربما لم يكن لقصة «المصابين بالطاعون» بالمقابل أن تبقى بالطبعة النهائية. فهذه الحلقة، المليئة بالألوان، والحكمة، والحياة عن طاعون مرسيليا، راقت كثيرا لمارسيل بانيول، الذي قصها لأصدقائه عدة مرات، ولم يتخيلوا أنه كتبها. وفي الواقع أنه كتبها بشكل جيد، ليس مرة واحدة فقط، ولكن مرتين. المرة الأولى في مطلع «زمن الحب» وقد حكيت كل القصة على لسان السيد سيلفان، المجنون الذي التقى به مارسيل وإيف بالفصل الثامن. ثم ، ولأن هذا الوصف للجماعة الصغيرة التي أنقذها ذكاء وإقدام طبيب أسعده، كتبها مرة ثانية، مطورة. فقد فكر في أن يجعل منها عملا مستقلاً.

وعنوان: «المصابون بالطاعون» يوجد بالفعل في قائمة الأعمال الكاملة التي يعود تاريخها لعام ١٩٦٢ ،حيث احتل ذيل القائمة، مشتركا مع عمل «مانون ليسكو» الذي سبق وأن تحدثنا عنه.

وقد جاء العمل نتيجة مختلفة تماما، عن التي نعرفها بالحكايات التي قصها مارسيل، والتي لم يحررها. فبالإفلات من الموت، بدأ هؤلاء المصابين بالطاعون يعيشون حياة سعيدة حاول أهل «الاووش» حرمانهم منها. وقد لجأوا عندئذ الي «كهف المصابين بالطاعون» الشهير بعد أن طردهم الفلاحون.

وبعد مرور أعوام، لنا أن نتساءل: أليس من الممتع أن نجد أن ثلاث كتاب عظام من الجنوب، هم ؛ كامو ، وجيونو ، وبانيول ، قد وجدوا تقريبا نفس الموضوع ليصوروا لنا كوارث التاريخ، ورد فعل البشر إزاءها؟

وما يثير الفضول أكثر حال الفصل العاشر، المعنون بـ «حكاية لانيو العاطفية». فالنسخة التي لدينا لا تعود بالفعل لأعوام ١٩٥٩– ١٩٦٢ ، وهي الفترة التي كتب فيها القطع الأخرى لزمن الحب. بل هي تعود لما قبل ذلك بكثير ، لعام ١٩١٩ ، وقد عثر عليها بمعجزة في واحد من كراساته المدرسية، التي كان مارسيل بانيول، مدرس الإنجليزية، يسجل فيها الواجبات والدروس التي يعطيها، ونتائج اختبارات التعبير، إلخ. وقد جاءت كل التغيرات وتطورات الحبكة الروائية لهذه المغامرة الصغيرة مشابهة بالضبط لمثيلاتها التي سجلها بملاحظاته عام ١٩٦٠ ، ولثلاث بدايات تحريرية قام بها في ذلك الحين.

لذا نكتشف بدهشة، أن مارسيل بانيول، قد تخيل بالفعل من أربعين عاما سبقت، أن يكتب «تصرُّف» لانيو، وهو الشخصية التي ظهر اسمها الآن، لو أننا فتشنا جيدا، بروايته الصغيرة التي كتبها في شبابه «النكوص على العقبين». والتي ظهرت عام ١٩٣٣ ، لدى دار نشر فاسكيل، وحيث جمع روايتين نشرتا قبل ذلك بعشرة أعوام في «فورتنيو»، هما: «زواج بيلوك»، و «الفتاة الصغيرة ذات العينين الحزينتين». وقد تطلبت الأمور إذن، من هذه الحقبة، كتابة تلك الذكريات، بما أن العنوان العام الذي ضمها كان: «ذكريات جاك بانييه».

ولكن بالنسبة لبانيول، تعد المسودة التي في طور الإعداد، مسودة قابلة للتغيير. لم تصل لشكلها النهائي. والمؤلف حر في أن يحور بها حتى اللحظة الأخيرة، بل حتى بعد ذلك، بما أن طبعة أخرى، بمقدروها أن تعدل الطبعة التي ظهرت.

كان السبب إذن هنا. بمعنى أن «زمن الحب» قد تمت كتابتها عمليا، عندما خطرت لمارسيل، دفعة واحدة، فكرة جديدة . فقد وضع يده على شيء كان يشغله. إذ أن كل ما كتبه كان يصور رفاقه، والأساتذة، والأهالي، بأكثر مما صور مشاهد الحب. وبالجملة كان ما كتبه تعبيرا عن (زمن الثانوي) بأكثر مما

هو تعبير عن (زمن الحب).

كان عليه إذن، في مرحلة لاحقة، أن يحاول القيام بإعادة صهر كاملة لـ (زمن الأسرار) و (زمن الحب) معا وأن يعيد، بطريقة ما، توزيع ما تتضمنانه بشكل مختلف. لذا حذف (حكاية إيزابيل) من زمن الأسرار، وهي قصة اللقاء الأول والحب الأول في سن العاشرة وقام بإعادة تشكيل (زمن الحب) من ثلاث حلقات رئيسية هي: حكاية لانيو العاطفية، وحكاية بلانشيت، التي التقى فيها بأول تجربة له في الحب الحقيقي.

وكانت الملاحظات عديدة، وكان عليه أن يُغير بهذا الشكل من مواضع عدة فصول من وقت لآخر، كما يلي:

في زمن الأسرار، تحتل حكاية إيزابيل ١٥٠ صفحة.

يجب أن تحل محلها لعبة المشنوقين ومأساة لانيو، وربما مسابقة لعب الكرات، وباريبون «بذلك تصبح إيزابيل في زمن الحب، مع لانيو، وبلانشيت وبومبونيت.»

في الواقع، كان الجزء الأول قد نشر بالفعل. لكن مارسيل لم يشغل نفسه به ولو قليلا. وهناك ملاحظة أخرى:

«زمن الحب تبدأ بإيزابيل، وهذا للطبعة النهائية، وفي الطبعة العادية، أبدأ بلانيو. والبقية ستكون بلانشيت، ثم السيدة .... إيف وروز؛ وفي البداية، إيف والسيد سيلفان؛ زيزي ؛ والشمر.»

لكن الفنان يقترح، والفن يشترط، كما يقولون. ونكاية في كل هذه القرارات الجميلة لم يعترف لا باقتراحه للطبعة الأولى، ولا للطبعة النهائية. فبعد قليل من الوقت على ذلك، تخلى مارسيل عن ذكرياته بشكل مفاجئ بعد أن كان مستغرقا فيها، وانشغل بأعمال أخرى، وراح يصرف أصدقاءه بلطف ولكن

بحزم وخشونة، في كل مرة يتوسلون إليه فيها أن يكمل (زمن الحب).

إن مسار الإبداع مسار غامض. فلماذا أهمل مارسيل بانيول فجأة كتابه، بعد أن أعلن بنفسه عن نشره عدة مرات، وبعد أن كتب الجزء الأعظم منه؟ وعلينا هنا أن نجيب عدة إجابات عل هذا السؤال.

الإجابة الأولى، هي (الحيرة). كان قد قرر، كما رأينا، أن يختم (زمن الحب) بحكاية مغامرة غرامه الحقيقي الأولى. ولكن لأنه لم يجد أن كتابه سيجيء بهذا الشكل كتاباً للأطفال، وقد تأثر مارسيل كثيرا بما حصلته مجد أبي، وقصر أمي، من قراء شباب وقراء صغار. فقد تسلم من أصدقائه وزملائه، والنقاد، عديدا من خطابات الإعجاب. لكنه تسلم أيضا، وبالآلاف، خطابات من الأطفال، الذين راحوا يكتبون له بلا انقطاع، من كل أرجاء فرنسا، بأنفسهم، أو مع ذويهم، أو الخطابات التي تسلمها مرسلة إليه من فصول دراسية بأكملها، تسأله ما إذا كانت هذه الطرائف حقيقية، أو أن هذه الشخصيات واقعية. وأصابته فكرة أن يصدم حياءهم بالجزء الأخير بالأسى، وقد عرض هذه الحجة كثيرا في مواجهة من ضغطوا عليه أن يكتبها.

الإجابة الثانية، هي أنه رغب في التفكير بشيء آخر. فهو، على العكس من كتاب كثيرين، كان يحب الجديد، لأن الجديد أكثر صعوبة. وهذا ما كان أيضا سببا في أن إخفاقاته لم تحزنه. فقد كانت توقظ تطلعه، وتجعله يرغب في تحليلها، بدارسة الأسباب. على حين كانت نجاحاته تضجره سريعا.

وبالفعل، وبعد قليل من نشر (زمن الأسرار) وجدناه يعود للعمل في النسخة المروية لرواية (مانون الينابيع) التي تركها من عام ١٩٦٥. فأضاف إليها (جان دي فلوريت) وكون العملان معا (ماء التلال)، وقد ظهرتا في نوفمبر ١٩٦٢، ومارس ١٩٦٣. وفي أثناء تلك الفترة أيضا انفتحت شهيته للعمل بذكرياته، وشرع في تحرير المقدمة الطويلة التي تحدثنا عنها فيما سلف،

وكذلك للعمل بسلسلة مقالات حول السينما وهي التي أكملها ونشرهابعنوان (معد سينمائي من باريس). وهي التي كانت في مجموعها تشكل بالطبع متابعة للذكريات، تتعلق بسنوات الشباب ؛ فقد كانت هي ذكرياته كمعد مسرحي وسينمائي. وقد عين لها مكانا في (الأعمال الكاملة)، فقد خمن بانيول في ذلك الوقت ، وشعر، بأنه عليه أن يكتب عمله الرئيسي الكبير ويضع بصمته، المزدوجة، ككاتب.

فهو، من جانب، لم ينظر أبدا لأي عمل على أنه عمل منته. فهو ليس من هؤلاء الفنانين الذين يتصورون أنهم ينقشون على الرخام. وقد علمه المسرح وعلمته السينما أن بالإمكان دائماً، وبحسب الجمهور، أن نحور خطة، وأن نحذف مشهدا، أو نطيله، وهذه دروس لا ينساها أبدا. وتوجد لديه على الأقل خمس أوست نسخ مختلفة من «ماريو»، لذا فقد تهيأ لإعادة كتابه زمن الأسرار وزمن الحب، كما رأينا، بالكامل. وبالمقابل، وبشكل متواضع ومزهو في أن معا، أسعدته فكرة (الأعمال الكاملة)،

الإجابة الأخيرة، نتصور فيها أن العقبة التي جاءت لتحطم مشروع (زمن الحب) كانت في مشروع من مشروعاته القديمة، عاد لصياغته ثانية، وهو الذي ضحى من أجله شيئا فشيئا بكل الباقي، وهو (قناع الحديد). اللغز القديم، وكعكة القشدة بمحلات الغلطة التاريخية، الذي راح يثير شغف مارسيل أكثر فأكثر، وحوله إلى وكيل نيابة، يتفحص الأرشيفات، ويواجه الشهادات، ويقرأ كل الكتب، ويكدس في لذة كل الفرضيات الجديدة. وهو ماجعله على العكس يثير فزع أصدقائه، بأن تعاسة كل البؤساء من سجناء الباستيل لم تؤثر فيه، وبالتفكير فيمن اعتبرهم هم الخاسرين، بدأ بالأسف العميق على أن لويس الرابع عشر لم تجر لصالحه محاكمة سريعة. أما مارسيل، ففي أعقاب نشر دراسته، أعلن أنه سيشرع في إعداد غيرها، بشكل مراجع ومنقح بإسهاب ؛ ومدعم بكم من الكشوفات للحقائق التي لم يسبق نشرها والمدهشة، ولم يخف

أصدقاؤه إحباطهم. لكن مارسيل، الذي كان يهوى إغاظة أصدقائه، لم يهتز، وأكد في حينها، بثقة، أن لديه سراً:

ـ من الآن، وحتى مضي قرن، لو أن كتابا واحدا لي ظل باقيا، فسيكون هو هذا الكتاب وظل يعمل باستمرار ، لعشرة سنوات في (قناع الحديد) الأثيرلديه.

كانت المرة الأخيرة التي تحدثنا فيها عن «زمن الحب» ، في مساء يوم من أيام يناير، بمستهل عام ١٩٧٤ . وكان عائدا من إقامة قصيرة (بالأرض) ، على مقربة من كاني، وكان في تلك الفترة يعاني حالة من الإرهاق المستمر. كان النهار غير مشمس ، والصالون باردا ورطبا بعض الشيء. وقد جلس هو على الأريكة الكبيرة، فكان يبدو كأنه طفل أهملوه وحده بالمنزل وعليه سيماء التعاسة.

ـ هذه المرة قال لي، أعدك، سأعطيك «زمن الحب» في الربيع. فضلا عن أنها مكتوبة، وما علي إلا أن أصعد وأفتش عنها، إنها جاهزة.

وفي اليوم التالي، دخل المستشفى الأمريكي، ليخضع لبعض الفحوص. وعاد منها بعد ثلاثة أيام، وكان حانقاً، يقول أن بالإمكان أحياناً أن نعيش مع المرض، ولكننا لانستطيع أبدا الحياة مع الأطباء، ثم رقد، وراح يحل بعض المعادلات، ويدخن السجائر القوية، وقبل زوجته، ومات.

عندما انتهى كل شيء، وقدر له أن يعود لقرية الكرمة ليرقد في مقبرتها الصغيرة، إلى جوار «الحصن الجديد» غير بعيد عن «قصر أمي» الذي لم يكن قصر أمه، لم تكن لدينا رغبة كافية للتفكير بعمل مارسيل.

بالنسبة للجمهور، لم يتغير شيء. فكتبه صارت تباع بكثرة، وأفلامه تعرض برواج، ومداخلاته تذاع بالتلفزيون ؛ لقد صار على العكس حاضرا بشكل رائع. وبفضل سحر السينما، تمكنا من التحقق من المعجزة التي حدثنا عنها، وهي

معجزة.

المصباح الصغير «الذي يعيد علينا عرض صور العباقرة الذين قضوا نحبهم والراقصات اللاتي توفين، ويوقد عاطفتنا بابتسامات الأصدقاء الذين فقدناهم».

ولكن بالنسبة لنا، نحن أصدقاؤه، فقد جرت الأمور بطريقة مغايرة بعض الشيء. فقد تيقنا أننا لن نتمكن بعد من محادثته بالهاتف في السادسة مساء لنقول له بأننا سنمر عليه، ولا أن نستمع له بالساعات، ورحنا نفكر بالسهرات السعيدة، الكثيرة، التي دعانا لها، وبابتسامته التي لم يتلفها المرض أبداً. فهذا المفجع «المدعو بالموت» -الذي يستمد قوته الرهيبة مما هو ليس فكرةمجردة ولا مما هو شعور عام، وإنما مما يستيقظ كل لحظة، عبر ألف تفصيل من تفاصيل الحياة اليومية- خيّم علينا، وصنع حوله مايشبه الصمت العميق.

مع ذلك، وبعد مضي بضعة أشهر، رغبت في أن أتأكد من الحقيقة. فهل كان مارسيل يقول الصدق، عندما أكد بأنه قد انتهى، عملياً، من الكتاب؟

كانت جاكلين، زوجته، ورينيه، شقيقه في شك من هذا.

ـ أنت تعرفه، فربما كان فقط يريد أن يدخل السرور إلى نفسك.

ولم تكن سوى طريقة واحدة أمامي للمعرفة، وعدنا لمكتب مارسيل. ولم يكن ما قمنا به عملا بسيطاً، لأن المكتب كان في حالة فوضى أكثر مما هو في حالة ترتيب. وشيئا فشيئا تكشف لنا كل شيء، حكاية المصابين بالطاعون، اللطيفة، التي حكاها لنا والتي أسفنا على أنه لم يكتبها، والقطع والأجزاء التي نشرها بالمجلات، والتي لم يحدث أحدا بشأنها أبداً. كما وجدنا ملاحظاته، وخططه، ومسوداته. وتكونت الفصول أمامنا كاملة، ورأينا الكتاب يتشكل أمام أعيننا، وعرفنا أن مارسيل لم يكذب.

هل يمكن طباعة الأعمال بعد وفاة مؤلفها؟ أي هذه الأعمال التي كان

من الوارد أن تخضع لتغيرات كثيرة، وتكتمل، وتنضج، ولم يسعف الوقت بذلك.

هناك من الناس من ينكر هذا. ولو خضعنا لرأيهم لكان من الممكن أن يصبح في حكم المنسي كل ما كنا سنفقده بهذا الشكل، بداية من الإنياذة، التي ضغط فيرجيل على أصدقائه لكي يحرقوها لأنه لم يكن قد صاغها صياغتها الأخيرة، وانتهاء برواية «الزمن المستعار» لمارسيل بروست التي لم يكن قد أصلحها بعد.

لابد دائما، بالطبع، أن تنشر الكتب التي مات مؤلفوها. حتى لو كانت كتبا غير ناضجة، ولا جدوى من وراء نشرها إلا أن تضيف بعض الأشياء لمعرفتنا بالكاتب. ومن باب أولى إذا كانت تضيف شيئا لعمله.

وتلك هي بالطبع، وبلا شك، حالة «زمن الحب» . فهذا الجزء الأخير، برغم كل ما ينقصه،يتضمن بضع صفحات من أجمل ما كتب مارسيل بانيول، ومن أكثرها تأثيراً، وطرافة، في النثر الغني والشفاف في أن معا، والمتميز ببساطة وعبقرية قريحته، وألمعيته، والذي يجعلنا، ونحن في صمت القراءة، نستمع إلى قوة تعبيره.

وهي تقدم لنا أيضا عددا من الاكتشافات الساحرة حول فن الكاتب.

منها أولا قدم هذا الموضوع لديه. فكل ما نشره من إبداع عبر حياته الكاملة كانت بذرته متضمنة في السنوات الأولى لهذه الحياة. وإنه من الممتع لنا أن نرى الصغير لانيو وحكايته العاطفية في عمل مكتوب بسنوات البلوغ، وأن نفهم أن هذه الذكريات، والتي كان تحريرها، في ظاهره الحدثي، قد تم بابتهاج من رجل في الستين من عمره، إلا أنها كانت مختمرة فيه طيلة الوقت.

وإذا كان الموضوع قديماً جدا، فإن الشكل على العكس، لم يتوقف عنده عن الاغتناء. ويكفي أن نقارن الفصل الأخير الوارد بهذا العمل، والذي كتبه مارسيل الشاب في سن العشرين، والذى لمعت فيه قدراته الطبيعية، مع الهوى الجذل، مع الهزل، مع السخرية النزقة، مع الخيال المتدفق، بكل الفصول التي سبقته، لكي نقيس المسافة التي تحرم هذا الفصل من التحكم الهائل، والدقة الرائعة للأسلوب الذى تحدد فيما بعد. فليس هناك تطور بالفن، ولكن هناك تطور لدى الفنانين.

وأخيرا، لاشيء يعرض أفضل من زمن الحب كيف أن عبقرية بانيول، عبقرية كاتب واقعي. فالأشياء، والبشر، والمشاهد التي أحب وصفها، كانت دائما من صميم الحياة وإذا كان قد استنسخ منطوق شخص منحرف عند حكايته لمغامرات طلاب الثانوي هؤلاء، فإن ذلك كان دائما بهدف وصف ماحدث، لكي يتذكر ما هو موجود. ولقد سجل هو بنفسه ملاحظة بذلك، في واحدة من أفكاره التي واتته وكتبها في هامش كراساته والتي صارت تقريبا عقيدته المعلنة في كل أعماله:

أنا أحب الناس كثيرا. والذين لا أحبهم أهتم بهم. فأنا أفضل رجلا أو امرأة أومنظراً جميلا. «ليس هناك ما أراه غريبا فيما هو إنساني» ، قال تيرنس. وأنا أضيف: «ليس هناك شيء غير إنساني ترك تأثيره فيّ».

«لو أنني كنت رساماً، لما صورت سوى وجوه الناس».

وهذه الملاحظات المختصرة. لا تهدف لأن تضيف دراسة أدبية إلى عمل اكتمل بشكل بديع. لكنها تهدف فقط لضبط وضع غير عادل ولأن تشير إلى طريق. فلقد غطى نجاح بانيول لزمن طويل، على الموهبة، وأخفت شخصيته الكاتب، ومنذ موته، كان هو قبل كل شيء، الذي أخذ على عاتقه أن يحث البعض على تذكره، لكي يحتفوا بطرائفه وبقدر من أساليبه المثيرة للإعجاب

والتي تصنع جاذبيته. وهذا الجانب من بانيول موجود، وعظيم ألا ننساه، فهو جزء من تاريخ الأدب، الذي احتل فيه مكانا، كما لو كان بمتحف الشمع، جالسا في حانة البحرية، مع أصدقائه: فنسان سكوتو، ورايمو، وتينو روسي، متأهبين للشروع في لعب الورق. لكن هناك بانيول آخر، وجانب آخر له يبدأ الآن، يجتمع فيه مع رابليه ولافونتين وموليير. وربما تكون اللحظة قد جاءت للحديث عنه.

ونحن حين ندرس مارسيل بانيول، نعترف بما قلتم، ككاتب فرنسي أصيل وعظيم.

عناصر ديناميكا حرارية جديدة

مقدمة، ١٩٣٠

مارسيل بانيول

عندما يتخذ البعض قراره، يكون سعيدا جدا ومستريحا، ولكن يكون من الصعب عليه تحديد خياره، والتحكم في حياته الخاصة. وقد فعلت أنا هذا الآن.

لقد كتبت توباز و ماريو و فاني، ونفذتها في حدود إمكانياتي.

لذا فسأترك الساحة الآن لأن لدى عمل عليّ القيام به منذ وقت طويل، ولم يكن لدي أبداً وقت لعمله - وسأعرضه للقارئ . وأقدم له أسبابي.

لقد تثقفت ثقافة أدبية، وقمت بما عليّ ككل الناس، أي أنني في سن الخامسة والعشرين حصلت على عدد من الشهادات الجامعية، وتمكنت من قراءة نصوص هوميروس، وفيرجيليوس، وجوته، وشيكسبير. لكني كنت مازلت أتصور، بكل حسن نية، أ ن ثلاثة في أربعة تساوى ستة.

لقد حضرت بالطبع، بالثانوي، دروس الرياضة والعلوم، ولكنها كانت دروسا مصاحبة للدراسة الأدبية، فهي دروس مقتضبة، وملخصة، تتزلق على الأسباب لكي تصل إلي تلقيننا القواعد، لأننا لم تكن لدينا القدرة على متابعة الأسباب، فضلا عن أننا لم يكن لدينا الوقت، في ساعتين أسبوعيا، لتعلم كل الهندسة، والجبر، والحساب، والفيزياء، والكيمياء والفلك. وكان أستاذنا الطيب، المدعو السيد كرو، والذي كان يبيعنا (بالخسارة) الدروس المنسوخة، ويكن لنا عاطفة كبيرة رقيقة، وكثيرا من الاحتقار. وعندما شرح لنا عدة قواعد كاملة، قال لنا: ليس بمقدوري أن أشرح لكم براهينها، فلن تفهموها ؛ ولكن عليكم حفظها. وأنا أؤكد لكم بأنها مضبوطة، وأن لها أسساً راسخة. وعموما، لم تكن هذه

دروساً في العلوم، بل كانت دروساً في العقيدة العلمية، وكانت طرحا متصلا للأشياء الغامضة.

وهذا هو السبب، الذى جعلني، بعد عشر سنوات من ذلك، أفتح ذات يوم كتاب الفيزياء، وهو ما جعلني أقرأه بالكامل.

في بعض الأحيان، عندما كان تلميذ يطرح سؤالا، كان السيد كرو يحاول أن يشرح ؛ ولكن في سرعة، وخفة، وبتحوير للموضوع، بغير الدخول في صلبه، كأنه رجل مهذب أرغم على أن يحكي حكاية فاحشة أمام السيدات. فكان يختصر ويسرع.

ومن القواعد التي أعطاها لنا، وكان بعضها يخلب اللب. وكان يتشدق منشداً إياها من على منبره:

إن محيط الدائرة يعتد

بكونه يساوى ٢ط نق

والدائرة تسعد جداً

بأن مساحتها تساوى ط نق٢

وكان يبتسم. كما لو ليقول: بما أنكم طلاب الأدبي فأنا أدرس لكم الشعر. وبعد أن كان يتلو مثل هذه القصيدة، كان ينظر لنا، سعيدا ومفتونا، كما لو ليقول: هيه؟ هل ستعرفون وتفهمون هذا الشيء؟ وكان الفصل كله يندهش لاعتداد المحيط وتأسره سعادة الدائرة، ويعبر عن إعجابه بالتنهدات الطويلة. على حين كان السيد كرو يخيط منبره بفرجار كبير من الخشب، وهو يقول: «انظروا أيها السادة، لا تحقروا أبداً ربة الفن، بما أنها جاءت لتعين العلوم.»

وكان يقول أيضاً

«كتلة الكرة»

مهما حاول البعض أن ينكر

تساوي $\frac{٤}{٣}$ ط نق٣ .

ثم كان ينتظر لمدة عشرين ثانية.

ويذرع الفصل ببصره من أول إيف بورد حتى أفيرينو، ثم يهمس رافعا سبابته وهو مغمض عينيه نصف إغماضة ويضيف:

حتى ولو كانت من الخشب

ويعطي أهمية لهذا البيت الأخير ؛ الذي كان يتلوه بنوع من الخشونة المنتصرة.

ولكنه لم يكن يوجهه لنا أبداً، فقد كان يتحدث مع الكرة نفسها. يتوعدها، وينذرها ؛ بسبب بعض الذرائع التي تتقنع بها، وبعض العظائم التي تتسبب عنها نواياها السيئة؛ حين تتقمص بعض المواد، بطريقة الحرباء كأن تكون ممتلئة، أو مجوفة،ثقيلة أو خفيفة، من الصلب، أو الجرافيت، أو الطباشير، أو المنجنيز، أو النحاس، أو الجص. أو الزنك المقصدر ؛ أو حتى (وتلك حالة التنكر القصوى) لو كانت من الخشب، فهي أبدا لن تهرب من القاعدة المكينة التي حبستها فيها الهندسة، وقبضت عليها فيها، وحددت معاييرها، وقهرتها. فليس بالإمكان الهرب من زناد هذا السلاح الرهيب ؛ $\frac{٤}{٣}$ ط نق ٣ وهي من الخشب.

وهي، مستديرة ومكتنزة، وقد نقش البعض صورة جثتها على صفحة مسطحة من الورق، ولاشيء بمقدوره الهرب من زناد هذا السلاح المعلني:

$\frac{٤}{٣}$ ط نق ٣ حتى ولو كانت من الخشب.

وبعد هذا الانتصار، كان السيد. كرو ينتظر برهة أخرى. وكان وجهه يهدأ ؛ ثم يصير حالما، متسامحا، كريما، وهو يلفظ حرف الراء بشراسة أقل، ويضيف:

يمكننا القول أيضاً:

حتى لو صارت من الخشب.

وهو ينطق كلمة الخشب ضاغطا على كل حروفها.

كانت دروس الفيزياء والكيمياء يعطيها لنا السيد. أونيتو.

وكانت له لحية صغيرة سوداء، تجعله يشبه مفيستوفليس، ولكن على مظهر أكثر شبابا بكثير ، وكان ذا سطوة شديدة، وطيبة قلب كبيرة.

ومثله مثل السيد كرو كان ينطق حروف الراء بطريقته، كما كان يكن هو الآخر لنا نوعا من الاحتقار الودود.

فقد كان البرنامج الذى يعلمه لنا أحمقا تماما، يفرض عليه أن يدرس، فى مائة وخمسين درسا، كل الفيزياء، وكل الكيمياء، للمستهترين الذين لا يعرفون كيف يحلون معادلة من الدرجة الأولى، والذين يجيئون له مباشرة من درس الفلسفة أي مرشوشين بالكامل بـ بيركلي و بحبة رمل فيخته، وموضوعات الأمر المطلق و الفلسفة العملية، و أوجست كونت وبارالبيتون.

لذا، وبكثير من الصبر، ولكي يثير حماس الحمقى الكبار، أي نحن، كان يقوم أمامنا ببعض التجارب. وعندما أفكر في حصص العلوم هذه، أرى أمامي قطعة من السلك تحترق في مخبار أكسجين ؛ ومصباح زئبق، يضفي لونا أخضر على لحية السيد. أونيتو السوداء ؛ ومخباراً يهزه وهو يقول: سترون، سوف يتحول للون الأزرق (ثم يتحول للأحمر الزاعق) ؛ وأخيراً أرى —بين صيحات تمجيد زملائي بفصل الفيزياء — قطعة مخبولة من الصوديوم تطلق رشقات صاعقة على سطح ما يشبه القصرية، وهي ترسل بالوميض الخاطف، مع البصقات المهتاجة، في مشهد يشبه مشهد حريق تحت الماء .

لقد جعلتني الأشعار الحماسية للسيد. كرو، ومفرقعات الشعوذة للسيد أونيتو، أنجح في البكالوريا، بغير أن أفهم شيئا بالرياضيات أو الفيزياء لكن هذين الأستاذين الطيبين علماني، بدون أن أدرك، الشيء الوحيد الذي تمكنا من تعليمي إياه، وهو أهم شيء: فقد علّماني كيف أكون شغوفاً بالتعلم.

حياة مارسيل بانيول

ولد مارسيل بانيول في ٢٨ فبراير ١٨٩٥ في مدينة أوبان Aubagne، لأب هو، جوزيف Joseph، الذي ولد عام ١٨٦٩ وكان يشتغل معلماً وأم هي أوجستين لانسو Augustine Lansot، التي ولدت عام ١٨٧٣، وكانت تعمل حائكة.

وقد تزوج أبوه من أمه في عام ١٨٨٩

١٨٩٨ : ولد بول Paul الصغير، أخوه.

١٩٠٢ : ولدت جرمين Germaine، أخته.

١٩٠٣ : قضى مارسيل إجازته المدرسية الأولى بقرية الكرمة La Treille، على مقربة من أوبان.

١٩٠٤ : تم تعيين أبيه بمرسيليا Marseille، حيث انتقلت العائلة لتستقر هناك.

١٩٠٩ : ميلاد رينيه René أخوه الصغير.

١٩١٠ : وفاة أوجستين.

وأمضى مارسيل كل دراسته الثانوية بمرسيليا، بمدرسة تيير الثانوية Lycée Thiers، وختم حياته الدراسية بالحصول على ليسانس في الأدب الإنجليزي

من جامعة إكس أن بروفانس Aix-en- Provence . أسس مع بعض من زملائه مجلة فورتنيو الأدبية، التي صارت فيما بعد كراسات الجنوب.

في عام ١٩١٥ عين أستاذاً مساعداً بتاراسكون Tarascon .

وبعد أن قام بالتعليم في عدة مؤسسات مدرسية في باميه Pamiers ثم في إكس، صار أستاذاً مساعداً ومعيداً خارجياً بمرسيليا، من عام ١٩٢٠ إلى ١٩٢٢.

في عام ١٩٢٣ عين بباريس بثانوية كوندورسيه Lycée Condorcet.

كتب مسرحيات : تجار المجد Les Marchands de glorie (مع بول نيفوا Paul Nivoix) ، وجاز Jazz التي أحرز بها أول نجاحاته (بمونت كارلو، ثم بمسرح Théatre des Arts ، بباريس عام ١٩٢٦)

وفي عام ١٩٢٨ ومع تقديم مسرحية توباز Topaze (منوعات)، علا نجمه، في غضون أسابيع ووضع قدمه بالفعل على طريق عمله كمؤلف مسرحي.

بعد ذلك مباشرة تقريباً، حقق نجاحاً كبيراً بمسرحية ماريو Marius (مسرح باريس Théâtre de paris، ١٩٢٩) ، والتي استدعي للعمل معه فيها الممثل الكبير رايمو الذي لعب دور قيصر بالثلاثية.

وظل رايمو حتى وفاته (١٩٤٦) صديقه وبطله المفضل.

في ١٩٣١ . أخرج سير ألكسندر كوردا Sir Alexander Korda ماريو بالتعاون مع بانيول،وتصادف إنتاج هذا الفيلم مع بداية السينما الناطقة، وكان أيضاً بداية عمله السينمائي الطويل الذي واصله، والذي انتهى عام ١٩٥٤ ، مع خطابات طاحونتي Les lettres de mon moulin . وقد عمل بانيول بواحد وعشرين فيلماً من ١٩٣١ إلى ١٩٥٤ .

في عام ١٩٤٥ تزوج من جاكلين بوفييه Jacqueline Bouvier التي أسند

إليها عدة أدوار، خصوصا دور مانون في مانون الينابيعManon de sources عام (١٩٥٢).

في عام ١٩٤٦ انتخب عضواً بالأكاديمية الفرنسية Académie francaise ، وهو العام نفسه الذي شهد ميلاد ابنه فريديريك Frédéric.

في عام ١٩٥٥ ، ظهرت له يهوذا Judas في مسرح باريس.

في عـام ١٩٥٦ ، عـرضت فـابيـان Fabien في مـسـرح الغنائيـات الباريسية Bouffes Parisiens.

في عام ١٩٥٧ ، نشر الجزأين الأولـين من ذكـريات طفولة : مجد أبي وقصر أمي

في عام ١٩٦٠ ، نشر الجزء الثالث من ذكريات طفولة : زمن الأسرار.

في عام ١٩٦٣ ، نشرت ماء التلال L'Eau des collines ، مكونة من جان دي فلوريت Jean de Florette ، و مانون الينابيع.

وأخيراً في عام ١٩٦٤ قدم قناع الحديد Le Masque de fer.

وفي ١٨أبريل ١٩٧٤ توفي مارسيل بانيول بباريس.

في عام ١٩٧٧ ، نشر العمل الذي تركه وهو الجزء الرابع من ذكريات طفولة : زمن الحب .

قائمة أعمال مارسيل بانيول

١٩٢٦ «تجار المجد» . بالتعاون مع بول نيفوا، باريس (L'Illustration) .

١٩٢٧ «جاز» . مسرحية من أربعة فصول، باريس . L'Illustration . ونشرتها Fasquelle عام ١٩٥٤ .

١٩٣١ «توباز» . مسرحية من أربع فصول، باريس . (Fesquelle).

١٩٣٢ «فاني Fanny» . مسرحية من ثلاثة فصول وأربع لوحات، باريس . (Fes-quelle)

«النكوص على العقبين Pirouettes» ، باريس Fesquelle، (مكتبة شاربنتييه Bibilotheque charpentier) .

١٩٣٣ «جوفروا Jofroi» . فيلم من إعداد مارسيل بانيول عن Jofroi de La Maussan . تأليف جان جيونو Jean Giono

١٩٣٥ «ميرلوس Merlusse» . نص معد خصيصا للسينما،باريس Petite Illus tration Fasquelle و عام ١٩٣٦ .

١٩٣٦ «سيجالون Cigalon» باريس، Fesquelle (أعقبت ميرلوس) .

١٩٣٧ «قيصرCésar» . مسرحية من جزأين، وعشر لوحات، باريس . (Fes-quelle)

«ريجان Regain» . فيلم لمارسيل بانيول، عن رواية جان جيونو؛ Fesquelleباريس . مارسيليا، مارسيل بانيول. ١٩٥٩ ، Le Schpountz . مختارات «الأفلام التي يمكن قراءتها» باريس — مارسيليا، مارسيل بانيول. Fesquelle . ١٩٥٩ .

١٩٤١ «ابنة حافر الآبار La fille du puisatier» . فيلم. باريس. (Fesquelle).

١٩٤٦ «الحب الأول Le premier Amdur» . باريس، منشـــورات La Ren aissance النهضة.

رسوم بيير لافو pierre Lafaux

١٩٤٧ «ملاحظات حول الضحك Notes sur le rire» . باريس (Nagel).

«خطابات الاستقبال بالأكاديمية الفرنسية Discours de réception à L' Académie Française » ٢٧ مارس ١٩٤٧ ، باريس. (Fesquelle).

١٩٤٨ «زوجة الطحان الجميلة La Belle Meunière» . سيناريو وحوار على موسيقى لفرانز شوبرت.

(مختارات «أساتذة السينما») . باريس. (منشورات Self).

١٩٤٩ «نقد النقد Critique des critiques» . باريس، (Nagel).

١٩٥٣ «إنجيل Angéle» . باريس، (Fesquelle)

«مانون الينابيع» . إنتاج مونت كارلو.

١٩٥٤ «ثلاث رسائل من طاحونتي Trois lettres de mon moulin» . إعداد وحوار فيلم عن عمل ألفونس دوديه. باريس. Flammarion

١٩٥٥ «يهوذا» مسرحية من خمسة فصول، مونت كارلو، pastoreliy

١٩٥٦ «فابيان» ، مسرحية من أربعة فصول، باريس، مسرح، شارع ماتنيون Matignon .

١٩٥٧ «ذكريات طفولة» . الجزء الأول: مجد أبي، الجزء الثاني: قصر أمي، مونت كارلو، (Pastoreliy).

١٩٥٧ «خطاب استقبال مارسيل آشارMarcel Achard بالأكاديمية الفرنسية، وإجابة مارسيل بانيول، ٣ ديسمبر ١٩٥٩» باريس. (Firmin Didot)

١٩٦٠ «ذكريات طفولة» ، الجزء الثالث: زمن الأسرار. مونت كارلو، -Pas) tonelly)

١٩٦٣ «ماء التلال» . الجزء الأول: جان دي فلوريت، الجزء الثاني: مانون الينابيع، باريس. منشورات de Provence

١٩٦٤ «قناع الحديد» . باريس، منشورات (Editions de Provence).

١٩٧٠ «صلاة النجوم La Priére aux étoilles» ، «كاتول Catulle» ، السينما الباريسية، Cinématurgie de paris جوفروا، نايي Naïs. باريس، الأعمال الكاملة.منتدى الرجل الأمين Club de l'Honnête Homme.

١٩٧٣ «سر قناع الحديد Le Secret du Masque de fer» . باريس منشورات .(Editions de Provence)

١٩٧٧ «زمن الحب» ، ذكريات طفولة، باريس، Julliard

١٩٨١ «إسرارات Confidences» . باريس Juillard

١٩٨٤ «الفتاة الصغيرة حزينة العينين La petite Fille Yeux sombres» . باريس، Julliard

وطبعت أعمال مارسيل بانيول بمجموعة الجيب «فورتنيو Fortunio» بمنشورات de Fallois

ترجمات :

١٩٤٧ وليام شكسبير، هاملت. ترجمة وتقديم مارسيل بانيول، باريس، Nagel

١٩٥٨ فيرجيل، Les Bacolliques . ترجمة شعرية. وتعليقات مارسيل بانيول. باريس. (Grasset).

١٩٧٠ وليام شكسبير. حلم ليلة صيف. باريس. الأعمال الكاملة (منتدى الرجل الأمين Club de l'Honnête Homme).

الأعمال السينمائية

١٩٣١ ـ ماريو (إخراج ألكسندر كوردا ـ بانيول).

١٩٣٢ ـ توباز (إخراج لويس جاسنيه Louis Gasnier).

فاني (إخراج مارك إليجريه Marc Allegret) إشراف مارسيل بانيول.

١٩٣٣ ـ جوفروا (عن : جوفروا دي لاموسان Jofroi de la Maussan ـ جان جيونو).

١٩٣٤ ـ أنجيل (عن : واحد من بومون Un de Baumugnes لـ جان جيونو).

١٩٣٤ ـ المقال رقم ٣٣٠ (عن كورتيلان Courteline).

١٩٣٥ ـ ميرلوس.

سيجالون.

١٩٣٦ ـ توباز (النسخة الثانية).

قيصر.

١٩٣٧ ـ ريجان (عن : جان جيونو).

١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ ـ Le Schpountz.

١٩٣٨ ـ زوجة الخباز La femme du Boulanger (عن : جان جيونو).

١٩٤٠ ـ ابنة حافر الآبار.

١٩٤١ ـ صلاة للنجوم (لم يتم)

١٩٤٥ ـ نابي (إعـــداد وحـــوار عن : إمـــيل زولا ـــ إخـــراج ريمون لوبورسيه Raymond Leboursier، إشراف مارسيل بانيول).

١٩٤٨ ـ زوجة الطحان الجميلة.

١٩٥٠ ـ روضـة السيـدة هوسون Le Rosier de Madame Husson(إعـداد وحوار لقصة لجي دي موباسان ـــ إخراج جان بوييه Jean Boyer).

١٩٥٠ ـ توباز (النسخة الثالثة).

١٩٥٢ ـ مانون الينابيع.

١٩٥٣ ـ مهرجان Carnaval(إعداد وحوار عن عمل لإميل مازوE.Mazaud، إخراج هنري فيرني Henri Verneuil)

١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ ـ رسائل من طاحونتي (عن إعداد رواية ألفونس دوديه).

١٩٦٧ ـ قس كوكو نيان Le curé de Cucugnan (مساعدة بالإخراج ـــ عن رواية ألفونس دوديه).

صدر في هذه السلسلة:

«١» أيام من حياتي ❖ هرمان هسه
«٢» قصص التحول ❖ جوجول، كافكا، روث
«٣» الزائر ❖ أمجد ناصر
«٤» من مجموعة البدايات ❖ محمد عفيفي مطر
«٥» حمار البحر ❖ خالد عبد المنعم
«٦» خطوط الضعف ❖ علاء خالد
«٧» كم معجم يصلح لعلم الرقص ❖ إيمان مرسال
«٨» ثمة موسيقى تنزل السلالم ❖ علي منصور
«٩» صمت قطة مبللة ❖ فاطمة قنديل
«١٠» شهرزاد في الفكر العربي الحديث ❖ د. مصطفى عبد الغني
«١١» إغواء الغرب ❖ أندريه مالرو
«١٢» لا أحد يأتي هذا المساء ❖ محمد موسى
«١٣» حوريات البحر ❖ إدوار الخراط
«١٤» حواس خاسرة ❖ منعم الفقير
«١٥» طيور جديدة... لم يفسدها الهواء ❖ طارق إمام
«١٦» سراب التريكو ❖ حلمي سالم
«١٧» صورة شخصية في السبعين ❖ جان بول سارتر
«١٨» ٠٠٠ وليلة ❖ صفاء فتحي
«١٩» أبورق الندم ❖ سعد الحميدين
«٢٠» في البحث عن لؤلؤة المستحيل ❖ د. سيد البحراوي
«٢١» الدليل اللغوي العام ❖ سليمان فياض
«٢٢» الأفعال العربية الشاذة ❖ سليمان فياض
«٢٣» قصة الأدب الفرنسي ❖ د. أمينة رشيد
«٢٤» معجم تفسير الأحلام في ضوء علم النفس الحديث ❖ توم شيتوليند
«٢٥» لماذا؟ ❖ إدوار الخراط
«٢٦» الكتابة ❖ مرجريت دوراس
«٢٧» معجم الجحيم ❖ سيف الرحبي
«٢٨» في مستوطنة العقاب ❖ فرانز كافكا
«٢٩» غواية موتي ❖ سلوى نعيمي
«٣٠» أصوات مراكش ❖ إلياس كانيتي
«٣١» إن تعثت القصائد أو انطفأت فهي بي ❖ فوزية شويش السالم

،٣٢، أبعد من زنجبار ❖ محمد الحارثي
،٣٣، أناهيد ❖ محمد يوسف
،٣٤، فضاء المرائي ❖ عبد الله السمطي
،٣٥، المشي أطول وقت ممكن ❖ إيمان مرسال
،٣٦، لحم التماثيل ❖ محمد عيد إبراهيم
،٣٧، فوضى لا أتقنها ❖ محمد عباس
،٣٨، تشكيل الأذى ❖ ميسون صقر
،٣٩، بريق الرماد ❖ منير رمزي
،٤٠، مجد أبي ❖ مارسيل بانيول (ذكريات طفولة ١)
،٤١، قصر أمي ❖ مارسيل بانيول (ذكريات طفولة ٢)
،٤٢، زمن الأسرار ❖ مارسيل بانيول (ذكريات طفولة ٣)
،٤٣، زمن الحب ❖ مارسيل بانيول (ذكريات طفولة ٤)

مطابع انترناشيونال برس ت : ٢٤٧٤٢٥٩

عندما أستعرض السلسلة الطويلة من الشخصيات التي عشتها في حياتي، أتساءل عن ذلك الشخص الذي كنته كل مرة، فمع أمي، كنت غلاما صغيرا مطيعا متفانيا. متهورا أحيانا، وضعيفا أحيانا آخرى؛ ومع كليمنتين ، كنت متفرجا مندهشا باستمرار، ولكنه متفوق بقوته الجسمانية التي لا تضاهى (أعني لا تضاهى بقوتها هي) ؛ ومع إيزابيل، ركضت على أربع، ثم هربت، متقززا ... وبالمدرسة الثانوية، أخيرا، كنت زعيما، ومنظِّما ماكرا، ولم أكن أرغب إلا في شيء واحد، هو عدم إدخال أهلي في المملكة التي اكتشفتها، خشية ألا تكون مكانا مناسباً لهم.

مارسيل بانيول

To: www.al-mostafa.com